



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب - قسم التاريخ

العلمنة في تركيا العثمانية

بين عامي 1909 - 1924م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة

علاء محمد حسن

إشراف الدكتور

محمود علي عامر

دمشق

1439هـ / 2018م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَوْ مِنْ ذُرِّيِّهِمْ فَأْتِ بِآيَاتِهِمْ وَلَوْ بِأَن يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ سَحَابٍ مِثْلَ هَذِهِ﴾

﴿لَبَسَ بِهِنَّ جُنَاحَهُنَّ مِنْهَا﴾

صدق الله العظيم

﴿الأنعام: الآية 122﴾

الإهداء

إلى طهر روحك وقداسة اسمك يا أبي الشهيد ...

إلى روح جميع شهداء الوطن....

إلى أمي الغالية والمربية الفاضلة أطال الله في عمرك.....

إلى رفيق دربي وسندي في هذه الحياة زوجي الحبيب....

إلى إخوتي الأعزاء وزملائي....

إلى كل من ساعدني وشاركني همومي وكان عوناً لي في بعثتي.....

كلمة شكر

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى كل من ساندني في إنجاز هذا البحث وإخراجه إلى النور

وأخص بالذكر

أستاذي ومرشدي الكريم محمود علي عامر الذي تفضل بالإشراف على رسالتي

كما أتوجه بالشكر إلى كل من الدكتور حسام النابغة والدكتور وضاح نوفل لقبولهم مناقشة

بحثي المتولّد

وأخيراً أتقدم بالعرفان والامتنان إلى الأخ والصديق مثقال العاصي لمساعدتي في أدق

تفاصيل الرسالة ومدي بالمصادر والمراجع المهمة

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	1
تمهيد تاريخي	
أوضاع الدولة العثمانية السياسية والفكرية قبيل انقلاب 1909م	6
الفصل الأول	
التيار السياسي المناهض للدولة العثمانية وبروز القومية التركية وانعكاساتها على العرب	13
أولاً: نشأة جمعية الاتحاد والترقي	14
ثانياً: نشاط جمعية الاتحاد والترقي خارج الدولة العثمانية	20
1- تنظيم صفوف الجمعية من جديد	20
2- المؤتمرات السياسية للجمعية	23
3- وصول الجمعية إلى سدة الحكم	26
ثالثاً: حكم الاتحاديين للدولة العثمانية بين عامي 1909- 1916م	28
1- أهم دعاة الطورانية التركية	29
أ- مؤنيز كوهين	29
ب- يوسف أقجورا	32
ج- ضياء كوك ألب	35
2- الحركة القومية التركية (الطورانية)	37
3- الخروج العربي عن الدولة العثمانية	42
أ- مسببات الانشقاق العربي التركي	42
ب- الردود العربية على السياسة الطورانية	44
• الجمعيات العلنية	44
1- المنتدى الأدبي	44

45	2- حزب اللامركزية الإدارية العثماني
45	• الجمعيات السرية
46	1- الجمعية القحطانية
46	2- جمعية العربية الفتاة
47	3- جمعية العهد
48	• مؤتمر باريس
50	رابعاً: استنتاج الفصل الأول
	الفصل الثاني
52	اليهود ودورهم في هدم الدولة العثمانية
53	أولاً: نشأة اليهود
56	ثانياً: الديانة اليهودية
58	ثالثاً: اليهود (فرقاً – أجناساً)
58	1- اليهود فرقاً
58	أ- الفريسيون
59	ب- القراؤون
59	ج- السامريون
59	د- الصدوقيون
60	2- اليهود أجناساً
60	أ- الأشكناز (اليهود الغربيون)
61	ب- السفارديم (اليهود الشرقيين)
62	رابعاً: الحركات الفكرية السياسية اليهودية
62	1- يهود الدونمه
62	أ- أصل كلمة الدونمه (لغة – اصطلاحاً)
63	ب- المؤسس الحقيقي لليهود الدونمه (سبتاي زيفي)
66	ج- إعلان سبتاي زيفي لنبوءته (اليوم الموعود)
71	د- انقسامات الدونمه بعد موت مؤسسها

71	1- فرقة اليعقوبيين
73	2- فرقة القره قاشيون
74	3- فرقة إبراهيم آغا (القباچلر)
75	هـ- أعياد الدونمه
77	و- عادات لا تزال متبعةً عند الدونمه
78	2- الصهيونية
80	خامساً: أساليب تغلغل (يهود الدونمه) داخل الدولة العثمانية
80	1- التغلغل الاقتصادي ليهود الدونمه
83	2- التغلغل السياسي ليهود الدونمه
86	3- التغلغل الفكري ليهود الدونمه (أكذوبة العلمنة)
90	سادساً: استنتاج الفصل الثاني
	الفصل الثالث
92	مصطفى كمال أتاتورك وعلمنة الدولة العثمانية
93	أولاً: التعريف بنشأة مصطفى كمال وتعليمه العسكري
93	1- مولده ونسبه
94	2- طفولته وصفاته
96	3- تعليمه العسكري
96	أ- المدرسة الحربية
98	ب- الكلية العسكرية العليا
103	4- دمشق
104	ثانياً: نشاطات مصطفى كمال السياسية والعسكرية
104	1- النشاط السياسي لمصطفى كمال
104	أ- جمعية الاتحاد والترقي
105	ب- الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني
106	2- النشاط العسكري لمصطفى كمال
106	أ- ليبيا

108	ب- غاليبولي
112	ج- مساهماته في الحرب العالمية الأولى
120	ثالثاً: الوصول إلى الزعامة
121	1- مصطفى كمال في الأناضول
127	2- مؤتمر لوزان
129	رابعاً: الدولة التركية الجديدة
129	1- تغيير نظام الحكم
129	أ- إعلان الجمهورية
131	ب- إلغاء الخلافة
133	2- الأسس الجديدة لتركيا الكمالية
138	خامساً: استنتاج الفصل الثالث
140	خاتمه
141	قائمة المصادر والمراجع

ملخص الرسالة

تم تقسيم البحث إلى تمهيد تاريخي وثلاثة فصول رئيسية:

تناول التمهيد التاريخي دراسة لأوضاع الدولة العثمانية السياسية والفكرية قبيل عام 1909م.

بينما بحث الفصل الأول في التيار السياسي المناهض للدولة العثمانية وبروز القومية التركية وانعكاساتها على العرب، وذلك من خلال التعريف بنشأة جمعية الاتحاد والترقي والنشاط الذي مارسه خارج حدود الدولة العثمانية، والمتمثل أولاً في تنظيم صفوف الجمعية من جديد، وعقد المؤتمرات السياسية ثانياً، ومن ثم الوصول إلى سدة الحكم، ثم ركز الفصل على فترة حكم الاتحاديين للدولة العثمانية بين عامي 1909-1916م، وأبرز دعاة الطورانية التركية مثل (مؤنيز كوهين، يوسف أقجورا، وضياء كوك ألب)، وبعدها تحدثنا عن بواعث وأسباب الحركة القومية التركية ونتائجها التي أدت إلى الانشقاق العربي التركي، وردود الفعل العربية على السياسة الطورانية التركية التي اتبعتها الاتحاديون، والتي تمثلت بقيام الجمعيات العلنية والسرية وعقد مؤتمر باريس.

أما الفصل الثاني فقد عالج قضية اليهود ودورهم في هدم الخلافة العثمانية، عن طريق توضيح نشأة اليهود عبر التاريخ، والتعريف بالديانة اليهودية، والفرق بين فرق اليهود (الفريسيون، القراؤون، السامريون، والصدوقيون) وأجناسهم (الأشكناز والسفارديم)، ثم تم تناول الحركات الفكرية السياسية اليهودية وأهمها يهود الدونمه والصهيونية، بالنسبة لليهود الدونمه درسنا أصل كلمة الدونمه لغوياً واصطلاحياً، ومؤسسها سبتاي زيفي وإعلانه للنبوة، ومن ثم انقسامهم بعد موت مؤسس طائفتهم إلى ثلاث فرق رئيسية (اليقوبيين، القره قاشيون، إبراهيم آغا)، بعد ذلك تحدثنا عن أعياد الدونمه وعاداتهم المتبعة حتى الآن، أما الصهيونية فقد وضعنا مفهومها ونشأتها، وانتهى الفصل بشرح أساليب تغلغل يهود الدونمه الاقتصادية والسياسية والفكرية داخل الدولة العثمانية.

في حين ركز الفصل الثالث والأخير على مصطفى كمال أتاتورك وعلمنة الدولة العثمانية، من خلال توضيح مولد مصطفى ومراحل حياته (طفولته وتعليمه وشبابه)، ونشاطاته السياسية (دوره في جمعية الاتحاد والترقي والانقلاب على حكم السلطان عبد الحميد الثاني) والعسكرية التي قام بها في ليبيا وغاليبولي وإسهاماته في الحرب العالمية الأولى، ثم تناولنا الطريقة التي وصل فيها مصطفى إلى الزعامة بقيادته حرب الاستقلال وتوقيع معاهدة لوزان، وأخيراً قيام مصطفى كمال بإعلان الجمهورية وإلغاء الخلافة وإدخال الأسس الجديدة وتطبيق العلمانية في تركيا.

الخاتمة: أهم ما توصلنا إليه من نتائج خلال البحث.

قائمة للمصادر والمراجع.

مقدمة

الكثير من الباحثين في التاريخ، يخطؤون بنسب العلمانية وتحديث تركيا على النمط الأوروبي إلى العهد الجمهوري، فالحقيقة أن العلمنة بدأت في عهد السلطان محمود الثاني (1808-1839م)، الذي تمتع بنظرة إصلاحية ورؤية مستقبلية متأثرة بعهد السلطان سليم الثالث (1789-1807م)، الذي اقتصر إصلاحاته المستمدة من النظم الأوروبية على بعض الأمور التي تخص القضاء والمال والعسكر، وبذلك يكون السلطان محمود الثاني وإصلاحاته، بمثابة الخطوة الأولى التي انطلق منها خلفاؤه لإكمال حركته التصحيحية.

كما أن عهد التنظيمات العثمانية الذي بدأ في عهد السلطان عبد المجيد خان (1839-1861م)، يمكن أن نصنفه كخطوة علمانية ورثتها فيما بعد الجمهورية التركية الحديثة.

أما بالنسبة لعهد السلطان عبد الحميد الثاني، فقد شهد ركوداً في العلمنة، على الرغم من ازدياد النفوذ الغربي نتيجة الامتيازات الأجنبية المتتالية، ولكن مع انقلاب الاتحاديين عام (1908م) ثم في عام (1909م)، عادت حركة العلمنة من جديد ولكن بمسمى المشروطية الثانية.

إلا أنها بقيت تقف عند حد معين، له علاقة واتصال بطبيعة وجود الخلافة ضمن الدولة العثمانية التي احتضنتها، بالإضافة إلى أن نظام حكمها كان وراثياً ملكياً، حتى أن المرأة وحقوقها، والتطلع إلى تغيير اللغة العثمانية، كانت مطروحة سابقاً لكن هيكله السلطنة والخلافة منعت تنفيذها وجمّدها.

وبالتالي تكون الدولة العثمانية قد سارت على طرق العلمنة منذ زمن طويل، عندما عدت التحديث والتطوير على النمط الأوروبي هو مجرد إعادة لترتيب الدولة وتنظيمها.

لم تنته الأمور عند هذا الحد، فبعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) وخسارتهم فيها أمام الحلفاء، ووقوعهم تحت الاحتلال، انتقلت الدولة العثمانية إلى مرحلة جديدة بدأت عام (1919م) بقيادة مصطفى كمال أتاتورك لحرب الاستقلال التركية، التي انتهت بانتصار تركيا وتحريرها من الاحتلال (1922م)، وإعلان الجمهورية التركية الحديثة عام (1923م)، لتبدأ حلقة جديدة من العلمنة مرتبطة مع التنظيمات العثمانية وتراثها السابق من جهة، ومع اليهود من جهة أخرى الذين أدوا الدور الأهم في بلورتها وتنميتها، بتأجيج المشاعر القومية والتعصب العرقي، والدعوة إلى بناء

دولة تعتمد على الوحدة العنصرية للأتراك وجميع القوميات الناطقة بالتركية، من خلال تبني (النزعة الطورانية)، بما يخدم أطماعهم ومساعدتهم التي نجحوا في النهاية بتحقيقها.

وتكمن أهمية البحث كونه يمثل:

1- دراسة جديدة وهي العلمانية وخصوصية الحالة التركية العثمانية فيما يتعلق بها، فلم يكن تطبيق العلمانية بمفهومها الشامل داخل دولة مترامية الأطراف كالدولة العثمانية من الأمور السهلة، بل احتاج إلى الكثير من التخطيط والتدبير والتضحيات لتنفيذه.

2- فترته الزمنية التي شهدت فيها الدولة العثمانية حالة من التدهور، جعلتها موضع أطماع الدول الأوروبية في عصر امتداد الهيمنة الإمبريالية، ورغبتها في اقتسام تركة الرجل المريض كما كانوا يسمونها.

3- انتشار النزعة القومية والأفكار الثورية والعصرية التقدمية بين الشعوب المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية، والتي جعلت منها تواقاً للوصول إلى الحرية والاستقلال التام.

4- الانفتاح الفكري لأبناء الدولة العثمانية على معالم الحضارة الأوروبية، وإعجابهم الشديد بتقدم وتطور هذه الحضارة، مما جعلهم ناقلين على دولتهم وحكومتها، ومستعدين للسير في ركب المعارضة إذا كانت قادرة على إنقاذ دولتهم مما هي عليه.

5- العوامل التي مهدت لنشوء جمعية الاتحاد والترقي وانتشارها، ومن ثم وصولها إلى الحكم، ودور المساعدة والدعم الذي تلقته من يهود الدونمه والماسونية العالمية لأجل ذلك.

6- منشأ النزعة الطورانية بين الاتحاديين، وتأثير دعاة الطورانية في سياسة الاتحاديين وتوجهاتهم التعصبية لقوميتهم، والصراع بينهم وبين غيرهم من القوميات.

7- أهمية يهود الدونمه وكيفية تغلغلهم داخل المؤسسات الحكومية، ودورهم في هدم الدولة العثمانية وانهيارها.

8- الأخطاء التي ارتكبتها الاتحاديون بحق دولتهم، عجلت بإدخالها في براثن حرب عالمية مزقتها وأوصلتها إلى الانهيار التام، وبروز مصطفى كمال على مسرح الأحداث كمنقذ للأتراك ومؤسس للجمهورية التركية الحديثة.

بينما تتمحور أهداف البحث في:

إلقاء الضوء على مفهوم العلمانية وطريقة إدخالها إلى دولة مغلقة ومحافظّة كالدولة العثمانية، والتعريف بالظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة العثمانية، وخلقت فيها فئة مثقفة رافضة للأفكار القديمة ومنفتحة على الأفكار الحديثة، والتيارات السياسية التي شكلتها وعملت عن طريقها بتبني العلمانية وتطبيقها.

مع توضيح الدور المفصلي الذي أداه يهود الدونمه اقتصادياً وسياسياً وفكرياً، وجهودهم التي ساهمت في التحكم بمسيرة الاتحادين والقضاء على الدولة العثمانية، إضافة إلى التركيز على شخصية مصطفى كمال نصير العلمانية وباني تركيا الحديثة بعد قيامه بتخليصها من فاجعة كادت تنهي وجودها إلى الأبد.

أما إشكالية البحث فتدور حول الآتي:

- 1- كيف يُفسر انعكاس نظام المركزية والحكم المطلق الذي اتبعته حكومة استانبول على أوضاع المجتمع العثماني السياسية والاقتصادية والفكرية.
- 2- تحديد دوافع نشأت التيارات السياسية المعارضة لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني، وعلاقة هذه التيارات بنمو فكرة القومية التركية وبلورتها بين الأتراك.
- 3- هل كانت الطورانية التركية ودعاتها بدعةً أوروبيةً، أم أن الظروف المحيطة بالدولة العثمانية في الداخل والخارج هي التي خلقتها.
- 4- انعكاسات سياسة التتريك التي اتبعتها الاتحاديون على عناصر الدولة المختلفة، ومسببات الصراع بين الأتراك والعرب على وجه الخصوص.
- 5- من هم يهود الدونمه، وما دور اليهود عموماً والدونمه خصوصاً في القضاء على الدولة العثمانية، وما هي أهدافهم الخفية.
- 6- هل كان دخول الدولة العثمانية في خضاب الحرب العالمية الأولى طوعياً أو إجبارياً، وهل يتحمل الاتحاديون وحدهم نتائج الحرب.
- 7- كيف تحول مصطفى كمال من ضابط صغير في الجيش العثماني إلى رئيس للجمهورية التركية، ولماذا حمّله الباحثون مسؤولية انهيار الدولة العثمانية.
- 8- كيفية تطبيع المجتمع التركي بالطابع العلماني، والخطوات التي اتبعتها مصطفى كمال لتطبيق مشروعه العلماني.

وبالنسبة للإطار الزمني للدراسة:

تبدأ المرحلة التي يعالجها البحث في عام (1909م)، وهو العام الذي نجح فيه الاتحاديون بإحداث انقلابٍ دستوريٍّ على حكم السلطان عبد الحميد الثاني وعزله بناءً على ذلك، وتنتهي فترة البحث في عام (1924م)، وهو العام الذي تم فيه إلغاء السلطنة الخلافة العثمانية والانطلاق في بناء دولة تركية علمانية.

أما منهجية البحث:

تم الاعتماد على منهج البحث الوصفي الاستقرائي التحليلي، القائم على قراءة الأحداث ثم تحليلها للخروج بنتيجةٍ إيجابيةٍ يؤكدُها المنهج العلمي المقارن، الذي يفرض الانحياز ويلتقي مع المصادر والمراجع المتوفرة.

وقد اعتمدت الدراسة على مجموعةٍ مهمةٍ من المصادر والمراجع العربية والأجنبية المترجمة وغير المترجمة، وعلى البحوث العلمية والرسائل والأطروحات الجامعية ذات الصلة بالبحث، بالإضافة إلى مجموعةٍ من الدوريات التي عاصرت ووثقت فترة الدراسة، لعل أبرزها: كتاب (تركية الفتاة وثورة 1908م) لأرنست أ. رامزور (قدم الكتاب شرحاً تفصيلياً عن جمعية الاتحاد والترقي من ميلادها 1889م، مروراً بنشاطها داخل الدولة العثمانية وخارجها، وصولاً إلى الثورة التي قادتها 1908م)، كتاب (الاتحاديون دراسة تاريخية في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية أواخر القرن التاسع عشر- 1908م) لنادية ياسين عبد (وهو من أبرز الكتب التي تحدثت عن الاتحاديين وكيفية وصولهم إلى الحكم، وأفكارهم السياسية التي امتلكوها وحاولوا تطبيقها)، كتاب (الذئب الأغبر مصطفى كمال) لأرمسترونج (يحتوي الكتاب على الكثير من المعلومات المهمة التي تتمحور حول طفولة مصطفى كمال أتاتورك وشبابه وتعليمه، ودوره في حرب الاستقلال وقيامه ببناء دولة تركيا الجديدة على الأسس العلمانية)، كتاب (تركيا الحديثة) لفؤاد شمالي (يبين الكتاب كيفية ولادة تركيا الحديثة من خلال حرب الاستقلال، وإلغاء السلطنة والخلافة وإعلان الجمهورية، كما وضع أسس التحديث التي اتبعتها مصطفى كمال أتاتورك في التعليم، إبدال الحروف، الصحة، حرية المرأة وغيرها من المجالات الثقافية والاجتماعية)، كتاب (العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية) لهدى درويش (يورد الجزء الأول أوضاع اليهود قبل نزوحهم إلى الدولة العثمانية وأبرز تقسيماتهم، ويوضح نشأة سبتاي زيفي وعقيدته ومراحل دعوته، وانقسامات السبتائية بعد وفاته، كما يبين تأثير يهود الدونمه على الاتحاديين والفكر التركي).

وتم تقسيم البحث: إلى تمهيد تاريخي وثلاثة فصول رئيسية، تناول التمهيد التاريخي دراسة أوضاع الدولة العثمانية السياسية والفكرية قبيل عام 1909م.

بينما بحث الفصل الأول في التيار السياسي المناهض للدولة العثمانية وبروز القومية التركية وانعكاساتها على العرب، وذلك من خلال التعريف بنشأة جمعية الاتحاد والترقي والنشاط الذي مارسه خارج حدود الدولة العثمانية، والمتمثل أولاً في تنظيم صفوف الجمعية من جديد، وعقد المؤتمرات السياسية ثانياً، ومن ثم الوصول إلى سدة الحكم، ثم ركز الفصل على فترة حكم الاتحاديين للدولة العثمانية بين عامي 1909-1916م، وأبرز دعاة الطورانية التركية مثل (مؤنيز كوهين، يوسف أقجورا، وضياء كوك ألب)، وبعدها تحدثنا عن بواعث وأسباب الحركة القومية التركية ونتائجها التي أدت إلى الانشقاق العربي التركي، وردود الفعل العربية على السياسة الطورانية التركية التي اتبعتها الاتحاديون، والتي تمثلت بقيام الجمعيات العلنية والسرية وعقد مؤتمر باريس.

أما الفصل الثاني فقد عالج قضية اليهود ودورهم في هدم الخلافة العثمانية، عن طريق توضيح نشأة اليهود عبر التاريخ، والتعريف بالديانة اليهودية، والفرق بين فرق اليهود (الفريسيون، القراؤون، السامريون، والصدوقيون) وأجناسهم (الأشكناز والسفارديم)، ثم تم تناول الحركات الفكرية السياسية اليهودية وأهمها يهود الدونمه والصهيونية، بالنسبة لليهود الدونمه درسنا أصل كلمة الدونمه لغوياً واصطلاحياً، ومؤسسها سبتاي زيفي وإعلانه للنبوذة، ومن ثم انقسامهم بعد موت مؤسس طائفتهم إلى ثلاث فرق رئيسية (اليعقوبيين، القره قاشيون، إبراهيم آغا)، بعد ذلك تحدثنا عن أعياد الدونمه وعاداتهم المتبعة حتى الآن، أما الصهيونية فقد وضعنا مفهومها ونشأتها، وانتهى الفصل بشرح أساليب تغلغل يهود الدونمه الاقتصادية والسياسية والفكرية داخل الدولة العثمانية.

في حين ركز الفصل الثالث والأخير على مصطفى كمال أتاتورك وعلمنة الدولة العثمانية، من خلال توضيح مولد مصطفى ومراحل حياته (طفولته وتعليمه وشبابه)، ونشاطاته السياسية (دوره في جمعية الاتحاد والترقي والانقلاب على حكم السلطان عبد الحميد الثاني) والعسكرية التي قام بها في ليبيا وغاليبولي وإسهاماته في الحرب العالمية الأولى، ثم تناولنا الطريقة التي وصل فيها مصطفى إلى الزعامة بقيادته حرب الاستقلال وتوقيع معاهدة لوزان، وأخيراً قيام مصطفى كمال بإعلان الجمهورية وإلغاء الخلافة وإدخال الأسس الجديدة وتطبيق العلمانية في تركيا.

تمهيد تاريخي

أوضاع الدولة العثمانية السياسية والفكرية قبيل انقلاب 1909م:

اقتترنت الجهود الإصلاحية – منذ نهاية القرن 18م- بشخص مجموعة من السلاطين وكبار المسؤولين العثمانيين من مناصري ودعاة الإصلاح، فمن سليم الثالث إلى محمود الثاني إلى عبد العزيز ثم عبد المجيد وأخيراً عبد الحميد الثاني، ورغم التطور والاختلاف في طرق ومضامين السياسات الإصلاحية لهؤلاء السلاطين -في مستوى وطبيعة الأخذ عن الغرب- إلا أنه يمكن أن نستخلص عدداً من السمات العامة حول الأهداف والدوافع وحول العلاقة بينهما.

فقد كانت الخسائر العسكرية العثمانية تتألى أمام الجيوش الروسية بصورة خاصة، مع تتابع ثورات القوميات المسيحية البلقانية والتهاون في قبضة السلطة المركزية العثمانية، في الفترة نفسها التي ازداد فيها تعالي أصوات هذه القوميات للمطالبة بالمساواة، مع استمرار ضغوط الدول الأوروبية بالتدخل العسكري أو الدبلوماسي لصالح هذه القوميات.

كل هذا كان يعبر عن الطوق الخارجي الذي أحاط بعميلة الإصلاحات في تطوراتها، فضلاً عن تراجع الطوق الداخلي ولاسيما الوضع الاقتصادي الذي أوصل البلاد إلى أزمة مالية خطيرة، ولقد انبعث من هذين الطوقين دوافع الجهود المتتالية للإصلاح.

من ناحية أخرى، حاولت الدولة العثمانية الاستفادة من هذه الإصلاحات في إحياء القدرات العثمانية العسكرية، والحفاظ على ترابط أركان الدولة بالحيلولة دون استقلال أجزائها ووضع حدٍ للتدخل الخارجي في شؤونها الذي يهدف لاقتسام أملاكها من خلال استغلال الحركات القومية الثورية.

ولذا نلاحظ، أن الجهود الإصلاحية المتعلقة بالتنظيمات وتطوير مؤسسات الدولة، تزامن مع الوعود بتطبيق المساواة بين رعايا الدولة العثمانية من مسلمين وغير مسلمين، والحاجة الملحة في وقت الأزمات الخطرة للحصول على الدعم الخارجي، ومع ذلك لم تطبق المساواة على الإطلاق⁽¹⁾.

(1) نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسالة الشرقية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996م، ص 206، 207.

فمن الواضح أن قانون المساواة لم يكن أحد ركائز برنامج الإصلاح، بل كان مجرد ورقة دبلوماسية رابحة تمتلكها الحكومة العثمانية وتلّوَح بها كلما اقتضت الحاجة لذلك، لأن تطبيق هذا القانون كان في غاية الصعوبة ويحتاج إلى إجراءات طويلة تتصل ببلورة مفهوم جديد عن الوطنية وهو (العثمنة)(1).

ورغم أن المصلحين العثمانيين أرادوا إنقاذ الدولة إلا أنهم لم يرغبوا في التأثير على المركز المتفوق للمسلمين الأتراك، وسعيهم للوصول إلى المواطنة المتساوية كان يتطلب منهم التوجه نحو مفهوم علماني للدولة، بعد أن علموا أنه من غير الممكن العودة إلى النظام القديم، ولا توجد أمامهم خيارات سوى التحديث والتغريب.

وهنا يمكننا القول، إنّ الدولة العثمانية أساءت تقدير العواقب الناجمة عن نقل الأفكار والقواعد والقيم الغربية، كما أنها أساءت في اختيار الطريقة المناسبة لإنقاذ الدولة، حيث خلقت معارضة داخلية شديدة لها، بإثارة الجدل حول مدى تطابق وتوافق هذه الأفكار مع أسس الشريعة، وبذلك خالفت الوسيلة الهدف ولم تعالج الدافع، أي أنها لم تعالج الضعف السياسي والاقتصادي(2).

ومن جهة أخرى، فشلت الدولة العثمانية في إدراك خطورة الأزمة الاقتصادية التي زادت من تدهور أوضاع الدولة المالية، وأثرت سلباً في حركة الإصلاح، إضافةً إلى أن هؤلاء المصلحين لم يكونوا ملمين بالاقتصاد أو بالأمور المالية، مما جعل نفقات الدولة تتجاوز موارد الدخل(3).

وهنا بدأت المعارضة تتبلور، وتظهر بين الصفوة المثقفة والبيروقراطية الجديدة، كنتائج متوقعة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في مجال الصحافة والتعليم والانفتاح على الغرب.

أطلقت هذه الفئة على نفسها اسم (العثمانيون الجدد) أو (الشباب العثماني)، بعضهم كان من أبناء الأسر البارزة في النخبة العثمانية، وبعضهم الآخر من موظفي الحكومة، تلقوا تعليمهم في الخارج وفقاً للأساليب العلمانية الحديثة وألموا بلغات أجنبية كانت الفرنسية أهمها(4).

(1) مصطفى، العصر العثماني من القوة.....، ص 208.

(2) مصطفى، العصر العثماني من القوة.....، ص 211، 212.

(3) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، ط2، 1986م، ص 217.

(4) مصطفى، في أصول.....، ص 224، 225.

أكد هؤلاء المثقفين على الحرية السياسية وحقوق المواطنين في ممارستها ضمن نطاق الشرائع والقوانين، مع تأكيدهم على أهمية الدستور في القضاء على التسلط الفردي والنظام الاستبدادي سواءً أكان ممثلاً بالصدر الأعظم والوزراء أم بالسلطان نفسه، كما وجهوا معارضتهم إلى جوهر النظام العثماني المتوارث، وطالبوا باستبداله بنظامٍ حديثٍ يتناسب مع الواقع الجديد للدولة العثمانية.

اتخذ هؤلاء المثقفون من الصحف وسيلةً أساسيةً لنشر طروحاتهم الفكرية وآرائهم، وقد نجحوا في التأثير بالرأي العام العثماني، وتكوين قناعات وأفكار عامة، ممهدين الطريق أمام التجربة الدستورية التي بدأت من إعلان الدستور العثماني (أعدته نخبة من العلماء والموظفين المدنيين وعلى رأسهم مدحت باشا)⁽¹⁾ في أيار 1876م (المشروطة الأولى)، بعد مبايعة السلطان عبد الحميد الثاني للحكم⁽²⁾.

كانت فترةً مفصليةً أدت فيها الظروف الدولية الأثر الأكبر في توقيت إعلان الدستور، الذي جاء بعد عملية إصلاحية طويلة، فأصبح نظام حكم الدولة العثمانية مماثلاً للأنظمة الأوروبية الحديثة، وغدا لها مجلس أعيان ومجلس للمبعوثان⁽³⁾.

لكن هذه المجالس أخذت تعطي انطباعاً فوضوياً عندما بدأت تظهر فيها الدعوات القومية التي تسعى لتفتيت الدولة العثمانية، فما كان من السلطان عبد الحميد الثاني في 14 شباط 1878م إلا أن أعلن حلّ البرلمان وتعطيل أعماله إلى أجلٍ غير مسمى، مستغلاً ظروف الحرب مع روسيا⁽⁴⁾.

(1) مدحت باشا: ولد في استانبول في 1822م، لأب من القضاة يدعى الحافظ محمد أشرف، درس اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة الفارسية والخط ومبادئ العلوم الأخرى على يد بعض علماء الدين، ثم انخرط في سلك الوظائف الحكومية، وتدرج في سلم الوظائف حتى استلم الصدارة العظمى في عهد عبد العزيز، وهو من صاغ الدستور العثماني. للمزيد: جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد (من عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني 1869-1917م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1991م، ص 145.

(2) محمد عصفور سلمان، العثمانيون الجدد أفكارهم الإصلاحية ودور نامق كمال في بلورتها، مجلة ديال، العدد 49، العراق، د.ت، ص 8، 9.

(3) خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام 1909م، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 1990م، 536 صفحة، ص 357، 358.

(4) الوديناني، الدولة العثمانية والغزو.....، ص 378، 379.

لم يكن عبد الحميد مقتنعاً بالنزعة الدستورية الليبرالية التي انتشرت بين الفئة المثقفة، وكان يرى أن مساوئ تلك السياسة هي التي أوصلت البلاد إلى طريق الهاوية، وأن الدولة العثمانية لم تصل بعد إلى مرحلة كافية من النضوج لتطبيق التجربة البرلمانية، وهي بحاجة إلى أب يرشدها ويسير بها إلى أن تصبح قادرة على تنفيذها والاستفادة منها، وقد عبر عن ذلك عدة مرات كقوله:

"إن أوروبا قد عزقت أرضها ومهدت تربتها أعواماً وعصوراً، حتى جاءت بما نراه فيها من مصادر الحرية والمنشآت الحرة، والآن تطلبون إليّ أن أقتلع فسيلاً من منابت الحرية فيها وأغرسها في أراضي آسيا الوعرة البائرة القاحلة، دعوني أتعهد هذه الأراضي قبلاً بما يحسنها فأقتلع أشواكها، وأرفع أحجارها وأفلق تربتها وأخذ الأخاديد وأحفر الأقبية لإروائها ثم أنقل تلك الفسيلة إليها، وأكون أول من يطيب نفساً ويقر عيناً بنمائها ونضارتها"⁽¹⁾.

وبما أن، الدولة العثمانية متعددة الأعراق فإن النظام البرلماني سيشكل خطراً حقيقياً عليها، عدا عن المخاطرة بأن يغدو المجلس النيابي مقراً للخلافات والنزعات الانفصالية الدفينة.

وضح عبد الحميد هنا أن الحرية والنظم الدستورية لا يمكن أن تطبق في ليلة وضحاها، فأوروبا احتاجت إلى سنوات طويلة من التمهيد والتحضير، لتتمكن من إنشاء بيئة حاضنة لها وتصبح قادرة على استخدامها، والدولة العثمانية تفتقر لهذه البيئة في الوقت الحاضر، ولا بد أن تهبط أولاً الطريق أمام هذه النظم، وتخلصها من كل الشوائب التي يمكن أن تهدد بقاءها، ومن ثم تزرع بذورها وتعتني بها لتعطيها النتائج الصحيحة المرجوة منها، لا نتائج عكسية مدمرة.

وإن عهد عبد الحميد الثاني قد اختلف عن سابقه في نواح كثيرة، فرغم استمرار التغييرات والإصلاحات في عهده، غير أنه تميز بكرهه الشديد للغرب وبالحكم الاستبدادي، حيث يمكننا اعتبار فترته من أكثر فترات التاريخ العثماني استبداداً ونزوعاً إلى المركزية⁽²⁾.

(1) نادية ياسين عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية أواخر القرن التاسع عشر - 1908م)، تقديم هاشم التكريتي، دار عدنان، بغداد، 2014م، ص 95.

(2) مصطفى، في أصول.....، ص 240.

وكي يستطيع عبد الحميد الحفاظ على بقاء الدولة العثمانية ووحدةها، عمل على إعادة كل سلطة الباب العالي إلى القصر السلطاني وإدارة الدولة منه، مع إضعاف منصب الصدر الأعظم لعدم كفاءة شاغليه.

كما أحاط نفسه بعددٍ من الشخصيات القيادية المخلصة التي تتميز بالنضج والوطنية والعلم والقيم الروحية، وجعلهم جزءاً من هيكل الحكومة والدولة، وبالتدرّج ركز سلطة الدولة في يديه وطبع الإدارة بطابع الحكم المطلق⁽¹⁾.

ورغم محاولات عبد الحميد الكثيرة مقاومة التأثير الغربي، إلا أن الأفكار الجديدة تسربت إلى داخل الدولة العثمانية، فكثُر الاطلاع على الفكر الحديث ولاسيما في مجال الأدب والعلوم، وعادت الصحف مرةً ثانيةً إلى ترجمة قصصٍ من الأدب الفرنسي، وأخذ عدد القراء يزداد باستمرارٍ وبشكلٍ ملحوظٍ.

كما ساعد ازدياد عدد البواخر التجارية ودوائر البريد وإدخال الخطوط التلغرافية، على زيادة الانفتاح على العالم الخارجي، ورغم أنها سهلت مراقبة مختلف أرجاء الدولة العثمانية، إلا أنها منحت أيضاً السياسيين المنشقين عن الدولة أداةً قويةً استطاعوا منها المناداة بالإصلاح وإرسال تهديداتٍ عن بعد.

وأيضاً يمكننا أن نلاحظ، ازدياد تطبع المجتمع العثماني بالطابع العلماني من خلال ظهور طبقةٍ جديدةٍ في المجتمع، تنتمي إلى الطبقة الوسطى الحضرية، تضم التجار والبقالين والصرافين والحرفيين المسلمين وغير المسلمين، وقد ساهمت هذه الطبقة في إدخال الخل إلى الأساس الديني الذي نشأ عليه نظام الملل (الطوائف الدينية)، مما أسهم في ظهور العلمانية.

لم يكن التقدم الثقافي والمادي الذي شهده عصر عبد الحميد، قادراً على إبعاد المعارضة وإسكاتها، حيث أتاح الانفجار العلمي وإطلاع المفكرين ورجال الدولة العثمانية على الحياة الأوروبية إلى تنبهم للاختلافات الجوهرية الكبيرة بين حضارتهم والحضارة الأوروبية، وبدأت بذور المعارضة تنشأ بينهم احتجاجاً على أوضاع دولتهم، محاولين إنقاذها وتغيير حالها وفق أسلوبٍ جديدٍ يشمل كل الميادين⁽²⁾.

(1) سيف الله آرباخي، السلطان عبد الحميد الثاني (مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية)، دار النيل، القاهرة، ط1، 2011م، ص 77.

(2) مصطفى، في أصول.....، ص 255-258.

وما أن بدأ القرن العشرين حتى أصبحت الفكرة الوطنية هي موضع النقاش الأساسي، بين الأدباء والمثقفين الذين سعوا إلى إنضاج الفكرة وبلورتها، وعملوا على وضع أسس للفكر القومي في الدولة العثمانية، وتركزت أهدافهم حول إنشاء اتحادٍ عثمانيٍّ ضمن وطنٍ يتمتع فيه الجميع بالمساواة.

كما لاقت فكرة الدستور اهتماماً خاصاً منهم، ورأوا فيه الحل الأفضل والأكثر إفادةً لكل مشاكل الدولة العثمانية الداخلية والخارجية، فهو بحسب اعتقادهم السبيل الأمثل للارتقاء بواقعهم وإيصالهم إلى مراتب الدول الكبرى، معتمدين على فكرة العلاقة بين الأنظمة الدستورية وبين قيام كياناتٍ مدنيةٍ متطورةٍ بكافة المجالات في أوروبا⁽¹⁾.

ومع ذلك، سادت حالة من الضبابية تجاه فكرة الدستور بين النخبة العثمانية، التي أدركت واقع المجتمع العثماني الحقيقي، الذي لم يصل بعد إلى مرحلةٍ تجعله مؤهلاً لتبني النظام الدستوري، وخصوصاً أن الهدف الرئيس منه هو تقليص هيمنة السلطان واستبداده.

ونتيجةً لذلك، تعالت أصوات المعارضة ضد الدستور، ولم يجد مناصريه سبيلاً أمامهم إلا المنفى -بعيداً عن تسلط الباب العالي وأعينه- وباشروا من هناك بكتابة أفكارهم ونشرها في الصحف، وتوزيعها على نطاقٍ واسعٍ وبشكلٍ سريٍّ داخل الدولة العثمانية.

وقد أسهمت هذه الصحف في تحطيم أسوار الأفكار القديمة المتهترئة داخل المجتمع العثماني، وفتحت الأذهان أمام أفكارٍ حديثةٍ لم يسبق للدولة العثمانية أن عرفتها، وكان من الطبيعي بسبب الظروف الراهنة، أن يطال النقد قمة السلطة (السلطان)، حيث كثرت الكتابات التي انتقدته سياسياً وشخصياً⁽²⁾.

أدى كل ذلك إلى خلق وجهتي نظر داخل الدولة العثمانية، تحولت إلى محوري صراعٍ سياسي وفكري، تمثلت الفئة الأولى منه بمجموعةٍ من العلماء القدامى، الرافضين لحركة التحديث وتقليد الغرب، بينما ضمت الفئة الثانية جيلاً يقدر الحضارة الغربية، ويعمل على نقل أحداثها وتطبيق تجربتها على كل جوانب الحياة العثمانية⁽³⁾.

(1) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 125-127.

(2) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 131-133.

(3) أبو الحسن علي الحسن الندي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار القلم، الكويت، ط4، 1983م، ص 40.

وبعد ذلك، بدأ مناصرو الحداثة والتغريب بعد يأسهم من استجابة الباب العالي لمطالبهم، وتبعاً للظروف المحيطة بهم من أفكارٍ جديدةٍ، وصراعٍ بين مفاهيم التغريب والإصلاح، والفكرة العثمانية والنزعة القومية، بتشكيل جمعياتٍ سياسيةٍ تحمل صفةً علمانيةً وطابعاً قومياً، يدخل في تكوينها مسلمين وغير مسلمين ومنطوية تحت لواء الماسونية التي مثلت الأب الحنون لها.

أهم هذه الجمعيات (جمعية الاتحاد والترقي) فهي تعدّ من أبرز التيارات السياسية المناهضة لحكومة استانبول، والتي ستمكن من القيام بثورةٍ تقلب من خلالها موازين القوى لصالحها، فيغدوا قادتها هم أصحاب القرار والحكام الفعليين الذين كانوا المسبب الرئيس لزوال الدولة العثمانية، وبرز مصطفى كمال أكبر مناصر للعلمانية على مسرح الأحداث وتأسيسه (الدولة التركية الحديثة) بعد ذلك⁽¹⁾.

(1) كمال السعيد حبيب، الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية (من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية 622-1908م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2002م، ص 448.

الفصل الأول

التيار السياسي المناهض للدولة العثمانية وبروز القومية التركية
وانعكاساتها على العرب

أولاً: نشأة جمعية الاتحاد والترقي:

هياجٌ فكري واجتماعي، وفترة حكمٍ مليئةٍ بالاضطرابات والقوى المناوئة والمعارضة، حروبٌ، تمرداتٌ، وخلايا ثورية سرية برزت على مسرح الأحداث، وأثرت على المحيط السياسي خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني⁽¹⁾ أبرزها (جمعية الاتحاد والترقي).

كانت النواة الأولى لهذه الجمعية في استانبول وتحديدًا الكلية الطبية العسكرية، ونلاحظ أنها اقترنت بشخص الطالب (إبراهيم تيمو) الألباني، الذي تمكن خلال فترة دراسته في الكلية من التعرف على عددٍ من الطلبة حملوا في جعبتهم التوجهات والآراء نفسها، أمثال اسحق سكوتي (من ديار بكر)، محمد رشيد (من القوقاز)، وعبد الله جودت (من عربكير)، وبما أنهم يشاطرونه ذات المواقف، اقترح عليهم في أيار عام 1889م تشكيل منظمةٍ وطنية سرية، يكونون هم الأربعة نواتها، تناهض نظام الحكم وتهدف إلى عزل السلطان، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى أصبحت محط اهتمام العديد من الطلاب الآخرين، الذين سارعوا للانضمام إليها⁽²⁾.

أطلق على هذه المنظمة اسم (الاتحاد العثماني)، رفعت شعار الثورة الفرنسية⁽³⁾ (حرية، مساواة، إخاء)، كما تسربت أفكارها إلى العديد من مدارس العاصمة العليا، كمدرسة الطب البيطري، الأكاديمية الحربية، الأكاديمية البحرية، مدرسة الهندسة والمدفعية⁽⁴⁾.

(1) عبد الحميد الثاني: هو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد خان الأول، ولد بعد مراد الخامس في 22 أيلول 1842م في السراي الهمايوني جراغان القديم، كان ولي عهد ثالث، جلس على العرش 31 آب 1876م. للمزيد: يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري 1231-1922م، ترجمة عدنان محمود سلمان، 4 أجزاء، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2010م، ج3، ص 95.

(2) أرنت أ. رامزور، تركية الفتاة وثورة 1908م، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة فرنكلين للنشر، بيروت، 1960م، ص 49، 50.

(3) الثورة الفرنسية: بدأت في 27 آب 1789م، مظاهرات في ضاحية سانت أنطوان المجاورة لسجن الباستيل، احتجاجاً على خطب انتخابية ألقاها رجل يدعى (ريفيلون) وآخر اسمه (هنريو)، نددا فيها بارتفاع أجور العمال وطالبوا بتخفيضها، فأحرق المتظاهرون بيت كل منهما، وأسفرت المصادمات مع الشرطة إلى سقوط قتلى ومنها انطلقت الثورة. للمزيد: لويس عوض، الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1992م، ص 68.

(4) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلابات 1908-1913م، ترجمة عاصم عبد ربه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2017م، ص 83.

ويمكننا أن نلاحظ خطورة هذا الانتشار فقد وُلِدَتْ هذه المعارضة السياسية بين صفوف الجيش، الذي يعدّ عماد الدولة وحاميها، وزعزعة مؤسسة مهمة كمؤسسة الجيش سيؤلّد العديد من النتائج التي لا يحمد عقباها.

نجد أن تنظيم هذه الجمعية كان مطابقاً لتنظيم جمعية (الكاربوناري) (إيطاليا الفتاة)⁽¹⁾، وخاصةً في طريقة التعارف بين أعضائها، فكل واحدٍ منهم يحمل رقماً وظيفياً يميزه عن سواه⁽²⁾.

بمعنى آخر أعطي كل عضوٍ من الأعضاء رقماً سرياً كسرياً، "تتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة في المنظمة، ثم بإعطاء رقمٍ لكل عضوٍ في تلك الجماعة، فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضو البسط، ولتوضيح ذلك نقول أن العضو الخامس في الخلية السابعة كان يدخل في قائمة الجمعية برقم (7/5)"⁽³⁾.

لابدّ لنا أن نطرح التساؤل التالي: لماذا كانت الكلية الطبيّة دون غيرها من الكليات مهداً لجمعية الاتحاد العثماني؟

مع بدايات حكم السلطان عبد الحميد الثاني، كان التعليم بشكلٍ عام والطبي بشكلٍ خاص قد خضع لحملة تنظيم وتحديثٍ كبيرة وفق خطة علميّة، ومناهج دراسيّة جديدة، احتاجت إلى استقدام معلمين أجانب (فرنسيين، ألمان، وبريطانيين) للتدريس في تلك المدارس، فكان من الطبيعي، أن تنتشر بين صفوف الطلاب الأفكار القومية والعلمانية بمفاهيمها الغربية السياسيّة، وأن تتغير نظرتهم لواقعهم الاجتماعي ولمكانة دولتهم في نفوسهم كلما نمت وتطورت هذه الأفكار.

كل ذلك، جعل الجو السائد في هذه الكلية موالياً للثورة ومناسباً لها، فانتشر التمرد، وتعلّلت الأصوات التي تفضّل أن تهتف (يحيا الدستور) بدلاً من (عاش السلطان)⁽⁴⁾.

(1) الكاربوناري (إيطاليا الفتاة): نشأت في عصر الملك فرانسوا الأول ملك فرنسا، على يد أسقف يدعى (تيوبولد) وضمت الفخّامين والخطّابين، هدفها إدارة الشؤون العامة طبقاً لرغبة الجميع ورأيهم، إي إقامة دولة ديمقراطية عادلة، كان التعارف بين أعضائها يجري طبقاً لعبارات سرية ورموز خفية. للمزيد: محمد عبد الله عنان، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، دار أم البنين، د.م، د.ت، ص 153.

(2) العزاوي، الدولة العثمانية من الخلافة.....، ص 83.

(3) رامزور، تركية الفتاة.....، ص 50.

(4) العزاوي، الدولة العثمانية من الخلافة.....، ص 83.

وهنا نلاحظ أن الأفكار الغربية، قد وجدت طريقاً ومنفذاً لها بسهولة إلى عقول هؤلاء الطلبة الغضة المنساقين وراء ظواهر الأمور، دون معرفة عواقبها، ومدى ملاءمتها لمجتمعاتهم.

دفعت الحماسة هؤلاء الأعضاء لعقد عددٍ من الاجتماعات بمنتهى الجدية، أطلق على كلٍ منها اسمٌ خاصٌ به، فدعي أول اجتماعٍ (اجتماع الأربعة) (Dörtler İctimai)، أما ما تلاه من اجتماعات فقد عرفت باسم (اجتماع أمام الحمام) (Hamamönu İctimai)، أو (اجتماع في غرفة المطالعة أمام حطب الموقد) (Hatab Kiraathanesi İctimai)، يذكر أن أول اجتماعٍ رسمي للجمعية، كان بعد مرور شهرين على الاجتماع الأول، بعيداً عن الكلية الطبية العسكرية في مقهى علوش آغا الألباني، وقد شارك في هذا الاجتماع الذي سمي (اجتماع تحت شجرة التين) (İnciralti İctimai)، اثنا عشر عضواً حسب ما ذكره تيمو، وهم بدونه اسحق سكوتي، عبد الله جودت، الصحفي علي شفيق الأزميري، موظف وزارة العدل علي رشدي الهرسكي، المدرّس في كلية طب الشام محرم الكريتي، الطالبان عساف درويش وشرف الدين مغمومي من كلية الطب، محمد رشيد الشركسي وثلاثة أشخاص آخرين نسي تيمو أسماءهم.

كان نظام العمل في الجمعية وطريقة قبول أعضائها، المحور الأساسي لمناقشات الاجتماع، وبين مؤيد ومعارض لاقتصار العضوية على المسلمين، أصدر إبراهيم تيمو القرار النهائي، بجعل باب الانتساب مفتوحاً أمام كل عثماني، دون النظر إلى قوميته أو ديانته، طالما برهن على حسن نيته واستعداده للنضال معهم.

أما القرارات التي اتخذها المجتمعون، فكانت إجراء لقاءات أسبوعية يتم فيها جمع الرسوم، وانتقاء بنود النظام الداخلي للجمعية، وتأسيس فروع لها، إضافةً إلى قيامهم بانتخاب هيئتهم الإدارية، حيث أصبح (علي رشيد) احتراماً لسنة ومقامه رئيساً للجمعية، و(شرف الدين مغمومي) أمين سرها، و(عساف درويش) أميناً لصندوقها.

ورغم محاولاتهم الحثيثة للحفاظ على سرية الجمعية، إلا أن أخبارهم وصلت إلى السلطان عبد الحميد الثاني، ففي عام 1892م قدم مجموعة من طلاب الكلية تقريراً إلى القصر السلطاني، بيّنوا فيه أنّ الكلية الطبية العسكرية أصبحت مرتعاً خصباً تنتشر فيه (أفكار الحرية) بطلاقة⁽¹⁾.

(1) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 170-173.

فضلاً عن المطبوعات المحظورة، واحتمالية قيام نشاطاتٍ مخلةً بالأمن ومعاديةٍ للنظام في وقتٍ قريب، ونتيجة ذلك، تم عزل مدير المدرسة (علي صائب باشا) من منصبه، وتعيين (زكي باشا) مدير المدارس العسكرية بدلاً عنه، وقد أجرى الأخير عملية تفتيشٍ واسعةٍ في الكلية نتج عنها تحقيقات واعتقالات طالت عدداً كبيراً من الطلبة⁽¹⁾.

كان من المتوقع أن تحول هذه الإجراءات دون استمرار الجمعية وتناميها، لكن على العكس تماماً ازداد توسعها حيث جذبت عناصر جديدة مهمة، مثل شيخ الطريقة المولوية (نألي أفندي)، والموظف المدني في دائرة الحسابات الحربية (حاجي أحمد أفندي)، وغيرهم من الأتباع الذين انضموا إليها، أرادت الجمعية بعد ذلك أن توجه نشاطها إلى خارج حدود الدولة العثمانية، من خلال كسب المنفيين إلى جانبها، وحققت ما أرادت فقد بات لها فروغٌ في كلٍ من لندن، القاهرة، رومانيا، باريس وجنيف، أما أعضاء الجمعية الأوائل الذين غدوا موضع شبهةٍ لدى السلطات، بدأوا يغادرون البلاد هرباً إلى أوروبا وخاصةً فرنسا، مثل (إسماعيل زهدي وناظم السلانيكي)⁽²⁾.

وبما أن فرنسا أصبحت الحوض الدافئ لهؤلاء الشبان، قام (أحمد رضا)⁽³⁾ في عام 1889م بالسفر إلى باريس لحضور معرض باريس الدولي، وما أن وصل إلى هناك أعلن عدم عودته مرةً ثانيةً إلى بلاده، متخلياً بذلك عن المنصب الذي وصل إليه كمدير لإدارة المعارف في بورصة، ومعلنًا معارضته لحكومة عبد الحميد الثاني، وقد بقي قرابة ست سنواتٍ لم يقم فيها بأي حركةٍ معارضةٍ تذكر⁽⁴⁾.

(1) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 173.

(2) ابتسام أبو ميزر، سنتان مفصليتان في حكم الإمبراطورية العثمانية 1908-1909م، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة بير زيت، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ العربي الإسلامي، 2017م، 152 صفحة، ص 31، 32.

(3) أحمد رضا: ولد في استانبول والده علي بك وأمه مجرية، تخرج من مدارس استانبول وعين مديراً للمدرسة الإعدادية في مدينة بروسة، سافر إلى باريس 1890م واطلع على أهم كتب الفلسفة والفنون، واشتغل بالمسائل السياسية، وحرر لائحة مفصلة تشتمل على رسائل في إصلاح الإدارة والمالية والزراعة والتجارة وغير ذلك. للمزيد: روجي الخالدي، الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، دار الهداوي، القاهرة، 2012م، ص 51.

(4) علي محمد الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية وأسباب زوال الخلافة العثمانية، المكتبة العصرية، بيروت، 2002م، ص 67.

إلى أن اتصل فيه ناظم السلانيكي وعرض عليه أن يمثل الجمعية في باريس من خلال إدارة صحيفة (مشورت) -الصحيفة الرسمية للجمعية- فلم يتردد أحمد رضا في القبول وأصبح عضواً في الجمعية عام 1895م، ثم باشر بنشر الصحيفة مرتين في الشهر، وباللغتين التركية والفرنسية بعد أن كانت مقتصرة على اللغة التركية، كما تم أيضاً في تلك الفترة تبديل اسم الجمعية من (الاتحاد العثماني) إلى (الاتحاد والترقي)⁽¹⁾.

بعد ذلك بفترة قصيرة وتحديداً في 3 كانون الأول 1895م، نشر أحمد رضا أهداف الجمعية في مقالٍ عنوانه (منهاجنا) جاء فيه:

"إننا نرغب في العمل لا لخلع الأسرة الحاكمة، التي نعتبرها ضروريةً لحفظ النظام السليم، ولكن لنشر فكرة التقدم التي نريد لها نصراً سليماً.....إننا نطالب بالإصلاحات، ولا نقصرها على هذه الولاية أو تلك، بل نطلبها للإمبراطورية كافة، لا لمصلحة قومية واحدة، بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين.....إننا نريد أن نتقدم في مضمار المدنية، ولكننا نعلن بعزم أننا لا نريد أن نتقدم إلا بالطريق الذي فيه تدعيم العنصر العثماني....إننا مصممون على رعاية أصالة حضارتنا الشرقية.....إننا نعارض إحلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطة العثمانية"⁽²⁾.

ثقة كبيرة نلاحظها في هذه الكلمات التي سطر بنودها أحمد رضا، وهذا إن دلّ على شيء فيدل على الشعبية الكبيرة والالتفاف الجماهيري حول شخصه في أوروبا، وهو دليل واضح أيضاً، أن الجمعية رسّخت وثبتت خطاها في الخارج.

في الوقت نفسه، تمكنت الجمعية من تأسيس فروع لها في أنحاء مختلفة من الدولة العثمانية، حيث وصلت إلى البلقان، سالونيك، بيروت، دمشق، كريت، رودس، قبرص، البوسنة وغيرها من المناطق، فازداد بسرعة ملفتة عدد المنضمين إلى الجمعية، مقارنةً بطبيعة النظام.

لم يمر هذا التطور الكمي مرور العابرين، فقد رافقه تطور نوعي لاحظناه في تزايد فعاليات الجمعية، وممارسة نشاطات برزت بشكل أكبر وأقوى مضموناً وتأثيراً⁽³⁾.

(1) ميزر، سنتان مفصليتان.....، ص 32، 33.

(2) رامزور، تركية الفتاة.....، ص 56، 57.

(3) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 180.

دأب الاتحاديون لاحقاً إلى استغلال كل موقفٍ سياسيٍّ ممكنٍ لصالحهم، وقد كانت مذبحه الأرمن في استانبول بعد الانتفاضة الفاشلة التي قادوها 1895-1896م خير عونٍ لهم، ولاسيما أن كلاً من إبراهيم تيمو وإسحاق سكوتي وإسماعيل إبراهيم، سارعوا إلى تأمين مطبعةٍ حجريةٍ، طبعوا فيها منشوراً وزعوا آلاف النسخ منه في أنحاء استانبول.

بيّنوا فيه أسفهم من هذه الانتفاضة، ثم ألقوا بمسؤولية هذه الانتفاضة والمذبحه التي نتجت عنها على نظام الحكم الاستبدادي، الذي أهمل الإصلاحات ولم يطبقها، وبذلك تكون دعوتهم إلى الشعب بالانتفاضة واضحةً وعلنيةً، لأن هذا المنشور كان الأول لهم وحمل توقيع جمعية الاتحاد والترقي العثمانية⁽¹⁾.

ومن هنا كانت انطلاقه جمعية الاتحاد والترقي في ميدان الصحافة، فقد صدر ما يزيد عن ثلاثين صحيفةً معارضةً بمبادرةٍ منهم في كلٍ من مصر وسويسرا، ومن أهم هذه الصحف (الميزان)، أسست على يد (مراد بك الداغستاني) -أستاذ التاريخ في مدرسة الإدارة- الذي أدى دوراً جوهرياً في تنظيم المعارضة ضد السلطان عبد الحميد الثاني.

كما استطاع بفضل صحيفته وإيمانه بقضيته، أن يجذب إليه عدداً كبيراً من أعضاء الجمعية، إلى حد منافسة صحيفة (مشورت) ومؤسسها أحمد رضا، وخاصةً بعد أن نقل مركز نشاطه إلى جنيف، إضافةً إلى صحيفة (عثمانلي) التي أسسها إسحق سكوتي وعبد الله جودت في جنيف.

كانت مطبوعات الجمعية تدخل إلى الدولة العثمانية بصورةٍ سريةٍ وبطرقٍ عديدةٍ، إما عبر السفارات الأوروبية، وإما من خلال دوائر البريد الأجنبية، التي كانت تتمتع بامتيازاتٍ خاصةٍ جعلتها غير خاضعةٍ للرقابة⁽²⁾.

وهنا نلاحظ ضلوع الدول الأوروبية ومساهماتها في تسهيل نشر هذه الأفكار داخل المجتمع العثماني، لتصل إلى أهدافها في إسقاط الدولة العثمانية وتدميرها، ومن ثم اقتسام أملاكها تحقيقاً لمشروعها الذي كانت تصبو إليه، لذا نجدها تستخدم كل امتيازاتها وقوتها داخل الدولة العثمانية لخدمة أي صوتٍ معارضٍ يعلو ضد الدولة العثمانية وحكومتها.

(1) حسن كلشي، الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة محمد الأرنؤوط، دار قدسية، الأردن، ط1، 1990م، ص 26.

(2) العزاوي، الدولة العثمانية من الخلافة.....، ص 84، 85.

أثرت هذه المطبوعات بشكلٍ كبيرٍ على الداخل العثماني، وأخذت فعاليات جمعية الاتحاد والترقي تمتد وتنتشر بسرعةٍ كبيرةٍ داخل استانبول وبقية أنحاء الدولة العثمانية، مما أثار ارتياب الحكومة ودفعها للقيام بحملةٍ من الاعتقالات والمداهمات.

وصلت منها إلى الأعضاء الأصليين للجمعية، فاعتقلت اسحق سكوتي، عبد الله جودت، شرف الدين مغمومي، كريم سيباطي، والمدرس في المدرسة الحربية أحمد بك تشروكسولو، وقد أصدرت بحقهم أحكام نفيٍ إلى أماكن مختلفةٍ كرودس وطرابلس الغرب، بينما استطاع إبراهيم تيمو الهرب قبل أن يقبض عليه إلى رومانيا، وتأسيس فرعٍ للجمعية فيها⁽¹⁾.

تتالت الأحداث بعد ذلك، حيث أصبح حاجي أحمد رئيساً للجنة المركزية الجديدة في استانبول، وقد عمل مع أتباعه على تدبير مؤامرةٍ لخلع السلطان عبد الحميد الثاني في آب 1896م، لكنها فشلت وتم اعتقال ونفي جميع المشتركين فيها⁽²⁾.

بعد ذلك، حاول بعض الأعضاء الذين بقوا في استانبول، إعادة تنظيم صفوف الجمعية وجمع الأنصار من جديد، لكنهم فجعوا بضربةٍ قويةٍ جاءتهم من الخارج، فقد أوقف أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في أوروبا وعلى رأسهم مراد بك كفاحهم ضد السلطان عبد الحميد الثاني فجأةً عام 1897م، ولم يستطع بعدها أي شخصٍ من استانبول أن يتجرأ وينشأ تكتلاً ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وبسبب ذلك أسكتت أصوات المعارضة في كافة أنحاء الدولة العثمانية لعدة سنوات⁽³⁾.

ثانياً: نشاط جمعية الاتحاد والترقي خارج الدولة العثمانية:

1- تنظيم صفوف جمعية الاتحاد والترقي من جديد:

لاحظنا أن عام 1897م كان من أقسى الأعوام على جمعية الاتحاد والترقي، فالانهيار شبه التام الذي لحق بفرع الجمعية في استانبول، جعل مصير الجمعية مجهولاً، كما ازدادت التساؤلات وكثرة الأقاويل حول من يعيد للجمعية روحها ونشاطها من جديد؟

(1) رامزور، تركية الفتاة.....، ص 58.

(2) رامزور، تركية الفتاة.....، ص 61.

(3) رامزور، تركية الفتاة.....، ص 75.

بقي أحمد رضا ورفاقه وحيدين في نضالهم ضد السلطان، مما ساعده على التفرد في قيادة فرع باريس، وفرض نفوذه على بقية فروع الجمعية، كما تمكن في الوقت نفسه، نتيجة دعم المسؤولين المالي له من شراء مطبعة حديثة، أعانته في طباعة منشورات الجمعية بدلاً من المطبعة الحجرية⁽¹⁾.

سلطت الأضواء على أحمد رضا، وارتفع نجمه بشكل ملحوظ بعد فشل الدعوة القضائية الموجهة ضده وضد صحيفته من قبل السلطات العثمانية في محاكم باريس، وازداد الدعم والتأييد له حتى بين أنصار مراد بك، وهنا وجد أحمد رضا الفرصة مناسبة لإصدار عدد جديد من (مشورت) في 23 أيلول 1897م، مع عنوان فرعي حمل اسم (لسان حال جمعية الاتحاد والترقي)، وهو عبارة عن مقدمة ملتهبة خطها أحمد رضا، قال فيها:

"وجد الحزب أن لا جدوى ترجى من إصدار جريدتين باللغة التركية في آن واحد، وقد انجذب أولئك الذين أصدروا ميزان في جنيف بدلاً من مشورت لوهج المكافأة الموعودة من رئيس جهاز المخابرات أحمد جلال الدين باشا، وعادوا إلى إسطنبول.

إني أجد في مقابلة أصدقائي لأحد خدم عبد الحميد إذلالاً مضاعفاً أولاً لأنه جاسوس، وثانياً لكونه خادماً لسلطان طاغ، ولم يكتفِ البعض منهم بلقائه، بل وقبلوا منه الهدايا أيضاً، لقد انسحبوا من ميدان الغزو والقتال، وباعوا ختم الجمعية والمطبعة التي كانوا قد انتمنوا عليها، وأوقفوا إصدار ميزان.

ومثلما أن الأفعال المخزية التي قام بها حفنة من الأشخاص الحقراء الذين تجسسوا للقصر، وصاروا أدوات للقتل الجماعي لم تلطخ شرف الأمة العظيم، فإن عودة خمسة أو عشرة موتورين التحقوا خطأ بالشبان الأتراك لن ينسف قوة وسياسة جمعية الاتحاد والترقي"⁽²⁾.

إن عبارات النصر ومقدار الثقة والقوة في كلمات أحمد رضا، كانت واضحة بصورة جلية، إضافة إلى كمية الاستحقار والاستخفاف التي وصف بها جماعة جنيف المتمثلة بشخص مراد بك وصحيفة ميزان، بعد قبولهم الخضوع لمطالب السلطان، عدا عن تأكيده المطلق لاستمرار نشاط وسياسة جمعية الاتحاد والترقي ضد حكم السلطان، موجهاً بذلك جميع الأنظار نحوه.

(1) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 199.

(2) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 211-213.

ورغم ذلك، لم تغب جنيف عن مسرح الأحداث، فقد قرر عددٌ من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين بقوا فيها إعادة ترتيب صفوفهم، وإصدار صحيفتهم مرةً ثانيةً، وكان لهم ما أرادوا حيث تمكنوا في عام 1897م من إنشاء صحيفةٍ جديدةٍ ناطقة باسم الجمعية سموها (عثمانلي)⁽¹⁾.

ومع أنهم استطاعوا استعادة مكانتهم السابقة، وتنظيم لجنّتهم وضم شخصيات سياسية بارزة إليهم، إلا أن تعاظم مشاكلهم المالية، وتزايد المضايقات والضغوط التي مارستها الحكومة السويسرية عليهم، اضطرتهم إلى قبول اتفاق 1899م، وإيقاف إصدار منشورات (عثمانلي) مقابل إعلان عفوٍ عامٍ عن كل المسجونين السياسيين في طرابلس الغرب.

تزعزعت مكانة هؤلاء الأعضاء في نفوس مناصريهم داخل الدولة العثمانية، الذين عدّوا هذا الاتفاق خيانةً عظيمةً للجمعية⁽²⁾، ومرةً أخرى لم يبقَ في ساحة الأحداث سوى أحمد رضا وصحيفة مشورت، كمدافعٍ وحيدٍ عن قضيةٍ بدا الانتصار فيها شبه مستحيلٍ، لكن الأقدار شاءت أن تعيد الحياة لهذه الجمعية، فقد هرب الداماد (محمود باشا) -ابن الأميرال خليل باشا وزوج أخت السلطان محمود الثاني- في 14 كانون الأول 1899م إلى باريس، مع ولديه الأمير لطف الله والأمير صباح الدين، وما لبث أن تبعه الزعيم الألباني (إسماعيل كمال بك) -والي طرابلس الغرب- مع أولاده أيضاً.

وجاء هروب هذه الشخصيات وبالأخص الداماد محمود، كضربةٍ موجهةٍ تلقاها السلطان عبد الحميد الثاني، لأن الداماد محمود باشر منذ لحظة وصوله إلى باريس في الاتصال بالأحرار العثمانيين الموجودين فيها، وتبادل الرسائل معهم، ثم انطلق في حركة مقاومته ضد السلطان عبد الحميد الثاني، حيث أرسل إليه رسالةً شديدة اللهجة، هاجمه فيها أعنف هجوم ذاكراً جميع مساوئه وظلمه بحق شعبه، ولم تنجح جميع المغريات والضغوط التي بذلها السلطان في سبيل إعادته إلى استانبول.

في هذه الأثناء، كانت الخلافات على أشدها بين معظم الجماعات العثمانية في باريس، حول كيفية إصلاح الدولة وإدارتها، والنقطة الوحيدة التي جمعتهم هي محاربة السلطان عبد الحميد الثاني والتخلص من حكمه المستبد ونظامه الظالم⁽³⁾.

(1) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 213، 214.

(2) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 220 - 222.

(3) توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908 - 1914م، دار الهنا، القاهرة، 1960م، ص 52، 53.

ومن الطبيعي أن تبذل المساعي من أجل تنسيق أعمال هذه الجماعات، والشخص الأنسب لهذه المهمة الذي توجهت الأنظار إليه هو الداماد محمود باشا، لأن وضعه الخاص جعل منه مترقياً عن كل الخصومات السائدة بين جميع الأطراف، إلا أن الداماد محمود توفي في عام 1902م متأثراً بمرضه، فانتقلت المهمة إلى ابنه الأمير صباح الدين الذي حمل أفكاراً خاصة ومختلفة⁽¹⁾.

ويمكننا القول، بأننا لم نلاحظ أي تقدم ملموس في أعمال الجمعية خلال هذه الفترة، وكل نشاطهم اقتصر على تجميع الصفوف وكسب المزيد من المؤيدين، ومحاولة إيجاد شخصية اعتبارية تتولى مهمة قيادتهم، للوصول إلى هدفهم المشترك بإنهاء حكم السلطان الطاغية عبد الحميد الثاني كما كانوا يصفونه.

2- المؤتمرات السياسية لجمعية الاتحاد والترقي:

لكي نستطيع فهم واقع جمعية الاتحاد والترقي، وجب علينا الإشارة إلى تفاصيل بعيدة عن فترة دراستنا لها علاقة بتحركات الجمعية وفعاليتها في تلك الفترة، وبحثنا يحتاج إلى التنويه إليها.

فقد أدى تطور مجريات الأحداث بالنسبة لأعضاء الجمعية في أوروبا، إلى ضرورة عقد مؤتمر يوحد جميع الأطراف العثمانية، وبمبادرة من الأمير صباح الدين تم توجيه دعوة، جاءت على شكل نداء عام إلى العثمانيين الأحرار، من أجل حضور مؤتمر يعقد في باريس هدفه الوصول إلى سبل تحقيق العدالة والمساواة والحرية داخل الدولة العثمانية، وبالفعل عقد المؤتمر⁽²⁾ في اليوم المحدد له⁽³⁾.

(1) برو، العرب والترك.....، ص 53.

(2) مؤتمر جمعية الاتحاد والترقي الأول: عقد المؤتمر من 4-9 شباط 1902م، شارك فيه ممثلون عن الأتراك والأرمن واليونانيين والعرب والألبانيين والأكراد واليهود، إضافة إلى أبرز رجال هذه الحركة الذين عاشوا في أوروبا، وبعد مناقشات انتهى المؤتمر إلى الفشل، بسبب الانشقاق العميق بين تيار الأمير صباح الدين وإسماعيل كمال الألباني وتيار أحمد رضا، فقد مال التيار الأول إلى تدخل الدول الكبرى، لإرساء النظام الدستوري وتقليل مركزية السلطان، بينما كان التيار الثاني ضد كل تدخل خارجي وضد التفريط بمركزية السلطة، وهكذا تشكلت منطمتين متنافستين، فقد أسس الأمير صباح جمعية (التشبث الشخصية وعدم المركزية)، بينما بدل أحمد رضا اسم جمعيته إلى (جمعية الترقى والاتحاد). للمزيد: كلشي، الوجه الآخر.....، ص 33-35.

(3) ميزر، سنتان مفصليتان.....، ص 38.

لكنه انتهى بفشلٍ كبير مع استمرار حالة الانقسام والتنافس بين فرعي الجمعية وقادتها، ونتيجة ذلك بقي نشاط الجمعية خامداً لعدة سنوات، وعندما نعيد التدقيق في نشاط الجمعية خارج الدولة العثمانية، نلاحظ أن الغالبية العظمى من العثمانيين اتفقت أفكارهم وتطلعاتهم مع المبادئ التي نادى بها أحمد رضا، الذي سعى بدوره إلى إعادة بناء فرع للجمعية داخل الدولة العثمانية⁽¹⁾، من جهة أخرى لم تكن الأوضاع داخل الدولة العثمانية مستقرة، فقد وجدت أخيراً الأفكار الثورية بيئةً حاضنةً لها في (سالونيك) -كانت المركز الأساسي للماسونية⁽²⁾ ومن أكثر المدن العثمانية تقدماً وافتتاحاً، باعتبار أن أكثر سكانها من اليونانيين مع قلة من الأوروبيين والأتراك، كما أن نصفهم من يهود الدونمه، وسهولة اتصالها بالعالم الخارجي جعل منها أفضل مكان لانطلاق الثورة-⁽³⁾.

(1) ميزر، سنتان مفصليتان.....، ص 39-42.

(2) الماسونية: هناك اتفاق كبير بين معظم المؤرخين حول ضلوع الماسونية العالمية ويهود الدونمه في جمعية الاتحاد والترقي، والمتعقب لتاريخ اليهود يمكنه ملاحظة ذلك، وسنقدم بعض آراء المؤرخين حول هذا الموضوع، يقول المؤرخ التركي (نظام الدين نظيف) في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني): عندما رُدد طلب الوفد اليهودي المسند من قبل الإمبراطور ويلهم في الحصول على وطنٍ لهم، أي عندما خاب هرتزل في مسعاه اشتد العداء ضد يلدز وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد...، بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد وتجميع كل الظروف المعادية لعبد الحميد في المجتمع العثماني، فإذا بنا نجد أن أنصار المشروطية يتخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبد الحميد...، وقد أخذ (المحفل الأعظم) الماسوني الإيطالي على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسوني للإمبراطورية العثمانية. للمزيد: أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، د.د، استانبول، ط4، 2008م، ص 221.

كما أوردت جريدة الوقت الباريسية: أن لجنة سالونيك قد تكونت تحت رعاية ماسونية بمعاوضة اليهود والدونمه في تركيا، وكان مركزهم في سالونيك، وأن يهوداً مثل قراصوه وسالم وساسون...، ومن الدونمه مثل جاويد وأسر بالجي، قد لعبوا دوراً بارزاً في تنظيم اللجنة المذكورة، وفي مناقشات جهازها المركزي في سالونيك، إضافةً إلى أن الأستاذ الأعظم لمحفل سالونيك عمانوئيل قراصوه، هو الذي قدّم مقرّ محفله للأتراك الجدد في سالونيك، حيث أصبحوا يعقدون فيه اجتماعاتهم السرية. للمزيد: صالح زهر الدين، اليهود في تركيا، دار الصداقة، حلب، ط1، 1996م، ص 22، 23.

(3) إسماعيل نوري الدوري، محمود شوكت خديعة جماعة الاتحاد والترقي في خلع السلطان عبد الحميد الثاني، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 3، العراق، آذار/ 2009م، ص 343.

مهدت هذه الظروف السبيل أمام تشكيل جمعية جديدة في سالونيك، كان قوامها الأكبر من العسكريين عرفت باسم (الجمعية العثمانية للحرية) أبرز أعضائها: جمال بك (الذي لقبه العرب بالسفاح)، مدحت شكري (معلم في سالونيك)، طلعت بك (موظف في البريد)، رحمي بك (والي أزميز سابقاً)، الملازم إسماعيل جنبلاط، النقيب عمر ناجي، بوكسالي طاهر (مدير المدرسة الحربية في سالونيك)، النقيب إسماعيل حقي وسليمان فهمي.

كانت من أكثر منظمات المعارضة أهمية، فقد نجحت خلال مدة قصيرة في كسب الكثير من المناصرين الضباط⁽¹⁾، وكان لذلك دوراً كبيراً في جذب أنظار أحمد رضا إلى سالونيك، وسعيه لتأسيس فرع لجمعية (التنقيح والاتحاد) فيها، وبعد مراسلات سرية بينهم، تم الاتفاق على توحيد جهود الطرفين العسكرية والمدنية، والاندماج في جمعية واحدة مع اعتماد اسم جمعية (الاتحاد والتنقيح العثمانية) لكلا الجناحين⁽²⁾.

لم يعم الهدوء أرجاء الدولة العثمانية خلال تلك الفترة، فقد كثرت الاضطرابات وعم العصيان بين الناس، وبين صفوف الجيش العثماني بشكل خاص، بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي هددت مصير الأمة، مما جعل الفرصة مناسبة للدعوة إلى مؤتمر ثانٍ⁽³⁾ في باريس، حضرته جميع الأطراف المعارضة لحكومة استانبول، ولا يسعنا أن نصف نتائج هذا المؤتمر سوى أنها مجرد حبر على ورق، ولا تتعدى الاتفاق النظري بين عدة أطراف⁽⁴⁾.

(1) العزاوي، الدولة العثمانية من الخلافة.....، ص 106.

(2) الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة.....، ص 67.

(3) مؤتمر جمعية الاتحاد والتنقيح الثاني: استمر هذا المؤتمر لمدة ثلاثة أيام ابتداءً من 27 كانون الأول 1907م، برئاسة مشتركة من أحمد رضا ممثلاً عن (جمعية الاتحاد والتنقيح)، وصباح الدين ممثلاً عن (جمعية التشبث الشخصي وعم المركزية)، إضافة إلى ممثلين عن بعض الشعوب المسيحية. وقد قرروا بالإجماع: إرغام السلطان عبد الحميد الثاني على التنازل عن العرش، تبديل الإدارة الحاضرة من أساسها، تأسيس نظام تمثيلي وحكومة دستورية. للمزيد: ميزر، سنتان مفصلتان.....، ص 52

كما تم اقتراح كيفية التحرك والعمل التي يمكن اتباعها: وهي المقاومة المسلحة ضد أي هجوم، المقاومة غير المسلحة بالإضراب عن العمل الاقتصادي والسياسي عند تدخل الحكومة والبوليس، الامتناع عن دفع الضرائب. للمزيد: سليمان جوقة باش، السلطان عبد الحميد الثاني شخصيته وسياسته، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2008م، ص 541.

(4) كريم طلال مسير الركابي، ثورة الاتحاديين في تركيا 1908م، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 49، العراق، 2006م، ص 150.

3- وصول جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم:

كثيراً ما يفاجئنا التاريخ بأحداثٍ غير متوقعةٍ، خلقتها ظروفٌ مناسبةٌ أو فرصةٌ لا تتكرر، وجمعية الاتحاد والترقي لامست تلك الظروف وسعت لاستغلالها أفضل استغلال، وبما أن إحداث تغييرٍ في سياسة الدولة يحتاج إلى جهودٍ مضاعفةٍ، وجب عليهم دفع الجيش للاشتراك فيها.

في هذه الأثناء كانت الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها البلاد منذ عهد السلطان عبد العزيز 1861-1875م، قد ولدت أزمةً ماليةً كبيرةً كان للجيش العثماني نصيبٌ منها، فرواتب الضباط لا تدفع بصورةٍ منتظمةٍ وترقياتهم تتأخر باستمرار، والجيش الثالث والسادس والسابع المتواجد في مقدونيا كان وضعه الأسوأ على الإطلاق، ولاسيما بسبب العصابات الإجرامية المتمردة والضغط الدولي الساعي لحكم ذاتي مسيحي في مقدونيا⁽¹⁾، ساعدت هذه الظروف مجتمعةً جمعية الاتحاد والترقي للتحرك، وتكثيف نشاطاتها واتصالاتها بالأوساط الألبانية والبلغارية واليونانية، وقدمت لهم مجموعةً من التنازلات والوعود بهدف وقوفهم إلى جانبها، ثم وجهت كل اهتمامها إلى اجتذاب الجيش إليها، ونجحت مساعيها في ضم أعدادٍ كبيرةٍ من الضباط والمدنيين وفي توسيع انتشارها داخل الدولة العثمانية، مما أفقدها سريتها وعرضها إلى حملةٍ شعواءٍ من الاعتقالات والتحقيقات والمحاكمات، التي شكلت خطراً حقيقياً على الجمعية وأهدافها⁽²⁾.

أصبحت شرارة الثورة تنتظر من يشعلها، وجاء اجتماع (ريفال) 1908م -بين إنكلترا وروسيا- ليكون بمثابة الشرارة الأولى لانطلاق الثورة⁽³⁾ وخاصةً بعد الدعاية المزيفة التي روّجتها الدول الكبرى حول الاجتماع بأنه عقد لتقسيم الدولة العثمانية⁽⁴⁾.

(1) باش، السلطان عبد الحميد الثاني شخصيته....، ص 548، 549.

(2) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 293-299.

(3) ثورة الاتحاديين 1908م: بدأ التحرك الفعلي عندما قام الضابطان (أنور بك ونيازي بك) -عضوا جمعية الاتحاد والترقي- بالهروب إلى الجبال والتخفي فيها، ثم إرسال برقيات إلى حكومة استانبول مطالبين فيها بضرورة إعادة العمل بدستور 1876م، وما لبثت أن انتشرت الحركة بسرعةٍ كبيرةٍ من وحدةٍ إلى وحدة، حاولت الحكومة السيطرة على الوضع لكنها فشلت، وازداد حرج الموقف بعد أن هدد الثائرون بالزحف إلى استانبول لاحتلالها إذا لم تنفذ طلباتهم خلال 24 ساعة، وهكذا لم يعد بإمكان عبد الحميد الثاني سوى الخضوع وإعادة إعلان الدستور من جديد في 24 تموز 1908م. للمزيد:

الدوري، محمود شوكت خديعة جماعة الاتحاد والترقي....، ص 344، 345.

(4) باش، السلطان عبد الحميد الثاني شخصيته....، ص 552.

وبعد سلسلة من الأحداث نجح الاتحاديون في إعادة إعلان الدستور، وفي السيطرة على مقاليد الحكم، وانتشرت الأفراح في أنحاء الدولة العثمانية كافة معلنةً تأييدها للعهد الجديد⁽¹⁾.

وبذلك تكون جمعية الاتحاد والترقي قد استطاعت تحقيق أول أهدافها في تفويض بنيان الحكومة المركزية المطلقة، وإجهاض السلطة الحاكمة المتمثلة بشخص عبد الحميد الثاني، وغدا الطريق سالماً أمامها لتنفيذ هدفها الثاني المتمثل بعزله والتخلص منه إلى الأبد.

احتاج عزل السلطان عبد الحميد الثاني والإطاحة بحكمه إلى العديد من التدابير والمكائد، فكان لابد من اختلاق حادثة تحرك الجيش وتثير غضبه لأنه الوحيد القادر على مساعدتهم في مساعيهم، وكانت حادثة 31 آذار⁽²⁾ عام 1909م التي دبرها الاتحاديون، ثم نسبوها إلى السلطان عبد الحميد الثاني وقد أسموها بالثورة المضادة، أفضل ذريعة لتحريك الجيش نحو عزل السلطان⁽³⁾.

شرع الاتحاديون بجمع قواتهم في سالونيك تحت مسمى (جيش الحركة)، ثم نقلوها إلى استانبول بالقطار، وقد تولى قيادتهم قائد الجيش الثالث (محمود شوكت)، الذي دخل استانبول في 25 نيسان 1909م دون مقاومة تذكر، وبعد سيطرته على الوضع أعلن القانون العرفي، وتم إلقاء القبض على الكثير من الأشخاص بتهمة المشاركة بالثورة المضادة، ونفذ بحقهم حكم الإعدام علناً في الساحات، عدا عن قيام عصابات بلقانية - بمساعدة أنور بك- بالإغارة على قصر يلدز، ونهب خزانة القصر مع كل الأشياء الثمينة التي قدرت بعشرات الملايين⁽⁴⁾.

(1) الركابي، ثورة الاتحاديين.....، ص 153.

(2) حادثة 31 آذار: بدأت من ثكنة طاش قشلة، حيث دُعيت الفرق للاجتماع في ساحة الثكنة، وجاء باشا غير معروف ومعه عدد من الضباط، وأعلنوا فرماناً سلطانياً يقضي بخلع الطربوش وارتداء القبعة بدلاً عنه، فعمت الاضطرابات بين الفرق ونادوا بالجهاد دفاعاً عن الشريعة. للمزيد: مصطفى طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خزجه، دار السلام، القاهرة، ط4، 1985م، ص 76-79.

(3) محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، دمشق، ط3، 1991م، ص 57.

(4) أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية.....، ج3، ص 183، 184.

بعد هذه المؤامرة دعا العسكريون لاجتماعٍ مشتركٍ بينهم وبين مجلس المبعوثان والأعيان برئاسة (سعيد باشا)، واتفقوا حول موضوع خلع السلطان عبد الحميد الثاني، بعد إصدار فتوى رسمية بذلك من شيخ الإسلام -المفتي الأكبر في الدولة العثمانية- في 27 نيسان 1909م⁽¹⁾.

وندبوا لإبلاغه بقرار العزل وفدأً مكوناً من أربعة أشخاص هم الأرمني أرام أفندي، وأسد طوبطالي الأرناؤوطي، والفريق البحري عارف حكمت باشا، وعمانوئيل قراصوه اليهودي⁽²⁾.

لم يكن بينهم مسلمٌ واحد وهذا ما يقدم لنا دليلاً واضحاً عن حجم المؤامرة التي حيكت بدقة واتقان للقضاء على الدولة العثمانية واقتسام أملاكها.

رضخ السلطان لقرار الخلع وتنازل عن العرش لأخيه (محمد رشاد)، بعدها أرسل إلى منفاه في سالونيك⁽³⁾، وهنا تكون الدولة العثمانية قد دخلت مرحلةً جديدةً بسيطرة الاتحاديين الفعلية على مقاليد الحكم والسلطة، التي ستؤدي إلى انهيار الدولة العثمانية وتمزقها وزوالها نهائياً.

ثالثاً: حكم الاتحاديين للدولة العثمانية بين عامي 1909- 1916م:

إن أبرز ما اتصفت به سياسة الاتحاديين الداخلية، هو حلمهم بأن يحققوا في عدة سنواتٍ ما لم تستطع أن تحققه الدولة من دمج العناصر وصهرها في بوتقةٍ واحدةٍ طوال مئات السنين، حيث أن حماسهم واندفاعهم أوقعهم في خطأ تقدير تطور الأوضاع في هذه الدولة المترامية الأطراف التي تضم عناصر عديدة، مختلفة الأخلاق والأديان والعادات والتقاليد والحاجات، فمنهم البدوي ومنهم الحضري وهذه نقطة مهمة لم ينتبه لها الاتحاديون، فقد أرادوا أن يحكموهم على السواء من خلال أنظمةٍ تماثل الأنظمة الموحدة في الدول الأوروبية، ظناً منهم بأنها الطريقة المثلى لقلب الدولة من صبغتها القديمة إلى صبغةٍ جديدة⁽⁴⁾.

(1) أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية.....، ج3، ص 184.

(2) طوران، أسرار الانقلاب.....، ص 100.

(3) حرب، مذكرات السلطان.....، ص 58.

(4) برو، العرب والترك.....، ص 220- 223.

وبسبب افتقارهم إلى التجربة والثقافة المناسبة، أدت سياستهم الطائشة إلى تشكل المعارضة ضدهم، مما دفعهم إلى العمل على تثبيت حكمهم وهيمنتهم على الدولة، عن طريق الاستبداد -التضييق على الصحافة وخنق حرية الكلام وإعدام المعارضين- الذي ما لبث أن عاد بثوبٍ جديدٍ لم يختلف عن سابقه إلا في المسحة المدنية الغربية⁽¹⁾.

وبعد أن كانت الرابطة العثمانية تسوق الناس وتتحكم بهم بعصا الطغيان الفردي، لا فرق بينهم إلا من الناحية الدينية فحسب، فقد بدأ الغرور العرقي ينفخ صدور أصحاب القرار، ويسرع نضوج القرائح بالآراء والأفكار التي تدعو إلى العرقية، وتمجيد العنصر التركي فقط⁽²⁾.

ونظراً لأهمية هذه السياسة التي اتبعها الاتحاديون في فترة سيطرتهم على الحكم، سنتوسع في شرحنا لها ولأبرز النتائج التي تمخضت عنها.

1- أهم دعاة الطورانية التركية:

أ- مونيذ كوهين:

ولد مونيذ كوهين عام 1883م في مدينة سالونيك، يحمل شهادة في الحقوق، كان عضواً في جمعية (الاتحاد والترقي)، وجمعية (ترك أوجاغي) -أهم جمعية طورانية-، وجمعية (تعميم اللغة التركية) التي كان رئيساً لها، بدأ الكتابة في صحيفة (روم إيلي) -كان يصدرها أحد يهود الدونمه وهو يونس نادي- بعد أن استلم الاتحاديون السلطة وأعلنوا الدستور، كما كتب في صحيفة يصدرها الاتحاديون وهي (اتحاد والترقي).

بذل كوهين كل جهده للتعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان ملماً بعدة لغاتٍ أوروبيةٍ إلى جانب التركية والعبرية، حيث بدأ نشاطه بمقالٍ يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روح قومي)، كتبه باللغة الفرنسية ونشره في عام 1912م في (ميركور دي فرانس)⁽³⁾.

(1) برو، العرب والترك.....، ص 223، 224.

(2) قدرى قلججي، الثورة العربية الكبرى 1916-1925م، شركة المطبوعات للنشر، بيروت، ط2، 1994م، ص 68.

(3) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات المصرية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994م، ص 90.

شغل كوهين عدداً من المناصب، فقد عمل في البداية أستاذاً في كلية الحقوق بجامعة استانبول، وقد ترجم العديد من الكتب للأستاذة الألمان الذين استقدمتهم الجامعة، وبعد انتقاله إلى أنقرة مارس مهنة الصحافة، وأخذ يكتب في صحيفة (وطن) -صاحبها أحمد أمين يالمان من يهود الدونمه-، ثم عمل في التبغ حتى استلم منصب الأمين العام لاتحاد التبغيين الأتراك، لغاية أن وصل في مراحل عمره المتقدمة إلى منصب عضو في المجلس الإقليمي لحزب الشعب الجمهوري⁽¹⁾.

أدى كوهين دوراً بارزاً في التخطيط للنهج العنصري الطوراني، الذي اتبعته جمعية الاتحاد والترقي في سياستها، وهي السياسة التي أدت إلى الانشقاق بين العرب والترك، وخلقت بينهم البغضاء والكره⁽²⁾.

لم يستخدم كوهين اسمه الحقيقي في كتبه إلا مرة واحدة فقط، كي لا يثير حساسية القراء المسلمين، واستخدم أسماء مستعارة مثل (مؤنس ألب وتكين ألب)، ومعظم قراء كتبه كانوا يعتقدون أنه مسلمٌ عربي⁽³⁾.

ومن الجدير بالذكر، أن كتبه لم تكن موجهةً إلى المفكرين ورجال الدولة العثمانيين فقط، بل إلى السياسيين الألمان أيضاً (رجال أعمال وعسكريين)، فقد ألف العديد من الكتب باللغة الألمانية وضح فيها الجوهر (النظري - العقائدي) الواجب اتباعه لتحقيق الساسة أهدافهم ومخططاتهم التوسعية نحو الشرق⁽⁴⁾.

وقد يتساءل البعض عن سبب توجيه كتبه للألمان، وتقديم عددٍ لا يستهان به من الكتب باللغة الألمانية، الحقيقة تكمن في أن مؤنيز كوهين كان يهودياً ألمانياً، أخفى هويته الأصلية فترةً طويلةً من الزمن، ولم يكشف عنها إلا في مرحلة متأخرة⁽⁵⁾.

(1) حرب، العثمانيون في التاريخ.....، ص 91.

(2) الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة.....، ص 69.

(3) حرب، العثمانيون في التاريخ.....، ص 91.

(4) جبران خوري، الصهيونية والطورانية وتأثيرهما على مستقبل شعوب المنطقة، دار الصداقة، حلب، ط1، 1994م، ص 13.

(5) زهر الدين، اليهود، ص 48.

• أهم كتب كوهين:

1- (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب):

يتحدث في هذا الكتاب عن الحرب العالمية الأولى، وهو الكتاب الوحيد الذي وقّعه باسمه الحقيقي، يدعو كوهين الشباب العثمانيين إلى إحياء فكرة القومية التركية، والابتعاد عن الوحدة الإسلامية المتركة في الجامعة الإسلامية، واستبدالها باتحاد الأتراك في العالم⁽¹⁾.

ومن أبرز ما أورده في هذا الكتاب:

"من الألفم أن يتحد جميع الأتراك في سبيل سمو الجنس التركي، وطالما أن هذا التيار وهذه الفكرة لم تنم ولم تتسع بعد، فمن الصعب كثيراً على الأتراك العثمانيين خلق الحضارة الجديدة التي يستهدفون إقامتها منذ أمد.....، ولأن هذه الحضارة المستقبلية لن ينجح في تشييدها اثنا عشر أو خمسة عشر مليون تركي، فلا بدّ من إيقاظ الأتراك خارج تركيا أيضاً، ويبلغون أربعين أو خمسين مليوناً، ودفعهم إلى هذه الفكرة.....، وإن الحرب الحالية (العالمية الأولى) ستنتهي لا محالة بهزيمة روسيا، وبالتالي فإن الأتراك سيطورون وبصورة غير عادية اتحاد أترك العالم"⁽²⁾.

نلاحظ أن كوهين سعى إلى إيقاظ القومية التركية، وتنبيه الأتراك العثمانيين لها، من خلال بث أفكار تتصل بتمجيد العنصر التركي لجنسهم، وتصور قدرتهم على جمع الأتراك في العالم بسهولة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وهزيمة روسيا عدوهم اللدود بحسب توقعاته، بمعنى أوضح دعا إلى إقامة حضارة جديدة ومستقلة عن العرب تعرف بالحضارة التركية.

2- (الطورانية):

وقّع كوهين هذا الكتاب باسمه المستعار (تكين ألب)، وقد تحدث فيه عن مفهوم وأهداف القومية الطورانية، وأصدره بثلاث لغات الفرنسية، الإنكليزية، والتركية، وقد ترك أثراً واضحاً في نفوس ضباط الاتحاد والترقي عن طريق هذا الكتاب⁽³⁾.

(1) هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمه 1648م إلى نهاية القرن العشرين، جزآن، دار القلم، دمشق، ط1، 2002م، ج2، ص 50.

(2) حرب، العثمانيون في التاريخ.....، ص 93.

(3) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج2، ص 51.

ومما ذكر فيه:

"إنّ تعبير طوران ليس تعبيراً سياسياً، إنه فقط مثل إيطاليا التي يُظن أنها اسم جغرافي، وهي بالمثل اسم لاتحاد أتراك العالم الذي سيتحقق ذات يوم.....، سيحدث ذات يوم أن تنهار روسيا التي يعيش الأتراك في أسرها اليوم، ستنهار روسيا كما انهارت من قبل الإمبراطوريات.....، وسيرفع الأتراك التاج الذهبي (لجدهم) جنكيز خان فوق صدورهم الملتهبة بالفكر القومي"(1).

3- (اقتصاديات الدولة في الانتقال من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد السلام):

كان هدف كوهين في هذا الكتاب، جعل الاقتصاد العثماني يخضع بعد الحرب العالمية الأولى لرؤوس الأموال الصهيونية، وبذلك يتخلص من الرساميل اليونانية والعربية والأرمنية(2).

ب- يوسف أقجورا:

هو من أكثر المفكرين حماسةً وتشجيعاً للقومية الطورانية، ولد في عائلةٍ برجوازيةٍ صناعيةٍ في قازان -الخاضعة لروسيا القيصرية- عام 1876م، أي أنه لم يكن تركياً عثمانياً، توفي والده وهو لا يزال صغيراً، فانتقل مع والدته إلى استانبول عام 1883م، حيث تلقى تعليمه في مدارسها العسكرية، وانضم إلى الكلية الحربية عام 1894م، وفيها انخرط بالنشاط السياسي، وما لبث أن أُلقي القبض عليه في عام 1897م وحكم عليه بالنفي إلى طرابلس الغرب.

ولكنه تمكن من الهروب إلى فرنسا عام 1900م، وهناك تابع أقجورا تعليمه حيث التحق بمدرسة (العلوم السياسية الحرة)، وتتلذذ فيها على يد مجموعةٍ من الأساتذة المشهورين مثل (إميل بوتمي) مدرس علم نفس الشعوب، (ألبير سوريل) المهتم بتأثير التاريخ بالعامل القومي، و(تيوفيل فونك برنتانو) المتخصص بالعوامل الاقتصادية، وكان لهذه المدرسة أثرٌ واضحٌ في توجهات أقجورا الفكرية والقومية(3).

(1) حرب، العثمانيون في التاريخ.....، ص 93.

(2) خوري، الصهيونية والطورانية.....، ص 14.

(3) محمد الناصر النفزاوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918م، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط1، 2001م، ص 249-252.

كتب العديد من المقالات في صحيفتي (مشورت) الفرنسية و(شوراي أمت) التركية، عاد بعد ذلك إلى (قازان)، ومن هناك أرسل إلى صحيفة (تركيا الفتاة) في القاهرة عام 1904م، مقالاً طويلاً لتنتشره يحمل عنوان (الأنظمة السياسية الثلاثة)⁽¹⁾، فاضل فيه بين القومية التركية من جهة والعثمانية والإسلامية من جهة أخرى.

حدد في مقاله تاريخ العثمانية بفترة التنظيمات، وعرفها بأنها "السياسة التي تقوم على مبدأ وحدة القوميات في الخلافة ضمن أمة عثمانية"، وهذه السياسة من وجهة نظره خسرت آخر أمل لنجاحها، بعد أن لقيت مقاومةً داخليةً من المسلمين المحافظين والقوميات غير المسلمة، وحتى الدين الإسلامي بشكل عام، مهما اجتهد فقهاؤه في توسيع مفهوم التسامح والمساواة بين المسلمين وغيرهم، تتدخل الدول الكبرى من الخارج وتعرقل مساعيهم، ولذا نجده، يؤكد أن حلم تأسيس أمة عثمانية قد تلاشى، ومن غير المجدي إرهاب النفوس في محاولات مستحيلة لخلقها من جديد⁽²⁾.

أما الإسلامية، فقد زادت من حدة التنافس والانشقاق الموجود بين شعوب الدولة العثمانية وزادت من ضعفها، والاستمرار فيها سيزيد من تدهور الأوضاع ومشاكل الدولة الداخلية والخارجية، وبما أنه اقتنع بفشل هاتين السياستين (الإسلامية والعثمانية)، رشح المذهب القومي بديلاً عنهما، رغم اعترافه بخمول شعور الأتراك القومي بقوله:

"إن فكرة تكوين جنسية تركية مبنية على العرق حديثة جداً....، ولم أعثر على أي أثر يشير إلى وجود فكرة توحيد الأتراك إبان حركتي التنظيمات والعثمانيين الجدد".

وهكذا يكون أقجورا مقتنع تماماً، بحتمية تبني الفكر القومي باعتباره التيار المهيمن على كل الأوساط⁽³⁾، وكي يتمكن الأتراك من مقاومة القومية بالقومية، وجب عليه إيقاظ هذا الشعور في نفوسهم، من خلال كتابة تاريخ قومي للأتراك مختلفاً كل الاختلاف عن نظرة الإسلاميين التاريخية⁽⁴⁾.

(1) سعد تامر الحميدي، الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين، مطابع ريبودا الحديثة، الدوحة، ط1، 2011م، ص 65.

(2) النفزاوي، التيارات الفكرية.....، ص 254، 255.

(3) عبد، الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم.....)، ص 369، 370.

(4) النفزاوي، التيارات الفكرية.....، ص 256.

ونتيجة لذلك، نجده يقسم التاريخ التركي تقسيماً حديثاً إلى:

1- العصر القديم: يبدأ من الحضارات التركية القديمة، وينتهي بالفتح المغولي في القرن الثالث عشر.

2- العصر الوسيط: يشمل اتحاد الشعوب التركية داخل إمبراطورية جنكيز خان وخلفائه.

3- العصر الحديث: وهو عصر الدول التي نتجت من انهيار وتمزق إمبراطورية جنكيز خان.

4- الفترة المعاصرة: وهي فترة يقظة الفكرة القومية لدى الشعوب التركية.

ونلاحظ من هذا التقسيم كيف أنّه حوّل مركز الثقل التركي من أوروبا إلى آسيا، وحصر تاريخ الأتراك الإسلامي في حلقة صغيرة، إختزلت من سلسلة طويلة لها عمقها وتاريخها المتوغل في القدم(1).

لم تكن مقالة أقجورا الوحيدة من نوعها، فبعد أن عاد إلى استانبول عام 1908م، أخذ يكتب في صحيفة (وطن الترك) التي أصبح رئيساً لتحريرها فيما بعد، كما نشر نظرياته في صحيفتي (الصراط المستقيم و ترجمان أحوال).

شارك في تأسيس جمعية (بيت الترك)، وتنقل بين عدة أعمالٍ أولها سكرتيراً عاماً لاتحاد أترك روسيا الموجود داخل تركيا، ثم عمل مدرساً في المدرسة الحربية ومدرسة الفنون الثانية، بعد ذلك أرسل كممثلٍ للهِلال الأحمر إلى روسيا، من أجل تبادل الأسرى الأتراك عقب الحرب العالمية الأولى، إلى أن أصبح في النهاية عضواً في البرلمان التركي.

• أهم كتب أقجورا:

وهي على الترتيب، (العلوم والتاريخ)، (ثلاث طرزٍ سياسية)، (ملاحظاتٌ خاصةٌ بالمسألة الشرقية)، (التيارات السياسية)، (التاريخ السياسي لتركيا)، وأخيراً (عصر تدهور الإمبراطورية العثمانية)(2).

(1) النفزاوي، التيارات الفكرية.....، ص 257.

(2) الحميدي، الصراع بين القوميتين.....، ص 66.

ج- ضياء كوك ألب:

هو أحد أهم المنظرين الفكريين للقومية التركية (الطورانية)، اسمه الحقيقي (محمد ضياء)⁽¹⁾، ولد عام 1875م في ديار بكر، درس في المدرسة الثانوية العسكرية وبعد تخرجه منها التحق بمدرسة العلوم السياسية، تعلم فيها العلوم الشرقية واللغة الفرنسية والفلسفة، سافر إلى استانبول عام 1896م لإكمال دراسته، لكنه لم يتمكن من الحصول على منحة إلا في كلية البيطرة.

وجه كوك ألب جلّ اهتمامه بعد ذلك إلى السياسة حيث فضّلها على التعليم والثقافة، وما لبث أن انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي وأصبح عضواً فاعلاً فيها، ونتيجةً لمقالاته الثورية تم فصله من الكلية، ونفي إلى ديار بكر بعد أن اعتقل لعدة أشهر وفُرض عليه الإقامة الجبرية فيها.

استغل كوك ألب هذه المدة في تعميق دراسته بالفلسفة الغربية ولاسيما الفرنسية منها، وعلم العمران وعلم النفس، وسرعان ما غدا أحد الشخصيات المهمة لجماعة أحرار ديار بكر.

وما أن تم انقلاب 1909م، حتى بات الطريق مفتوحاً أمامه لممارسة أعماله ونشاطاته، فأصدر صحيفتين هما (بيام) و(دجلة)، وبعد أن انتقل إلى سالونيك زاد اتصاله بالمتنورين والثوريين الأتراك، وتعمّقت لديه فكرة الوحدة وفق أسس القومية التركية⁽²⁾.

بدأ بعدها بنشر مقالاته في مجلة (الأقلام الشابة) -أصدرها مع صديقه (علي جانب يونتم)- غلب على هذه المجلة الجانب الفلسفي.

ولابدّ أن نشير إلى استخدامه الأسماء المستعارة في مقالاته مثل (توفيق سادات)، و(ميرطاش)، و(كوك ألب) الذي صار يعرف به لاحقاً، لم تتوقف كتاباته حيث نشر في مجلة (الدراسات القومية) و(المجلة الجديدة) برنامجاً أعده للقومية التركية⁽³⁾.

(1) زهر الدين، اليهود، ص 50.

(2) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية.....، ص 41، 42.

(3) الحميدي، الصراع بين القوميتين.....، ص 73، 74.

وعلى أثر احتلال استانبول من قبل الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى، تم نفيه إلى مالطه، لمدة ثلاث سنوات، بعدها عاد من منفاه إلى ديار بكر وأسس مجلة (كوجوك) فيها، ثم استدعي إلى أنقرة وعين رئيساً للجنة التأليف والترجمة في وزارة المعارف، والجدير بالذكر أنه كان من أشد المؤيدين لمصطفى كمال، وناصره بكل قوة في معركته الانتخابية، وفي سنة 1922م أصبح عضواً في البرلمان التركي، وهي آخر وظيفة شغلها قبل وفاته⁽¹⁾.

لقد دعا كوك ألب بكل صراحةٍ إلى تخليص تركيا من ماضيها، وإعادة تكوينها على أساس قومي خالص، واعتماد الحضارة الأوروبية كونها -على حد قوله- امتداداً للحضارة القديمة التي كوّنوها الأتراك وأسهموا بها، فالحضارة الأوروبية ستساعد على بث القوة وخلق روح جديدة في الدولة، ولكن دون الانسلاخ عن الدين، ويقول في هذا الصدد:

"حين تقطع أمة شأواً بعيداً في نشوئها، ترى من الواجب أن تغير حضارتها أيضاً، لمّا كان الأتراك قبائل رحالة في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الأقصى، ولمّا انتهوا إلى عصر السلطنة دخلوا في مساحة الحضارة البيزنطية، والآن في طور انتقالهم إلى الحكومة الشعبية، هم مصممون على قبول حضارة الغرب.....، إن شعوباً تدين بدياناتٍ مختلفة يمكن أن تدين بحضارة واحدة، إن اليابانيين واليهود يشاركون الأوروبيين في حضارة واحدة"⁽²⁾.

وبذلك يكون الاختلاف لديه واضحاً بين الدين والحضارة، فمن الخطأ أن نقول (حضارة إسلامية) أو (حضارة مسيحية)، لأن الدين محصور في الطقوس والعقيدة التي لا تمت بأي صلة للعلوم والفنون.

لقد شغل كوك ألب مركزاً خطيراً بين المؤسسين الفكريين لدولة تركيا الحديثة، فهو صاحب القاعدة الفكرية والنزعة الجديدة التي قامت عليها الدولة والمجتمع الجديد⁽³⁾.

• أهم كتب كوك ألب:

ألف عدداً من الكتب القيمة والثرية منها:

(1) عطاء الله ترزي باشي، من رجال الفكر في تركيا (ضياء كوك ألب)، مجلة الرسالة، العدد 864، القاهرة، كانون الثاني/ 1950م، د.ص.

(2) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية.....، ص 43، 44.

(3) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية.....، ص 45.

(أخلاق الترك)، (تاريخ الحضارة التركية)، و(أسس القومية التركية) الذي سنتوسع في شرحه نسبةً لأهميته وتأثيره العميق في بنية الدولة التركية.

1- (أسس القومية التركية):

يتألف الكتاب من قسمين نظري وعملي:

الجزء النظري قسمه على ثلاثة فصول، الأول يعطي معلومات مختزلة حول تاريخ القومية التركية، أما الثاني خصصه للإجابة على تساؤل مهم ما هي القومية التركية؟، بينما كان الثالث يركز على الطورانية التركية، ويشدد كوك ألب في الجزء النظري على ضرورة انضمام الأتراك إلى دائرة الحضارة الأوروبية.

أما الجزء العملي من الكتاب فقد قدّم فيه برنامجاً متكاملًا لتنريك الدولة، وتضمن ما يلي: التنريك في اللغة، التنريك في الفنون، التنريك في الدين، التنريك السياسي، التنريك في الاقتصاد، القومية التركية في الأخلاق، والأخلاق الوطنية⁽¹⁾.

وفي النهاية نستنتج، أنّ هذا المفكر حاول جعل تركيا مكوّنةً من شعبٍ تركي، يرتفع بأخلاقه وآدابه وبتراث أجداده، ويتمسك بالمبادئ الدينية الصحيحة والعقائد الإسلامية السليمة، ويأخذ قسطاً وافراً من المدنية الأوروبية الحاضرة، فيسمو ويشكل أفضل الحضارات.

2- الحركة القومية التركية (الطورانية):

ظهرت مؤشرات التوجه نحو (النزعة التركية) بين سياسي الصف الأول في الدولة، من خلال دعوات نادى بها مجموعة من الأدباء والمثقفين، كانوا أعضاء في جمعية الاتحاد والترقي، أمثال يوسف أقجورا، أحمد فريد بك، أحمد غايف، وحسين جاهد وغيرهم من مؤسسي منتدى (ترك درنكي) -أول نادٍ تركي أسس لخدمة القومية التركية- في حين بدأ بعضهم الآخر، أمثال ضياء كوك ألب بنشر نظريته القومية والاجتماعية في إحدى مجلات سالونيك (الأقلام الشابة) كما ذكرنا سابقاً، وما أن حلّ عام 1911م حتى تأسست رسمياً (الجمعية الطورانية للإعلام والعلوم)، وصدرت مجلة (ترك يوردي) -أشهر مجلة قومية تركية ترأسها يوسف أقجورا- أعلن فيها بشكلٍ صريح مايلي⁽²⁾:

(1) الحميدي، الصراع بين القوميتين.....، ص 75- 77.

(2) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 2003م، ص 140، 141.

"يجب علينا مادام في استطاعتنا الحياة، أن نعلم إلى الجيش والأسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين، وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة"(1).

يظهر لنا من هذه الكلمات، أن مناصري القومية التركية مستعدين للنضال وبذل الغالي والثمين، لبلورة الوعي القومي وتطوير الفكر لتحقيق دولة تركية صرفة.

كما نشط في تلك الفترة الأدب القومي، فكان هناك ديوان شعر ألفه ضياء كوك ألب بعنوان (طوران)، يقول فيه أن تركيا وتركستان ليست وطن الأتراك، بل وطنهم الكبير هو بلادهم الخالدة طوران، إضافة إلى رواية (بني طوران) للكاتبة خالدة أديب(2)، طالبت فيها بالرجوع إلى طوران الكبرى، لكي تتمتع النساء بكامل حقوقهن ولاسيما حق الانتخاب، وهكذا تكون بداية القرن العشرين قد شهدت نشاطاً قومياً كثيفاً، ظهر بمثابة تحدٍ كبير لاتجاهات وأفكار كانت مقدسة لسنوات طويلة داخل الدولة العثمانية(3).

ونتيجة لما تقدم، انقسمت آراء القوميين الأتراك حول السياسة التي يجب أن تتبعها الدولة مع العناصر المكونة لها إلى فئتين رئيسيتين:

الأولى: ورثت فكرة (اللامركزية) عن الأمير صباح الدين، وقد ناصر هذه الفكرة وأيدها أغلبية عظمى من سكان الولايات الأوروبية، والعربية، والأرمنية التابعة للعثمانيين، وقد نادى هذه الجماعة بمبدأ (العثمانية) الذي يجمع كل العناصر، ويعطي غير الأتراك نوعاً معيناً من الحكم الذاتي، وبذلك يصبحوا سنداً وقوة حصينة لصالح الدولة بدلاً من أن يثوروا ضدها.

أما الثانية: تمثلت بجمعية الاتحاد والترقي، وتبنت السياسة الصارمة (المركزية)، متبعةً مبدأ الاستبداد السابق نفسه مع تغيير في الألفاظ، ورأت أن جميع الأقوام على اختلافها لا يوجد سوى حلّ وحيد لمشكلاتها، وهو استخدام العنف والشدة والاستغلال معها، إضافة إلى تشدد هذه الفئة نحو تركيتهم التي يجب أن يعودوا إليها(4).

(1) العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة.....، ص 141.

(2) خالدة أديب: كاتبة تركية، تلميذة الشاعر الحر نامق كمال، درست في الجامعة الأميركية في استانبول، دعت إلى تحرير المرأة ونبذ نظام الحريم، اشتهرت بالخطابة والكتابة، وأفكارها التقدمية، وناصرت الحركة الكمالية. للمزيد: مجموعة من العلماء، الموسوعة العربية الميسرة، 7 مجلدات، المكتبة العصرية، بيروت، ط3، 2007، مج 3، ص 1428.

(3) العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة.....، ص 141.

(4) نعيم اليافي، جمال باشا السفاح، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1993م، ص 28، 29.

وعلى أثر ذلك، أصبح الصراع على أشده بين (العثمانية) و(التتريك)، وبعد محاولاتٍ عدةٍ لسيطرة فكرة اللامركزية ومناصريها على زمام الحكم، استطاع الاتحاديون تحقيق انتصارٍ ساحقٍ على معارضيهم، ولاسيما بعد هزيمة الدولة في حرب البلقان، التي أثرت بشكلٍ كبيرٍ على قناعة الأتراك وتوجهاتهم بالنسبة للعناصر غير التركية، ليصبح الوقت مناسباً لتخرج فكرة (الجامعة الطورانية) إلى العلن، وتفرض سيطرتها المطلقة على سياسة الدولة⁽¹⁾.

وهنا لابدّ لنا أن نقدم تعريفاً واضحاً للطورانية، كي نستطيع فهمها بشكلٍ أفضل.

"هي حركة تركيةٌ قوميةٌ تهدف إلى تتريك الدولة العثمانية، بما في ذلك العناصر غير التركية، اشتق اسمها من طوران وهو الموطن الذي انتشرت منه القبائل التركية، بما في ذلك العثمانيون، فالانتساب إلى عثمان انتسابٌ إلى فرعٍ لا إلى الأصل والجنس"⁽²⁾.

من ناحية أخرى، أشارت الوثائق التاريخية أنّ أول من لفت الأنظار إلى هذا الماضي، هم يهودٌ صهاينةٌ من جنسياتٍ مختلفةٍ هنغارية، فرنسية، نمساوية، بولونية، وألمانية، كتبوا العديد من المؤلفات عن هذه الفكرة، ثم اقتفى أثرهم عددٌ قليلٌ من الكتّاب الأتراك ولكن بعد مرور نصف قرنٍ من الزمن.

وهناك تقريرٌ سريّ قدمه مكتب استخبارات بريطانيا، حول الفكرة الطورانية ذكره المؤرخ (إيليو غرينل ميرز) في أحد مؤلفاته جاء فيه: أنّ نشأة الطورانية كانت مصطنعةً بأيدي أوروبية، ولم يستنبطها العثمانيون من الأدب الفارسي لذاتهم، بل إن أوروبا هي التي منحتهم إياها، وهم لم يكونوا أبداً حماةً للفكرة أو مخططين لها، بل كانوا مجرد أداةٍ ومادةٍ لها.

بناءً على ذلك، يمكننا القول أنّ الحركة الطورانية لم تكن على الإطلاق حركةً تركيةً قوميةً، بل كانت مجرد أساسٍ سياسيٍ خصبٍ لمخططٍ توسعيٍّ معادٍ لدولٍ وشعوبٍ أخرى، ابتكرته أوروبا لتحقيق مصالحها وأطماعها، محوِّلةً العثمانيين إلى أداةٍ ووسيلةٍ بيد المستفيدين من الطورانية⁽³⁾.

(1) اليافي، جمال باشا.....، ص 29، 30.

(2) محمود علي عامر، تاريخ الدولة العثمانية، مديرية الكتب والمطبوعات، دمشق، 2004م، ص 355.

(3) خوري، الصهيونية والطورانية.....، ص 11، 12.

اتخذت الحركة الطورانية ثلاثة أهدافٍ رئيسيةٍ لها:

الأول: التخلص من المؤثرات العربية والفارسية الموجودة داخل التراث الفكري التركي.

الثاني: ربط أتراك الدولة العثمانية في الداخل والخارج بصلاتٍ قويةٍ ودائمةٍ.

الثالث: تفوق العنصر التركي وسيادته على باقي عناصر الدولة العثمانية المختلفة.

وكنا ذكرنا سابقاً أنّ رجال الاتحاد والترقي اختاروا أقصى الأنظمة وأسوئها، وهو نظام المركزية، وعمدوا إلى جلب المغنم لأفراد حزبهم، من خلال ترشيح الأتراك ليكونوا نواباً عن الولايات غير التركية وخاصةً العربية⁽¹⁾.

كما شددوا تعصبهم للغة التركية، لدرجة أنهم دفعوا أفراد الشرطة للتدخل في كتابة اللوحات فوق المخازن والحوانيت باللغة التركية عوضاً عن العربية⁽²⁾.

في نفس الوقت ظهرت عدة جمعياتٍ عنصرية تفرعت عن جمعية الاتحاد والترقي، مثل جمعية (ترك أوجاغي) (العائلة التركية) هدفها الأساسي تتريك العناصر غير التركية، مركزها الرئيس في استانبول، وهي موجودة في القوقاز، الأناضول، تركستان، مقدونيا، وترافيا، ولها أربع فروع هي:

1- (ترك بلكيشي) (العلم التركي): تقوم بنشر اللغة التركية بين الأتراك، من خلال ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة التركية القديمة، وبث النزعة القومية في القوقاز وتركستان، والعمل على ربطهما سياسياً بدولة الاتحاديين.

2- (ترك يوردي) (الوطن التركي): مهمتها تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية، وتحويلها إلى لغةٍ مغوليةٍ بحته، وكتابتها بأحرفٍ منفصلةٍ، وفرض استخدامها في الكتب القومية والمدارس وفي كل أنحاء البلاد، إضافةً إلى مقاومة كل صوتٍ تركي وغير تركي يناهض أفكار الاتحاديين ويخالفها.

3- (ترك كوجي) (القوة التركية): تعمل على رعاية صحة الأتراك، وتعليمهم ممارسة الألعاب الرياضية لتقوية أجسادهم والحفاظ عليهم⁽³⁾.

(1) عامر، تاريخ الدولة....، ص 354.

(2) قلججي، الثورة العربية.....، ص 70.

(3) جهاد صالح، الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، دار الصداقة، بيروت، ط1، 1987م، ص 33.

4- (ترك درنكي) (جمعية الترك): أعضاؤها من أشد الاتحاديين كرهاً وحقدًا ورغبةً في القضاء على قومية العناصر غير التركية، لذا تركزت مهامها في بث الفكرة القومية بين الأتراك العثمانيين بطريقةٍ خيالية لم يسبق لها مثيلٌ من قبل⁽¹⁾.

ولم يتوقف الاتحاديون عند هذا الحد، فقد عملوا على نشر الأناشيد الحماسية، وتعليم الأتراك التاريخ الطوراني وخاصةً تاريخ جنكيز خان وهولاكو وأوغوز، وترسيخ فكرة أن الأتراك أعظم أمةٍ في العالم، عدا عن الحملة الشرسة التي أرغموا فيها الناس على تغيير أسمائهم من العربية إلى التركية.

والأغرب من هذا، أصبح لديهم دعاء جديد يتداولونه في جوامعهم، مدارسهم، ومنازلهم ترجمته على النحو التالي:

"أيها الإله القادر على كل شيء، أنعم على الترك بالصحة والعافية، وأحسن إليهم بذئبٍ أبيض، واشملهم برعاية مولانا السلطان الأعظم، وأنت يا ملكة طوران الجميلة المحبوبة، أرشدنا إلى الطريق المؤدية إليك، لأن جدنا (أوغوز الكبير) ينادينا.

أيها الإله القادر على كل شيء، أنر طريق طوران أمامنا، واجعل أمتنا كالورد النضير واهدنا الصراط المستقيم"⁽²⁾.

وكنتيجةً منطقيةً لما تقدم، باءت محاولات القوميات الأخرى في التقارب منهم بالفشل الذريع، فلم تلقَ رغبة الأرمن بفتح صفحةٍ جديدةٍ معهم أي أذانٍ صاغيةٍ، بل على العكس تمادوا في فتكهم وإبادتهم للشعب الأرمني، كما لاقى العرب المصير نفسه، عندما أسسوا (جمعية الإخاء العربي-العثماني) في استانبول، وسعوا عن طريقها إلى مساعدة الاتحاديين في المحافظة على الدستور، والنهوض بالعرب والدفاع عن حقوقهم، لكن رد الاتحاديين بإغلاقها خالف كل التوقعات والأمنيات المرجوة منهم⁽³⁾.

ولا يمكننا أن ننسى دور الصحافة في هذا المضمار، حيث عملت على تعزيز القومية الطورانية، وتحاملت على غيرها من القوميات، وحضت الحكومة على محاربتها والقضاء عليها⁽⁴⁾.

(1) صالح، الطورانية التركية.....، ص 33.

(2) أسعد خليل داغر، ثورة العرب، دار الهنداوي، مصر، 2012م، ص 129، 130.

(3) اليافي، جمال باشا.....، ص 30.

(4) قلججي، الثورة العربية.....، ص 73.

وأخيراً يمكننا القول، أنّ سياسة التتريك التي اتبعتها الاتحاديون بحق عناصر الدولة العثمانية المختلفة، كانت من أفشل السياسات وأكثرها خطورةً، ففرض قومية معينة على شعوبٍ لا تمت لها بصلةٍ وإجبارهم على الدخول فيها هو أكبر خطأ ارتكبه الاتحاديون بحق دولتهم، وسيتحملون عواقب وخيمةً بسبب هذه السياسة التي أدت إلى النهاية المأساوية لتألف القوميات.

3- الخروج العربي عن الدولة العثمانية:

أ- مسببات الانشقاق العربي التركي:

على الرغم من كل الجهود التي بذلها الزعماء العرب، ليظهروا إخلاصهم وتفانيهم للعهد الجديد، لم يلبث أن حلّ سوء التفاهم والارتياح محل التعاون والوفاء، الذي كان يسود بين الاتحاديين وغيرهم من العناصر العثمانية بما فيهم العرب.

كانت أسباب هذا التحول كثيرةً ومتراكمةً، وظهرت بوادرها عندما بدأ عددٌ من الكتّاب الأتراك بالتعبير عن آرائهم في الصحف أمثال (حسين جاهد) الذي كتب في جريدة (طنين)، أنّ الأمة التركية كانت وستبقى هي الأمة الحاكمة في الدولة العثمانية، والترك بصفتهم فاتحين لهم حقوقٌ وامتيازاتٌ ساميةٌ، ولذا من غير الممكن الاعتراف بحقوقٍ مساويةٍ للعناصر العرقية الأخرى، والدستور العثماني لا ينبغي أن يكون في صورته النهائية إلا دستوراً تركيا⁽¹⁾.

كما جاء في الجريدة نفسها مقالٌ آخر موجّه للعرب حصراً، قال فيه الكاتب (أحمد شريف):

"لا يزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك، فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال أن ينسيهم لغتهم، ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم، فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم، فإنهم سيعملون عاجلاً أو آجلاً على استرجاع مجدهم الضائع، وتشيد دولة عربية جديدة على أنقاض دولة الترك"⁽²⁾.

نلاحظ أنّ هذه الكلمات كانت دليلاً واضحاً على مقدار التعصب القومي الذي وصل إليه

(1) الحميدي، الصراع بين القوميتين.....، ص 279.

(2) مجهول المؤلف، ثورة العرب (مقدماتها، أسبابها، نتائجها)، دار المقطم، مصر، 1916م، ص 159.

الأتراك، فقد جعلوا شعبهم قواماً على بقية شعوب الدولة العثمانية، كما نادوا إلى استخدام كل أنواع القوة للتخلص من التهديد العربي، باعتبار أن العرب يفوقون عدد الأتراك بأضعاف، وإذا تنبهوا لأمجادهم السابقة سيلحقون ضرراً كبيراً بالأتراك ودولتهم.

وقد تكفلت هذه التصريحات بإذكاء نار الفتنة والصراع القومي بين العرب والأتراك، وخاصةً بعد تعرض الموظفين العرب لمجموعةٍ من الإجراءات الإدارية التعسفية في الوزارات، الفرق العسكرية، القصر السلطاني، حكام الولايات، ووصولاً إلى العضوية بمجلس المبعوثان⁽¹⁾.

نرى أيضاً، أن الاتحاديين عملوا بكل طاقتهم على تصفية مؤسسات الدولة من العناصر العربية، بذريعة انتمائهم للعهد السابق مثل أبو الهدى الصيادي، عزت باشا العابد، والأخوان سليم ونجيب ملحمة وغيرهم الكثير، بهدف إنهاء أي وجودٍ أو أهميةٍ للعرب في المناصب العليا للدولة⁽²⁾.

تمادى الاتحاديون واستهتروا كثيراً في تعاملهم مع العرب، حيث منعوا قيام مدارس أهلية تدرس موادها باللغة العربية، في حين فرضوا على المدارس الحكومية أن تعلّم منهاجها وفق برنامجهم الهادف للتريك، كما أن الأوامر صدرت إلى رؤساء المحاكم بأن يعقدوا مرافعاتهم باللغة التركية حصراً، وعمموا على فروع جمعيتهم في الولايات العربية، أن يستخدموا اللغة التركية أثناء مخابراتهم مع المركز الرئيس في سالونيك.

ولم تقتصر ممارساتهم على ذلك، فقد فرضوا على التجار العرب تقديم بياناتهم باللغة التركية إلى مديريات الجمارك، فضلاً عن منعهم مجلس المبعوثان من استقبال الشكاوي المقدمة باللغة العربية، وسعيهم أيضاً لإبعاد العرب عن البعثات العلمية الموجهة إلى أوروبا وتفضيل الترك عليهم، عدا عن قيامهم بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، كخطوةٍ عدّها العرب معاديةً للدين الإسلامي والعروبة⁽³⁾.

(1) الحميدي، الصراع بين القوميتين.....، ص 279.

(2) محمد صفى الدين أبو العز، العلاقات العربية التركية من منظورٍ عربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1991م، ص 184.

(3) محمود صالح منسي، حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م، ص 126، 127.

هذه الإجراءات وغيرها الكثير، كانت كفيلاً بمعرفة نوايا الاتحاديين ومراميهم في سيادة العنصر التركي، وتفضيله على باقي العناصر المشكلة للدولة، وميولهم الصريحة لسحق العرب وتذويب مقوماتهم القومية باعتبارهم خطراً يهدد كيان الاتحاديين ومركزيتهم، أعطى نتيجةً حتميةً تمثلت ببداية انبثاق بذور الحركة الانفصالية العربية من تربة القومية التركية، وتغلغلها في نفوس الشعوب العربية.

ب- الردود العربية على السياسة الطورانية:

لم يثن اضطهاد الاتحاديين، وما أصدره من قوانين تمنع تشكيل جمعياتٍ وأحزابٍ مبنيةٍ على أسسٍ قوميةٍ أو سياسيةٍ، الزعماء العرب من تأسيس جمعياتٍ تحمل طابع السرية، تستطيع من خلالها تحقيق أهدافها القومية بمعزلٍ عن أعين ورقابة السلطة، كما استفادوا من الجمعيات والنوادي العلنية في نشر أفكارهم، وتوحيد جهودهم للوصول إلى عملٍ عربيٍّ مشترك⁽¹⁾، وقد تميزت الفترة الممتدة بين عامي 1909-1914م، بتأليف عددٍ من الجمعيات سنعدها ونأتي على شرح أهمها:

• الجمعيات العلنية:

المنتدى الأدبي، حزب اللامركزية الإدارية العثماني، جمعية الإصلاح في بيروت، جمعية الإخاء العربي العثماني⁽²⁾.

-المنتدى الأدبي:

هي من أهم الجمعيات وأقدمها ظهوراً، أسسها مجموعةٌ من النواب والموظفين والطلبة والأدباء في استانبول عام 1909م، لتغدو مقراً يلتقي فيه العرب سواءً من المقيمين في عاصمة الدولة أو الوافدين لزيارتها، وقد سمح الاتحاديون بها، لأن أهدافها كانت ثقافيةً ظاهرياً وليست سياسية، ومع ذلك فقد أدت دوراً سياسياً لا يمكن إغفاله، عندما قامت بدور الوسيط في المفاوضات التي دارت لتسوية الخلافات بين الاتحاديين والعرب، كما كثر عدد المنضمين إليها وصار لها فروعٌ في مختلف مدن العراق والشام والقاهرة⁽³⁾.

(1) أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516-1916م، مصر العربية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م، ص 278.

(2) محمد فاروق الخالدي، المؤامرة الكبرى على بلاد الشام، دار الراوي، الدمام، ط1، 2000م، ص 162-165.

(3) منسي، حركة اليقظة العربية.....، ص 158.

وقد نظمت الجمعية عدداً من التمثيليات والمحاضرات، تُعنى بالتاريخ العربي تخللها قصائدٌ حماسيةٌ مشبعةٌ بالقومية، مما جعل نشاطها نموذجاً يحتذى به للأندية الثقافية القومية في الوطن العربي.

دُعمت الجمعية بشخصياتٍ مهمةٍ كالشيخ رشيد رضا، عبد الحميد الزهراوي، سليم الجزائري، وعزيز علي، واستمرت حتى عام 1915م حيث أغلقها الاتحاديون وأعدموا كثيراً من رجالها⁽¹⁾.

-حزب اللامركزية الإدارية العثماني:

تأسس هذا الحزب في مدينة القاهرة في أواخر عام 1912م، على يد عددٍ من المهاجرين السوريين (مسلمين، مسيحيين) في مصر وهم: رفيق العظم، اسكندر عمون، رشيد رضا، فؤاد الخطيب، ونايف تالله وغيرهم.

كانت أهداف هذا الحزب ذات اتجاهين:

الأول: توضيح أهمية قيام نظامٍ لا مركزي في الولايات العربية مع بقاء الارتباط بالدولة العثمانية.

الثاني: تعبئة الرأي العام العربي لمناصرة هذا المطلب.

افتتحت الجمعية فروعاً لها في كل مدن الشام، وبعض الوكالات الصغيرة في أماكن أخرى متفرقة، وكانت على علاقةٍ وثيقةٍ مع الجمعيات السياسية الأخرى في الشام والعراق، والمنتدى الأدبي في استانبول، وفي غضون سنةٍ غدت هذه الجمعية أفضل من ينادي بأمانى العرب وأهدافهم، بسبب قوة تأثيرها ودقة تنظيم صفوفها⁽²⁾.

• الجمعيات السرية:

الجمعية القحطانية، جمعية العربية الفتاة، جمعية العهد، ونظراً لأهمية هذه الجمعيات سنأتي على شرحها بالكامل.

(1) منسي، حركة اليقظة العربية.....، ص 158، 159.

(2) جورج أنطونيوس، يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1987م، ص 185.

-الجمعية القحطانية:

تأسست هذه الجمعية في استانبول أواخر عام 1909م، بعد المنتدى الأدبي بوقتٍ قصيرٍ، كان مؤسسوها من أصحاب الإقدام والجرأة، وكذلك كان مشروعاتهم جديداً وجريءً، وهو تحويل الدولة العثمانية إلى دولة ذات حكمٍ ثنائيٍّ، بحيث تؤلف الولايات العربية دولةً واحدةً، لها حكومتها المحلية وبرلمانها الخاص بها ولغتها هي العربية، ويصبح السلطان العثماني ملكاً عليها، إضافةً إلى حكمه للدولة التركية، وهو حلٌ أكثر واقعيةً من شأنه أن يجعل علاقة الترك والعرب أكثر التحاماً وترسيخاً.

قاد هذه الجمعية الضابط (عزيز علي المصري)، كان أعضاؤها يُختارون بعنايةٍ فائقةٍ ممن كانوا محلّ ثقةٍ في وطنيتهم، وإخلاصهم لا يمكن أن يشك فيه، كما اشترك فيها بعض الضباط العرب من الجيش العثماني، وبمجرد تسرب أخبارها إلى السلطات الحاكمة اختفت من تلقاء نفسها(1).

- جمعية العربية الفتاة:

تصنف من أهم الجمعيات العربية التي قادت الاتجاه القومي العربي، أسسها في باريس عام 1911م سبعةٌ من الشبان العرب، هم عوني عبد الهادي (من جنين)، رستم حيدر (من بعلبك)، توفيق الناطور (من بيروت)، عبد الغني العريسي (من بيروت)، جميل مردم (من دمشق)، رفيق التميمي (من نابلس)، ومحمد المحمصاني (من بيروت) أثناء إكمال دراستهم في العاصمة الفرنسية.

ساد جمعيتهم روح وعزم الشباب، الذي انعكس إيجاباً على تماسكهم ونشاطهم ووحدة واتفاق آرائهم، كانت أهداف الجمعية تتمحور حول استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً، وتحريرها من سيطرة الأتراك والأجانب، مما يعتبر تطوراً واضحاً مقارنةً مع برامج الجمعيات السابقة، التي كانت تسعى إلى الحكم الذاتي في نطاق الدولة العثمانية.

تميزت بتنظيمها المميز لأعضائها، فقد كان يشترط أن يخضع العضو قبل قبوله فيها إلى فترةٍ طويلةٍ من الاختبار، ولا يسمح له بمعرفة الأعضاء الآخرين إلى أن يتم قبوله فيها رسمياً، بعدها يقسم بحياته أن يصون الجمعية ويعمل على تحقيق أهدافها(2).

(1) منسي، حركة اليقظة العربية.....، ص 160.

(2) أنطونيوس، يقظة العرب.....، ص 187، 188.

استمر وجود الجمعية في باريس حتى أنهى قاداتها دراستهم، فنقلوا مقرها إلى بيروت عام 1913م، ثم إلى دمشق عام 1914م، في هذه الأثناء زاد عدد الأشخاص المنتسبين إليها بشكل كبير، وبعد أن اقتصر على المسلمين دخلها قلة قليلة من المسيحيين، وقد احتفظت بسرية نشاطها ولم يذع أمرها إلا بعد أن تحررت البلاد العربية من الحكم العثماني⁽¹⁾.

-جمعية العهد:

شُكلت كبديل عن الجمعية القحطانية في استانبول عام 1913م، طغى عليها الطابع العسكري، فجّل عناصرها كانوا من الضباط العراقيين مثل نوري السعيد، مولود مخلص، ياسين الهاشمي، وعلي جودت الأيوبي مع بعض الضباط السوريين.

أسسها (عزيز علي المصري)، واستهدفت الحصول على الاستقلال الداخلي للبلاد العربية⁽²⁾، على أن تتحد مع الأتراك في تاج السلطان العثماني كاتحاد النمسا بهنغاريا (المجر)، كان لها فروع في حلب وبيروت ودمشق والموصل والبصرة.

أحدثت هذه الجمعية ضجة كبيرة في استانبول، نتيجة انضمام أعداد هائلة من الضباط إليها، فأنكشف أمرها لدى الاتحاديين الذين أحسوا بخطرهما، فاتخذوا مجموعة من التدابير الحاسمة لإضعافها، كإقصاء الضباط العرب المقيمين في استانبول إلى مناطق تركية أخرى، وعزل الضباط العرب من مراكز القيادة في البلاد العربية وتعيين ضباط أتراك مكانهم، إضافة إلى مقاومة الحركات العربية ورجالها واستخدام القوة والشدة ضدهم⁽³⁾.

وهكذا نجد، أنّ جميع الجهود التي بذلها العرب لإصلاح الأمور بينهم وبين الاتحاديين باءت بالفشل ولم تلق أذاناً صاغية، مما دفعهم إلى المقاومة عن طريق الجمعيات المدنية والعسكرية التي حاولت الضغط على الاتحاديين لتقديم بعض التنازلات، كما بادر العرب في نفس الفترة إلى اتخاذ أهم خطوة في طريق مطالبتهم بحقوقهم، وهي الدعوة إلى عقد مؤتمر عربي خارج نطاق الدولة العثمانية ليكون بعيداً عن تسلط الاتحاديين ويوحد كلمة العرب.

(1) الشلق، العرب والدولة العثمانية.....، ص 280.

(2) هاني الهندي، الحركة القومية العربية في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2015م، ص 215.

(3) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، 6 أجزاء، المطبعة العصرية، صيدا، 1950م، ج1، ص 32.

• مؤتمر باريس 1913م:

وضع المؤرخون والباحثون تساؤلاتٍ عديدةٍ وآراءٍ مختلفةٍ حول هذا المؤتمر، فبينما عدّه الاتحاديون خيانةً لدولتهم، اعتبره العرب مؤتمراً قومياً، كونه أفضل وسيلةٍ لتعريف الرأي العام العالمي بقضيتهم القومية، حيث لم يكن أمامهم سوى هذه الطريقة لإسماع صوتهم ومطالبهم.

وقد كُلفت جمعية العربية الفتاة بتنظيم هذا المؤتمر، بمشاركةٍ كلٍ من حزب اللامركزية الإدارية العثمانية والجمعية الإصلاحية البيروتية، وانهقد المؤتمر في قاعةٍ من قاعات الجمعية الجغرافية الفرنسية بسان جرمان في تاريخ 18 حزيران 1913م. لم يكن عدد المندوبين العرب كبيراً، فقد بلغ عددهم أربعةً وعشرين من المسلمين والمسيحيين أغلبيتهم من بلاد الشام، إضافةً إلى ثلاثة مندوبين عن المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اختير (عبد الحميد الزهراوي) رئيس حزب اللامركزية رئيساً لهذا المؤتمر⁽¹⁾.

وبعد مناقشاتٍ وجلساتٍ عديدةٍ قرر المؤتمر مايلي:

- 1- يجب أن تنفذ الإصلاحات الحقيقية في الدولة العثمانية على وجه السرعة، فهي ضرورية ولازمه.
- 2- تمتع العرب بكامل حقوقهم السياسية، بإشراكهم فعلياً في إدارة شؤون الدولة المركزية.
- 3- إنشاء إدارةٍ محليةٍ لا مركزيةٍ في كل ولايةٍ عربيةٍ.
- 4- جعل اللغة العربية لغةً رسميةً في الولايات العربية، مع الاحتفاظ بمكانتها في المجالس العثمانية.
- 5- تكون الخدمة العسكرية محليةاً، وتقتصر على الولايات العربية إلا في حالات الحروب.
- 6- توسيع سلطة مجلس العموم وتكليف مستشارين أجانب في ولاية بيروت.
- 7- تحسين متصرفية لبنان وماليتها.
- 8- يؤيد المؤتمر مطالب الأرمن العثمانيين بتطبيق اللامركزية.
- 9- تبليغ الحكومة العثمانية بهذه القرارات.
- 10- تبليغ الحكومات الداعمة للدولة العثمانية بهذه القرارات أيضاً⁽²⁾.

(1) أبو العز، العلاقات العربية التركية.....، ص 188.

(2) داغر، ثورة، ص 67.

والملفت للانتباه، أنهم أكدوا على أهمية الاحتفاظ بوحدة الدولة، ولم يطالب أحدٌ منهم بالانفصال عن الدولة العثمانية على الإطلاق.

في هذه الأثناء حاول الاتحاديون إحباط المؤتمر ولكن فشلهم دفعهم للمراوغة، حيث تظاهروا بقبولهم للمطالب العربية، حتى أنهم أصدروا فرماناً سلطانياً في آب 1913م، أفتوا فيه تنفيذ قرارات المؤتمر بعد أن خضع لتعديل الاتحاديين أثناء اجتماعهم مع زعماء العرب في باريس.

وسرعان ما كشفت نوايا الاتحاديين في المماطلة وعدم تنفيذ بنود الاتفاق، وسيطر اليأس وخيبة الأمل على العرب، وعادت الفجوة بينهم وبين الأتراك من جديد⁽¹⁾.

وما لبثوا أن عاودوا نشاطهم السري، بعد أن تأكدوا أن الطريق الوحيد لخلاصهم هو الثورة، التي أتاحت لها الحرب العالمية الأولى * ظروفًا مواتيةً، ولاسيما بعد دخول الدولة العثمانية فيها.

وأخيراً يمكننا القول، أنه من الطبيعي أن يكون للظلم الواقع أثرٌ قوميٌّ وحاسمٌ في شعور العرب ونفوسهم، وأن يرشدتهم إلى وجهةٍ أبعد مدى من الوجهة التي كانوا عليها، وبتعبيرٍ آخر إلى وجهة الانفصال عن الدولة العثمانية، وإنشاء كيان عربيٍّ مستقلٍّ استقلالاً تاماً.

حيث استغلوا أحداث الحرب وخطوا خطوتهم الحاسمة في ثورةٍ عربيةٍ كبرى، استعدوا لها بين عامي 1914-1915م، وأعلنوا انطلاقها عام 1916م⁽²⁾.

ولسنا في صدد شرح تفاصيل أحداث هذه الثورة وتداعياتها، لأن هناك بحرٌ وافر من الدراسات عنها، وما يهمنا هنا هو الحالة القومية التي وصل إليها العرب واستطاعوا من خلالها تحقيق استقلالهم التام عن الدولة العثمانية، لكنها في الوقت نفسه أوقعتهم في مصيدة الدول الكبرى التي استغلّتهم لصالحها أولاً ثم احتلت بلادهم بعد ذلك.

(1) أبو العز، العلاقات العربية التركية.....، ص 188، 189.

* سنتوسع في شرح الحرب العالمية الأولى في الفصل الثالث.

(2) الشلق، العرب والدولة العثمانية.....، ص 287.

رابعاً: استنتاج الفصل الأول:

توصلنا من خلال دراستنا إلى ما يلي:

1- كان تشبع الشباب التركي بالأفكار الغربية، التي تسربت إلى عقولهم بطرقٍ مختلفةٍ، وذهولهم بروعتها وتقدمها قد دفعهم لمقارنة البلاد الأوروبية ببلادهم دون تنبههم لخطورة هذه الأفكار ونتائجها المدمرة على بلادهم.

2- لم تكن جمعية الاتحاد والترقي مجرد تجمعٍ ثوريٍ بسيطٍ، نشأ بين عددٍ من طلبة الكلية الطبية العسكرية، بل كانت أكبر من ذلك بكثيرٍ فالشخصيات المهمة التي انضمت إليها وساعدتها على الانتشار، سواءً في داخل الدولة العثمانية أو خارجها، قدم دليلاً على كمية التسلط الفكري وكبت الحريات الذي كان يمارس عليهم من قبل السلطة العثمانية.

3- كانت بعض الشخصيات التي رفعت شعاراتٍ معارضةٍ لتدخل إلى كنف جمعية الاتحاد والترقي، لا تحمل أدنى عقيدةٍ أو إيمانٍ بمبادئ وأفكار الجمعية، بل حاولت فقط الانطواء تحت لوائها للوصول إلى أهدافها في تحقيق مكاسبٍ ماديةٍ ومناصبٍ حكوميةٍ عاليةٍ.

4- أدت الماسونية العالمية ويهود الدونمه دوراً جوهرياً في جمعية الاتحاد والترقي، حيث التقت أهدافها وتطلعاتها مع مساعي الجمعية، فسخرت كل جهودها لدعم الجمعية وإنجاح مطالبها بكافة السبل المتوقعة وغير المتوقعة.

5- ضمت الماسونية عدداً من أعضاء الجمعية إلى محافلها، ولكن ذلك لا يعني أن جميع أعضاء الجمعية كانوا ماسونيين، أي أن الجمعية لم تكن ماسونيةً صرفاً، بل كانت تعمل تحت غطاء الماسونية وحمائتها وتحريضها، وبذلك كانت الحزن الدافئ للجمعية.

6- توقع الاتحاديون أن تُحلّ كامل مشاكل دولتهم الداخلية والخارجية، مع تطبيق الدستور وانطلاق الحريات، لكن حقيقة الأمور صدمتهم فقلة خبرتهم السياسية، وانعدام وعيهم وتحليلهم الصحيح لبواطن الأحداث، جعل موازين القوى تتحرك ضدهم، وتعطي زمام المبادرة لصالح أعدائهم وأعداء دولتهم من الدول الكبرى.

7- غيّر الاتحاديون سياستهم التي نادوا بها وناضلوا من أجلها، فكمت الأفواه وقمعت الحريات وعلقت أعواد المشانق، وتحول الاتحاديون من أكبر معادٍ للاستبداد إلى أقوى مناصرٍ له، لدرجة أن الناس أخذت تترحم على أيام الاستبداد السابق.

8- عجلت الأزمات المتلاحقة التي مني بها الاتحاديون من لحظة استلامهم للسلطة - ثورات، انفصالات، حروب- بتنامي فكرة القومية التركية وتبلورها في نفوسهم، وإدراكهم العميق لفشل رداء العثمنة، وعدم صلاحيته لجمع عناصر الدولة المختلفة، فابتعدوا شيئاً فشيئاً عنه لصالح قوميتهم العرقية.

9- كان من أكبر أخطاء الاتحاديين، أنهم رغم إدراكهم لقيمة الوعي القومي وأهميته عند جنسهم، أنكروه على غيرهم، مما دفعهم إلى المغالاة في عنصريتهم والتطرف في قوميتهم، وأدخلهم في صراعٍ مع عناصر الدولة المختلفة وخاصةً العرب.

10- شكل العرب عبر تاريخهم الطويل قاعدة ارتكازٍ مهمةٍ للدولة العثمانية، ومخاوف الاتحاديين من تفوقهم العددي وطغيان جنسهم على الجنس التركي غير مبررة، ولم تكن لتظهر لولا اتباعهم للسياسة الطورانية المجحفة بحق العرب، التي نبهتهم وأثارت في نفوسهم نزعات العروبة والقومية.

11- رغم الصراع الذي دار بين القوميتين التركية والعربية، بقي العرب حتى النهاية متمسكين بعثمانيتهم وساعين لحل الخلافات، وتقريب وجهات النظر بينهم وبين الاتحاديين بشتى الوسائل، لكن فشل محاولاتهم وازدياد الإجراءات التعسفية الجائرة بحقهم، أغلق الطرق أمامهم ولم يترك لهم إلا سبيلاً واحداً لنيل حقوقهم وهو القيام الثورة.

الفصل الثاني

اليهود ودورهم في هدم الدولة العثمانية

أولاً: نشأة اليهود:

قبل الخوض في تفاصيل نشأة اليهود⁽¹⁾ وأصولهم، وما تفرع عنهم من فئاتٍ وحركاتٍ سياسية، يجب علينا الإشارة إلى النقطة التالية:

إنّ تعبير (تاريخ اليهود) أقرب إلى أن يكون تعبيراً مجازياً، لأننا لا نستطيع عدّ اليهود وحدةً متماسكةً، فمفهوم التاريخ اليهودي غير واردٍ، لما يتطلب هذا المفهوم من وجود تشكيلٍ حضاريٍّ -مستقبلٍ واحدٍ وعرفٍ واحدٍ ولغةٍ واحدةٍ- والجماعات اليهودية التي انتشرت في أرجاءٍ مختلفةٍ من العالم، كانت تتواجد في بقاعٍ وظروفٍ تختلف باختلاف الزمان والمكان الذي يعيشون فيه، لذا فإنه من غير الممكن قبول مقولة التاريخ اليهودي،

لأن الحديث عن الهوية اليهودية في غاية الصعوبة، فهي جزءٌ لا يتجزأ عن التشكيلات الحضارية التي كانوا يعيشون في كنفها، ولهذا فإنه من الأفضل لنا أن نستخدم لفظ (الجماعات اليهودية) بدلاً من (التاريخ اليهودي).

وبالعودة إلى نشأة اليهود، فلا نستطيع إعطاء تاريخٍ محددٍ للهجرة التي قام بها إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين، بعد خروجه من مدينة (أور) الكلدانية في العراق، فبعض المؤرخين يعتقدون أن عام 2000 ق.م هو العام الأقرب إلى بداية الرحلة.

بينما يرجح بعضهم الآخر حدوثها في عام 1750 ق.م، كانت هجرة إبراهيم عليه السلام هجرة جماعاتٍ، وليس هجرة أفرادٍ، ينتقلون مع زوجاتهم وأبنائهم وكل ممتلكاتهم من الحيوانات والعبيد، ويمكن أن نعدّها الهجرة الأولى للقبائل اليهودية إلى فلسطين⁽²⁾، التي تتبعها في منتصف القرن 17 ق.م هجرة إلى مصر مع يعقوب عليه السلام⁽³⁾.

(1) اليهود: يقال إن التهود يعني التوبة والعمل الصالح، وتهود أي صار يهودياً، والهود بوزن العود، اليهود. وقيل اليهودي نسبة إلى يهودا بن يعقوب عليه السلام. للمزيد: فريد إبراهيم محمد، إسرائيل اليهود الوجه الخفي (الماضي والحاضر)، جزآن، دار قباء، القاهرة، 2004م، ج1، ص 18.

(2) كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، 1988م، ص 7، 8.

(3) جمال حمدان، اليهود انثروبولوجيا، تقديم عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، سوريا، دت، ص 58.

نتيجة القحط الشديد الذي واجهوه هناك، وبقوا فيها قرابة 350 سنة، ثم أخرجهم منها موسى عليه السلام عام 1300 ق.م، بعد أن تعرضوا للاضطهاد من فرعون مصر (رمسيس الثاني)، الذي أراد الانتقام منهم لثبات خيانتهم وتعاونهم مع الهكسوس⁽¹⁾ أعداء مصر.

وقبل هجرتهم الثانية إلى فلسطين أمضوا 40 سنة في سيناء مصر، كعقوبة من الله عز وجل على معصيتهم، إلى أن تولى يوشع بن نون خلافة بني إسرائيل، ونجاحه في هزيمة العمالة (الكنعانيين) وانتزاع أجزاء من أراضيهم، حاول اليهود بعد ذلك أن يمدوا نفوذهم في أرجاء فلسطين، لكن الحظ لم يحالفهم حتى عام 1000 ق.م، حيث استطاع داود توحيد قبائل بني إسرائيل، كما ألحق الهزيمة بالفلسطينيين واليبوسيين، ولم يكتف بذلك بل وسّع حدود مملكته حتى امتدت من (دان) شمالاً إلى (بئر السبع) جنوباً، واحتل القدس وجعلها عاصمةً له⁽²⁾.

لم تمض مدة طويلة حتى انشطرت الدولة بعد خليفة داود سليمان إلى قسمين:

(يهوذا) في الجنوب، يحكمها (رحبعام) -بن سليمان-، وعاصمتها (أورشليم).

(إسرائيل) في الشمال، يحكمها (يربعام) -من الأسباط-⁽³⁾ وعاصمتها (السامرة).

كان التوتر والعداء يسود العلاقة بين هاتين الدولتين، مما سهل سقوطهما على يد فرعون مصر وملك العراق الآشوري في القرن 8 ق.م⁽⁴⁾.

(1) الهكسوس: (الرعاة) هم شعوب بدوية من أصول عمورية، دخلت مصر من سيناء في فترة ضعف الدولة الوسطى أي في نهاية حكم الأسرة الرابعة عشر، لم يتفق خبراء التاريخ على أصلهم ولكن الأرجح أنهم أصحاب أصول آسيوية متعددة. للمزيد: سليم حسن، موسوعة مصر القديمة (عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية)، 18 جزء، دار الهنداوي، القاهرة، 2012م، ج4، ص 113-115.

(2) حمدان، اليهود ..، ص 58، 59.

(3) الأسباط: ينحدر أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر من يعقوب، والسبط لغةً هو ابن الابن، وعلى هذا فإن أبناء يعقوب الاثنا عشر ليسوا هم الأسباط لأنهم الأبناء، وإنما الأسباط هم أبناء هؤلاء الأبناء. للمزيد: نجيب زبيب، التاريخ الحقيقي لليهود منذ نشأتهم الأولى وحتى الآن، دار الهادي، بيروت، ط3، 2007م، ص 25.

(4) سغفان، اليهود تاريخ....، ص 18.

ثم الملك البابلي في القرن 6 ق.م، وبذلك تكون دولة اليهود في فلسطين قد انتهت إلى الأبد⁽¹⁾.

أما في أوروبا فلم يكن لليهود مثلما كان لهم في الشرق، فقد واجهوا أنواعاً مختلفة من الظلم والاضطهاد، فضلاً عن المذابح التي تعرضوا لها في معظم البلدان الأوروبية شرقاً وغرباً، كطرد بريطانيا لهم في القرن 6م، ومنعهم من العودة إليها لمدة ثلاثة قرون، وإحراق تلمودهم في فرنسا أكثر من مرة، ومن منّا لم يسمع بالمذابح الألمانية النازية الأشهر في التاريخ ضد اليهود، وباضطهاد إسبانيا الشديد لهم بعد أن هزئوا وسخروا من ديانتها الكاثوليكية⁽²⁾.

وكمحاولة منهم للانتقام من الإسبان على هذه المعاملة رحّبوا بالعرب الذين فتحوا إسبانيا في عام 711م، وقد تمتع اليهود في هذه الفترة بسماحة الإسلام، فزادت قوة طائفتهم وأصبحت لهم حرية دينية، كما شاركوا في النهضة العلمية والاقتصادية في إسبانيا، وبمجرد انتهاء عصر إسبانيا الإسلامي وعودة الحكم المسيحي إلى البلاد من جديد، تغيرت أحوال اليهود وساءت بشكل كبير⁽³⁾، حيث تم طرد أكثر من (300) ألف يهودي من إسبانيا، توزعوا في إيطاليا والبرتغال والمغرب والدولة العثمانية⁽⁴⁾.

وفيما يخص الدولة العثمانية فقد لاقى اليهود فيها أحسن معاملة، وهي الدولة الوحيدة التي لم يحدث فيها أي اضطهاد بحق اليهود، فقد نعموا في ظلها بالاستقلال الطائفي والذاتي والإداري⁽⁵⁾.

وإنّ معاناة اليهود من ولايات الدول الأوروبية وممارساتها الاضطهادية المجحفة بحقهم، كان من صنع أيديهم التي حاولت باستمرار ضرب المجتمعات التي عاشوا فيها، وتشويه معتقداتها وعاداتها، وهذا دليل واضح على أن اليهود لم يتمكنوا كأقلية ومجموعة طائفية من الاندماج في المجتمعات.

(1) سغفان، اليهود تاريخ....، ص 18.

(2) رفيق شاكر النتشه، عبد الحميد الثاني وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1991م، ص 17، 18.

(3) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، دار البشير، عمان، ط1، 1997م، ص 22، 23.

(4) النعيمي، اليهود والدولة.....، ص 27.

(5) النتشه، عبد الحميد الثاني.....، ص 29.

وأن عزلتهم جاءت من ضعفهم وخوفهم المتأصل في نفوسهم.

ثانياً: الديانة اليهودية:

ينسب اليهود دينهم إلى شريعة موسى عليه السلام، باعتبار أنهم في الأصل من أتباعه، تركوا طريق الحق وانغمسوا في شهواتهم، كما عادوا إلى عبادة الأصنام كعشتروت، ليليت، عشيرة، السابات، والبعليم، وقد وصفهم الله تعالى بالمغضوب عليهم في كتابه العزيز، مما جعل ذكرهم مقترنً بغضب الله ولعنته، بسبب عصيانهم وكفرهم المستمر على خلاف لفظ (بني إسرائيل) الذي ارتبط بذكر أنعام الله وأفضاله عليهم في القرآن الكريم.

ولعل كثرة المصادر والمراجع التي وصفت اليهود بأنهم شعب الضلال والانحراف عن طريق الحق، جاء من كثرة عدد أنبيائهم بدليل قوله تعالى:

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ سورة المائدة رقم 70
صدق الله العظيم

"واليهودية في حقيقتها ديانة انعزالية....، مغلقة شديدة التوقع وغير دعوية، تفرض على معتنقيها الانعزال في أماكن خاصة بحجة المحافظة على الجنس اليهودي المزعوم ونقائه، ولكي يتم الاعتراف بيهودية أي يهودي فيجب عليه أن يكون من أب وأم يهودية"⁽¹⁾.

وقد عُرف اليهود بمبالغتهم الكبيرة في وصف تميزهم ونقاء جنسهم، حيث عملوا على ترسيخ هذه الفكرة من خلال تعاليمهم المستمدة من مصدرين هما: (التوراة) المصدر الأساسي، ويسمى العهد القديم أو العهد العتيق للتفريق بينه وبين العهد الجديد (الإنجيل)، ويقدس كل من اليهود والمسيحيين العهد القديم باعتباره جزءاً من الديانة المسيحية، وتطلق تسمية (الكتاب المقدس) على العهدين معاً (الجديد والقديم)⁽²⁾.

(1) أحمد سالم رحال، فلسطين بين حقيقة اليهود وأكذوبة التلمود، دار البداية، عمان، ط1، 2008م، ص 21، 22.

(2) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ (حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية)، دار العربي، دمشق، ط2، دت، ص 147، 148.

أما المصدر الثاني فهو (التلمود) -معناه الشرح أو التعاليم أو التفسير- ويعدّ جزءاً أساسياً من أحكام ديانتهم، وهو يتألف من مجموعة التشريعات اليهودية التي جاءت كتفسيرٍ وشروحٍ وتعليقاتٍ على التوراة، ثم تحولت إلى سننٍ قدّسها اليهود كالتوراة فيما بعد⁽¹⁾.

قسّم اليهود (التوراة) إلى ثلاثة أقسامٍ، القسم الأول (البناتايك) يتألف من خمسة أسفارٍ، هي:

- السفر الأول: التكوين (بداية الخليقة والشعب المختار).
- السفر الثاني: الخروج (خروج بني إسرائيل من مصر).
- السفر الثالث: اللاويين (الطقوس الدينية لأبناء لاوي).
- السفر الرابع: العدد (يتضمن إحصائيات عن شعب الله المختار).
- السفر الخامس: التثنية (هو إعادة شريعة موسى).

أما القسم الثاني فيسمى (النبّيم) -الأنبياء- ويتضمن مجموعتين الأولى تتصل بأوائل الأنبياء، والثانية بالمتأخرين منهم.

بينما يعرف القسم الثالث بـ (الكتوبيم) -الأشعار والكتابات- ويتكون من اثني عشر سفرًا هي: (مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الأنشاد وراعوث وهوشع ومراثي أرميا والجامعة واستير ودانيال وعزرا ونحميا)، وبذلك يصبح عددها مجتمعةً (39) سفرًا⁽²⁾.

على عكس (التلمود) الذي يقوم على الأبواب الستة:

الفلاحة، النواهي والعقوبات، الأعياد والمراسم، الطهارة، النساء وما يتعلق بهن من زواجٍ وطلاقٍ وحضانةٍ ونزورٍ وإرثٍ ووصيّةٍ، الذبائح وما يتعلق بالتقدمات والقرايين ومراسيم الهيكل في ذلك⁽³⁾.

(1) أحمد سوسة، أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل، الأردن، 2003م، ص 7.

(2) سوسة، العرب واليهود.....، ص 148، 149.

(3) سوسة، أبحاث في اليهودية.....، ص 11.

وقد أكدوا فيه على مبدأ التفوق العرقي اليهودي، والاستعلاء على بقية الشعوب، وبما أنهم شعب الله المختار فهذا يجعل كل الناس عبيداً لهم، ويعطيهم الحق في التسلط على كل خيرات الأرض التي منحها لهم إلههم الخاص⁽¹⁾.

ومن يقرأ (التلمود) يلاحظ بوضوح أنه يتعدى على كل الشرائع السماوية والقوانين الإنسانية، وهو بعيد كل البعد عن (التوراة) المنزل من الله تعالى، والذي قاموا بتحريفه وتزويره حسب مصالحهم وأهوائهم.

ثالثاً: اليهود (فرقاً - أجناساً):

1- اليهود فرقاً:

سنذكر بعضاً من الفرق اليهودية الكثيرة، التي تكونت نتيجة للتأثيرات الفلسفية الأجنبية بعد غزوها لليهودية بأفكار لا تمت لها بصلة.

أ- الفريسيون:

يعود اسم هذه الفرقة في اللغة العبرية إلى كلمة Perushim، ولها معنيان إما المدح وتطلق على الذين عاشوا في عزلة عن الآخرين، وإما للذم والقدح ويشار بها إلى المفصولين والمنفصلين عن حولهم، وهم من أشد الملتزمين بالتوراة وأكثر المفسرين دقة له، امتاز عامتهم بالزهد في الحياة، كان جلّ همهم العيش وفقاً لتعاليم التوراة، لم تثر شؤون الحكم والأمور السياسية اهتمامهم.

كما اشتهروا بتأكيدهم على أهمية الطهارة الداخلية، والنية الصافية النابعة من القلب وفضلوها على الأعمال الظاهرية، وعلى الرغم من اتهامهم بالنفاق من قبل معارضيه، إلا أنّ اليهود عدّوهم بمثابة الآباء الروحانيين الذين حموا الوجود المعنوي والتراث الديني اليهودي، وأهم ما يميزهم عن غيرهم من الفرق هو إيمانهم بفكرة البعث الجسماني الذي أكده علماؤهم جيلاً بعد جيل⁽²⁾.

(1) سوسة، أبحاث في اليهودية.....، ص 10.

(2) عرفان عبد الحميد فتّاح، اليهودية (عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية)، دار عمار، عمان، ط1، 1997م، ص 98-102.

ب- القرّاءون:

نشأت هذه الفرقة على يد رجل يدعى (عنان بن داود)، في عهد الخليفة العباسي (أبي جعفر المنصور)، ونسبة إلى مؤسسها سميت أيضاً (العنانية)، ولم تنم هذه الفرقة وتنتشر إلا بعد ضعف الفريسيّون وتدهورهم، كان (الكتاب المقدس) بما فيه من أسفار هو مرجعهم الوحيد، أما (التلمود) فقد أنكروه ولم يؤمنوا به.

تأثرت هذه الفرقة بعقائد المعتزلة الإسلامية، وانضم عددٌ كبيرٌ من اليهود إليها، كما أن القرائين هم الذين أدخلوا النجمة السداسية كرمزٍ دينيٍّ يهودي، أما ذروة قوتهم وانتشارهم فكانت في القرن العاشر والحادي عشر الميلادي، ورغم الهجمات العنيفة التي تعرضوا لها من قبل التلموديين، بقيت فرقته مستمرة ولم تزل إلا بعد انتقال اليهود إلى الدولة العثمانية وأوروبا، ووقوع الفكر اليهودي تحت سيطرة اليهود الأوروبيين⁽¹⁾.

ج- السامريون:

هم فرقةٌ صغيرةٌ تؤمن بهارون وأسفار موسى الخمسة وسفر يوشع بن نون، وتنكر نبوة باقي الأنبياء من بعدهم، سكنت بالقرب من مدينة نابلس، وقد انقسمت هذه الفرقة إلى (الكوستانية) وتعني الجماعة الصادقة، التي تعترف بيوم القيامة وبوجود العقاب والثواب على الأعمال فيها، و(الدوستانية) وهي الفرقة الكاذبة المتفرقة، التي لا تقر بوجود الآخرة وتدّعي أن العقاب والثواب في الدنيا فقط، اتخذ السامريون من جبل (جرزيم) قبلةً لهم دون سائر اليهود، وقد كفروا بـداود وسليمان، اللذان غيرا مكان القبلة من جبل نابلس إلى (إليا) القدس، مخالفين أمر الله تعالى ومغيّرين شكل المجتمع اليهودي وفقاً لأهوائهم⁽²⁾.

د- الصدوقيون:

ينسبون أنفسهم إلى الكاهن الأعظم Zadok، ويمثلون الطبقات الأرستقراطية، فلم يكن لهم أنصارٌ بين العامة⁽³⁾.

(1) عبد المجيد همو، الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات، تدقيق إسماعيل الكردي، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003م، ص 111- 114.

(2) رحال، فلسطين بين حقيقة اليهود.....، ص 66، 67.

(3) فتّاح، اليهودية (عرض تاريخي.....)، ص 102.

حيث غدت تعاليمهم حكراً على الطبقة الثرية وكبار الكهّان أصحاب السلطة الدينية.

ينكرون وجود الملائكة، الأرواح، والبعث الجسماني الذي ينادي به الفريسيّون، كما أنهم يتمسكون بأحكام التوراة، مما جعلهم رافضين للتلمود وللأحاديث والروايات الشفوية، فكل أمر لم تثبت صحته بنص، عدّوه بدعةً ومزيفاً، كل ذلك دفع بهم إلى الغوص في حياة اللهو والترف، وأوقعهم في خطأ الانحلال الأخلاقي، فضلاً عن نظرهم للإله على أنه إله بالمعنى القومي، أي أنه رب قوم إسرائيل حصراً⁽¹⁾.

ومما سبق نجد أنّ هذه الفرق وغيرها الكثير، تركز محور الاختلاف بينها حول التوراة والتلمود، وكلّ منها عارض أفكار الآخر بعد اقتناعه التام بصدق معتقداته وصحتها، دون تقديم أدلة وبراهين كافية عليها، فالقائلين بالتوراة ادّعوا تطبيقهم لتعاليمه، بينما لاحظنا أنهم تجاهلوا الأخذ بحرفية النصوص الواردة فيه، مما أفقدهم جوهر المعلومة الأساسي، ورغم ذلك تبقى هذه الفرق أفضل ولو بالمعنى المجازي للكلمة من غيرها، التي تنادي ببعد التلمود القائم على تشويه سافر للحقائق، فضلاً عن اعتباره مخلوقاً من رحم التوراة.

2- اليهود أجناساً:

إنّ اليهود في وقتنا الحالي بعيدين كل البعد على أن يكون انتمائهم يعود إلى (جنس يهودي) واحد، بل هم عبارة عن خليط من الأجناس المتباينة، اندمجت في طائفتهم الدينية عبر التاريخ.

مما جعلهم ينقسمون إلى طائفتين كبيرتين هما:

أ- الأشكناز (اليهود الغربيون):

استقر هؤلاء اليهود في أوروبا (شمالاً وشرقاً)، ووفقاً للفكر اليهودي دلت كلمة (أشكناز) في العصور الوسطى على الأراضي التي يسكنها الجنس الجرمني في أوروبا، ثم أصبحت فيما بعد تعني (ألمانيا) فقط، ورغم ذلك، فإن عدداً كبيراً منهم سكن شرق فرنسا وشمالها، وفي بولونيا والنمسا ومعظم دول أوروبا الشرقية والغربية⁽²⁾.

(1) فتّاح، اليهودية (عرض تاريخي.....)، ص 103، 104.

(2) أسماء سليمان السويلم، الفرق اليهودية المعاصرة، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، د.ت، ص 197.

عُرف الأشكنازيون بعدم تقبلهم لحضارات الشعوب التي عاشوا بينها، وبقدرتهم على الاحتفاظ بلغتهم الخاصة (الييديش) -كانت في أساسها لهجة ألمانية قديمة دخلتها بعض الكلمات السلافية والعبرية- حتى عهد قريب، وقد عمل الأشكنازيون بالتجارة والإقراض المعتمد على الربا، وخاصة إقراض النبلاء والأمراء⁽¹⁾.

أما بالنسبة لصلواتهم فقد نطقوها باللغة العبرية، وهناك اختلاف كبير بينهم وبين غيرهم من حيث النصوص الموجودة فيها، والطقوس التي يمارسونها في أعيادهم، أكلهم، شربهم، سكنهم، وطريقة ملبسهم، ويمثلون اليوم أقطاب اليهودية الحديثة.

ب- السفارديم (اليهود الشرقيين):

دلت كلمة (سفردي) في العصور الوسطى على شبه جزيرة إيبيريا أي (إسبانيا والبرتغال)، هاجر هؤلاء اليهود إلى بلدان الشرق العربي وخاصة الخاضعة للسلطة العثمانية، واستقروا حول البحر الأبيض المتوسط بعد سقوط الحكم العربي في الأندلس.

تكلم هؤلاء اليهود اللهجة الإسبانية القديمة (لادينو أو لاتيني) بعد فقدانهم للغتهم العبرية على يد الرومان عام 70م و135م.

كان تأثر اليهود السفارديم بالذوق العربي واضح جداً في إنشادهم وتراثيلهم وعباداتهم، وانفردوا بنوع خاص من النصوص النثرية والشعرية التي أدوها في أدعيتهم وصلواتهم⁽²⁾.

تبلغ نسبة السفارديم 23% أي أقل من نصف يهود العالم حالياً، بينما تمثل نسبة الأشكناز 77%، وفي وقتنا الحالي يعاني اليهود الشرقيين صنوفاً مختلفة من التفرقة العنصرية في ظل الكيان الصهيوني، فهم بمثابة الطبقة الوسطى بين العرب الفلسطينيين والأشكناز، حتى أن المناصب العليا في مؤسسات الكيان الصهيوني محرمة عليهم، وبمعنى آخر إن الصهاينة لا يعتبرون السفارديم يهوداً، وهجرتهم إلى فلسطين كانت بمثابة مفاجأة غير سارة لعدد من المفكرين الأشكناز⁽³⁾.

(1) همو، الفرق والمذاهب اليهودية.....، ص 136.

(2) السويلم، الفرق اليهودية.....، ص 198، 199.

(3) همو، الفرق والمذاهب اليهودية.....، ص 138، 139.

ورغم ذلك كله، ليقوموا بإرضاء الأشكناز يبدون تعصباً كبيراً ضد العرب والشرق، ويطلقون التصريح تلو الآخر ضد العرب كي لا يتهموا بأنهم يميلون إليهم⁽¹⁾.

وهكذا نجد، أنّ اليهود رغم أنهم يحاولون باستمرارٍ التظاهر بأنهم شعبٌ واحدٌ في دولةٍ واحدةٍ على أرضٍ واحدةٍ، إلا أنّ هذه الفرق والأجناس تبين مدى تنافرهم وتفرقهم واختلافهم الدفين.

رابعاً: الحركات الفكرية السياسية اليهودية:

1- يهود الدونمه:

أ- أصل كلمة الدونمه (لغة - اصطلاحاً):

• لغة:

(Donmeh) هي كلمة تركيةٌ عامية تتألف من مقطعين (دو) -فارسية الأصل- وتعني اثنين، و(نمه) وتعني نوع، فتصبح الكلمة الفرقة القائمة على نوعين اثنين من الأصول: النوع الإسلامي والنوع اليهودي، ثم عدل أبناؤها تسميتهم إلى فرقة (المؤمنين) و(المجاهدين) و(الرفاق)⁽²⁾.

كما أنها مشتقةٌ من الكلمة التركية (Donmek) أي العودة أو الارتداد أو الرجوع، وتقال للمرئد أو المتذبذب في المفهوم الاجتماعي، أما في المعنى الديني فهي المذهب الديني الجديد، بينما تطلق من الناحية السياسية على (اليهود المسلمين الذين لهم كياناتهم الخاص)⁽³⁾.

• اصطلاحاً:

كان لمصطلح الدونمه معنيان هما:

(1) همو، الفرق والمذاهب اليهودية.....، ص 140.

(2) حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات الفلسطينية، فلسطين، 1971م، ص 310.

(3) أحمد نوري النعيمي، الدور السياسي ليهود الدونمه في تركيا، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط1، 2001م، ص 81.

المعنى العام: تم استخدامه قبل القرن السابع عشر، ويعني التغيير أو التبديل في التركية القديمة، وقد أطلق على الشخص الذي لم يسبق له الإيمان بالدين الإسلامي ثم أسلم مصداقاً به اسم (المهتدي) وهو التعبير الذي رفضه الدونمه ولم يستخدمه أحدٌ منهم على الإطلاق، أما اسم (المرتد) فهو الشخص الذي يفضل العيش بدون دينٍ أو يتبع ديناً غير الإسلام.

المعنى الخاص: انتشر بعد القرن السابع عشر، كدلالةٍ على اليهود الذين يعيشون في سالونيك، مظهرين إسلامهم.

وتشير كلمة الدونمه إلى جماعةٍ من اليهود تشوّقوا إلى المسيح، وأرادوا العودة إلى مدينة القدس من أجل إعادة بناء معبد سليمان، ولدى اليهود يعرف الدونمه بمصطلح (مينيم) وتعني المنشقين عن طائفةٍ معينة، فضلاً عن تسمية الدونمه لأنفسهم بتسمياتٍ عديدةٍ مثل (مئاميم) أي المصدقين أو المؤمنين بسبتاي زيفي، (حبريم) الشركاء، (علّه) ملحمة، و(ملحمة) أي المجاهدون⁽¹⁾.

وهكذا يمكننا القول أنّ الدونمه هم طائفةٌ يهوديةٌ اعتنقت الإسلام ظاهرياً، واليهودية باطنياً وانتشرت في أنحاءٍ مختلفةٍ من الدولة العثمانية.

ب- المؤسس الحقيقي لليهود الدونمه (سبتاي زيفي):

ولد (سبتاي زيفي) في مدينة أزميز التركية في السابع من تموز عام 1626م لأبوين يهوديين، هاجروا من إسبانيا نتيجة الاضطهاد الديني ومحاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية⁽²⁾.

كان والده يدعى (موردخاي زيفي)، عمل بالتجارة وعرف بين الأوساط التركية في أزميز بلقب (المفتش الأسود)، لأنه كان وكيلاً لبعض الشركات الهولندية والإنكليزية، كان سبتاي الابن الأصغر لموردخاي زيفي من بين ثلاثة إخوة، وقد أوردت المصادر أسماءً عديدةً لسبتاي زيفي منها: (Sabatay Sewi) سبتاي سوي⁽³⁾.

(1) النعيمي، الدور السياسي.....، ص 81-83.

(2) محمد قطب، يهود الدونمه (أصلهم. نشأتهم. حقيقتهم)، المطبعة الفنية، القاهرة، دت، ص 9.

(3) محمود علي عامر، تاريخ الماسونية ويهود الدونمه، دار الصفدي، دمشق، ط2، 2007م، ص 159، 160.

(Sabatay Zebi) سبتاي زيبي، (Sabatay Levi) سبتاي ليفي، في حين ذكرته جريدة الطنين التركية باسم (Sabatay Sivi) سبتاي سيفي.

قام والده بإرساله إلى حلقات دينية سرية كانت تقيمها الحاخامية اليهودية، وكان الحاخام (إسحق إلبا) هو المشرف على حلقة أزمير، وقد تلقى سبتاي دروسه الدينية على يديه⁽¹⁾، ثم انتقل إلى دراسة التوراة والتلمود، وتعمق في دراسة القبالة⁽²⁾، حيث أجرى حساباته القبالية التي استنتج منها أن خلاص إسرائيل من الظلم الواقع عليها سيكون في عام 1648م، ومنذ ذلك الوقت أخذ يخلق لنفسه الأجواء المناسبة ليصل من خلالها إلى ادعاء النبوة⁽³⁾.

فقد واظب على الاغتسال والتعطر، واشتهر بين أصدقائه برائحته الذكية، أحب الاعتزال وأنشد المزامير وتغنى بالأشعار، كان شديد الذكاء كثير الاطلاع لذلك لم يتهم أبداً بالجهل⁽⁴⁾، تميز بسرعة بديهته ومعرفته لقواعد وأصول الدين، مما جعله يتغلب على منافسيه ويخدع المقربين إليه، فسر النصوص الدينية تفسيراً غريباً، حتى أنه حرّف بيتاً من الشعر وجعله يتفق مع أهوائه، فتحول من (حبيبي يشبه الغزال) إلى (ربي يشبه سبتاي زيبي).

ولما حلّ عام 1648م العام الموعود، نشر سبتاي بين أصدقائه المقربين أن النبوة قد نزلت عليه، وصدقوه واتبعوه بعد أن كان قد هياهم مسبقاً لذلك⁽⁵⁾.

(1) عامر، تاريخ الماسونية.....، ص 160،

(2) القبالة: معناها في العربية، نقلاً عن اليهودية، القبول أو التلقي للرواية الشفوية، وهي مصطلح يراد به التعليم الباطني المتعلق بالله والكائنات، كما قيل بأنها دعيت في مراحلها الأولى (الحكمة المستورة)، وأطلق على دارسيها (طلاب النعمة). للمزيد: فكتور مارسدن، بروتوكولات حكماء صهيون، دار الحرية، القاهرة، 2003م، ص 375.

(3) أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبلي، العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، 4 أجزاء، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998م، ج1، ص 222.

(4) عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية (دراسات في الحركات اليهودية الهدامة والسرية)، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م، ص 97.

(5) قطب، يهود الدونمه.....، ص 11.

لكن رجال الدين وفي مقدمتهم رئيس الحاخاميين في أزمير (جوزيف إيسكابا) ثاروا ضده، ووقفوا في وجه ادعاءاته، وشكلوا محكمةً أقرت بإعدامه ولكن دون جدوى، فقوانين الدولة العثمانية لا تسمح بذلك، استغل سبتاي هزيمة معارضييه وأصدر بياناً إلى اليهود جاء فيه:

"سلام من ابن الله (سبتاي زيفي) مسيح إسرائيل ومخلصها إلى كل فرد من بني إسرائيل:

لقد نلتُم شرف معاصرة مخلص بني إسرائيل ومنقذهم، الذي بشر به أنبيائنا وآباؤنا، فعليكم أن تجعلوا أحزانكم أفراحاً، وصيامكم إفطاراً ولهواً، فلن تحزنوا بعد اليوم.

فأعلنوا عن فرحكم بالطنبور والأورغ والموسيقى، واشكروا الذي وعدكم فوفى بوعده، وواظبوا على عبادتكم كما في السابق، أما أيام المصائب والمآثم فاجعلوها بسبب بعثتي (نبؤتي) أيام شكرٍ ومسرةٍ، ولا تهابوا شيئاً، فإن حكمكم لن يقتصر على أمم الأرض بل سيتعداها إلى جميع المخلوقات في أعماق البحار، فكل هؤلاء مسخرون لكم ولرفاهيتكم"⁽¹⁾.

وبذلك يكون هذا البيان، بمثابة الخطوة الأولى التمهيدية التي اتبعتها سبتاي زيفي للوصول إلى اليوم الموعود عند أغلبية الناس في عام 1666م.

وفيما يخص حياته الاجتماعية فقد ذكرت المصادر أن سبتاي تزوج وهو في الثانية والعشرين من عمره من امرأة لم يمسها وطلقها بعد مدة قصيرة، وتزوج امرأة ثانية لم يكن مصيرها أفضل من سابقتها فقد طلقها بعد بضعة أيام ولم يمسها أيضاً، وليضفي على نفسه نوعاً من الطهارة والتبجيل، برر ذلك بادعائه أن الروح القدس أوحى إليه أنه لم يحن زواجه بعد من المرأة المناسبة، ثم تزوج في عام 1664م من امرأة بولونية تدعى (ساره) حاولت استغلال ادعائه بأنه المسيح المنتظر، ونشرت بين اليهود أنها شاهدت رؤيا فيها نورٌ سيسطع عليها وعلى العالم عام 1666م، والمسيح الذي سيظهر في هذا العام سوف يتزوجها، واستغل سبتاي هذه الفرصة وأعلن رؤياه المتوافقة مع ما ذكرته ساره، وعدّ هذا الزواج من معجزاته، وبعد وفاتها تزوج من امرأة من سالونيك تدعى (يوهيفيد)، ومنحها اسم عائشه⁽²⁾.

(1) قطب، يهود الدونمه.....، ص 11، 12.

(2) محمد حمدان، الجماعات اليهودية في تركيا وأثرها على المجتمع التركي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2009م، ص 93.

وليؤكد مسيحيته أعلن أنه تزوج التوراة (عروس الإله)، وما لبث بعدها أن غادر أزمير متوجهاً إلى سالونيك ثم استانبول حيث قضى فيها بضعة أشهر وهو يبيث دعوته، معلناً بطلان كل النواميس والشرعية المكتوبة (التوراة) والشرعية الشفوية (التلمود)، بعد ذلك انتقل إلى القاهرة ثم رحل إلى فلسطين.

ونتيجة تعطش اليهود لهذه الأفكار نجده يلقي الدعم من اليهودي الأشكنازي (نيثان الغزاوي) الذي بشر به على أنه المسيح المنتظر، وفي أيار 1665م دخل سبتاي إلى القدس، وأعلن أنه المتحكم في مصير العالم كله، وكما هو متوقع من المسيح طاف مدينة القدس سبع مراتٍ على ظهر فرسٍ، وقد عارضه كهان المدينة وطرده منها⁽¹⁾.

ج- إعلان سبتاي زيفي لنبوءته (اليوم الموعود):

عاد سبتاي إلى أزمير في أيلول عام 1666م، ومن لحظة وصوله لم تتوقف صيحات معارضة الحاخاميين ضده، لكنه بذكائه استطاع الانتصار عليهم عندما استغل وجود العيد معلناً عن دعوته، فاستجاب له الكثير من الأنصار والتف حوله المؤيدون، ولم تمض فترة قصيرة حتى أضحى أكثرية يهود أزمير طوع إشارته، وأخذت شهرته تغزو البلاد طويلاً وعرضاً، كما بدأت الوفود تقصده من كل مكانٍ صوفياً، أدرنه، رودوس، وألمانيا⁽²⁾.

وقلّدت بناءً على مراسم خاصة تاج (ملك الملوك)، ومنذ ذلك الوقت أحاط نفسه بهالة معيّنة من النظم والتقاليد، فأصبح زواره يحتاجون إلى مواعيد ومراسيم فرضها عليهم ليتمكنوا من مقابله، وقد أشارت العديد من المصادر إلى أنه كان أكثر شغفاً واستقبالاً لزواره النساء.

قسّم سبتاي العالم إلى (38) قسماً، وجعل لكل قسمٍ منها ملكاً يحكمها ويدير شؤونها، كما عمل على تغيير التقاليد اليهودية حسب تعاليمه الجديدة⁽³⁾.

(1) المسيري، اليد الخفية.....، ص 97، 98.

(2) مصطفى طوران، يهود الدونمه، ترجمة كمال خوجه، دار السلام، الأزهر، ط1، 1977م، ص 10.

(3) محمد قطب، يهود الدونمه في تركيا (الأصل. النشأة. الحقيقة. الخطر)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م، ص 28.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل أصبحت رسائله إلى أتباعه تحمل في نهايتها توقيعاً باسم (ابن الله الأول والوحيد (سبتاي زيفي))⁽¹⁾.

كان سبتاي زيفي متفهماً لأبناء جلدته وطريقة تفكيرهم وتفوقه ملحوظٌ عليهم، فاستغل ذلك أحسن استغلال من خلال كتاب سماه (سر العقيدة الصحيحة)، أملاه على أتباعه بعد أن شرح فيه أصول دعوته التي جاء فيها:

أن الإيمان يجب أن يتجلى بوجود إلهين واحدٌ لليهود وآخر للعالمين، كما كان ينشر بين تلاميذه فكرة الاعتقاد بحضور الله في الشعب، وهي ما عرفت باسم (الشخيناه)، وكان يقول أيضاً:

" إن رب العالمين هو العلة الأولى، ومنه كان إله إسرائيل، العلة الثانية، وبنعمته -أي إله إسرائيل- كان الوجود والموجودات".

وبلغ تمادي سبتاي زيفي إلى إلغاء الدعاء للخليفة العثماني الذي كان يتلى في المعابد اليهودية، واستبداله بالدعاء لنفسه باعتباره ملكاً على اليهود ومخلصاً لهم، وأصبح يعرف باسم (سلطان السلاطين) و (سليمان بن داود)⁽²⁾.

ورغم أن الدولة العثمانية كانت قد منحت الأقليات الحرية الدينية، إلا أن أعمال سبتاي زيفي فاقت كل الحدود، فضلاً عن كثرة الشكاوى المقدمة ضده من قبل الحاخامات، فلم يعد بإمكان السلطات العثمانية غض الطرف عن تصرفاته وتصرفات مؤيديه، وخاصةً بعد تقديم قاضي أزميز شكوى ضده، فصدرت الأوامر باعتقاله وإرساله إلى استانبول، حيث أدخل إلى سجن (زندان قابي)، وما لبث أن تحول هذا السجن إلى شبه بلاط ملكي، بسبب إقبال الوفود لزيارته من جميع أنحاء المدن، وقد فاق عددهم قدرة السجن على الاستيعاب، فما كان من السلطات إلا أن نقلته إلى سجن (جناق قلعه)، وفي هذا الوقت ظهر حاخامٌ يهودي يدعى (ناحيم كوهين) في (بولونيا)، ادعى أيضاً أنه المسيح المنتظر، عرف بذكائه وتعمقه في علم التنجيم واستحضار الأرواح⁽³⁾.

(1) قطب، يهود الدونمه في تركيا.....، ص 28.

(2) حمدان، الجماعات اليهودية في تركيا.....، ص 96، 97.

(3) عامر، تاريخ الماسونية.....، ص 173، 174.

عدا عن اطلاعه الواسع على معظم الكتب الدينية اليهودية، قام بزيارة سبتاي في السجن وحاول اقتسام النبوة معه، استمر حوارهما ثلاثة أيام، ولم ينتهي إلا بوقوع شجارٍ حادٍ مليءٍ بالتهديد والوعيد من (ناحيم كوهين)، الذي اشتكى للسلطات العثمانية عن نية سبتاي زيفي الذي يحرض على الفتنة بإنشاء دولةٍ يهودية داخل كيان الإمبراطورية⁽¹⁾.

لم يستطع (ناحيم كوهين) أن يضعف شعبية ونفوذ سبتاي زيفي، وعادت الوفود تتوجه إلى (جناق قلعه) لزيارته، وكان حراس السجن يحصلون على رشاي ماليه من هؤلاء الزوار ليغضوا الطرف عنهم، لكن أمرهم انكشف في النهاية نتيجة ارتفاع الأسعار، ونقص المواد في المدينة، ولكي تحل الدولة هذه الظاهرة المتأزمة نقلته إلى قصر أدرنه⁽²⁾.

وهناك استدعاه السلطان العثماني (محمد الرابع)، للمحاكمة أمام لجنةٍ علميةٍ تتكون من الصدر الأعظم (مصطفى باشا)، وشيخ الإسلام (يحيى أفندي زاده)، وطبيب القصر (مصطفى حياتي) الذي ترجم الكلام بين الطرفين من الاسبانية إلى التركية وبالعكس⁽³⁾.

وفي أثناء المحاكمة طلبوا منه إثبات نبوءته، تاركين له الفرصة لتقديم معجزته، وذلك من خلال تجريده من الثياب، وجعله هدفاً لأمهر رماة الأسهم في الدولة، فإن استطاع إبعاد السهام ولم تدخل في جسده، فسيعتبره السلطان صادقاً في ادعائه وسينادي به مسيحاً لليهود، فما كان منه إلا أن أنكر جميع التهم الموجهة إليه⁽⁴⁾، بعد ذلك عُرض عليه (الإسلام) بأمرٍ من السلطان، فوجده خير وسيلةٍ لإنقاذ نفسه من موتٍ محتّمٍ، وسارع إلى إعلان توبته واعتناقه للإسلام في 15 أيلول 1666م، أشاع أتباعه فيما بعد أن "شخصية سبتاي عرجت إلى السماء، وحلّ محلّها بأمر الله مسيحٌ يرتد ثوب مسلم"⁽⁵⁾.

(1) عامر، تاريخ الماسونية.....، ص 174.

(2) طوران، يهود، ص 13، 14.

(3) هدى درويش، حقيقة يهود الدونمه في تركيا (وثائق جديدة)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط1، 2003م، ص 23.

(4) طوران، يهود، ص 14، 15.

(5) درويش، حقيقة يهود الدونمه.....، ص 23.

وهكذا انتقل سبتاي من شخصية المسيح المزيف إلى شخصية المسلم المزيف المعروف باسم (محمد عزيز أفندي)، وكافأه السلطان بمنحه منصب رئيس البوابين، ونرى تسامح السلطان مع شخص مثل سبتاي يشكل تهديداً حقيقياً على كيان الدولة العثمانية، هو أكبر دليل على مقدار الحرية الدينية والامتيازات التي تمتع بها أهل الذمة في ظل الدولة العثمانية، ورغم ذلك فإن سبتاي لم يرتدع بعد هذه الحادثة، وتابع مشروعه بتوجيه بيانٍ إلى أنصاره قال فيه:

" جعلني الله مسلماً، أنا أخوكم محمد البواب، هكذا أمرني، وأطعت"، ثم تبعه ببيانٍ آخر قال فيه: " الآن ألحقوني بنسل إسماعيل"(1).

وهكذا تمكن من إيصال رسالته إلى اليهود من جديد، ولم يبق أمامه سوى إعادة جمعهم حوله، فتقدم إلى الحكومة العثمانية يطلب منها السماح له بنشر الإسلام بين اليهود، وعندما حصل على موافقتها تحرك لنشر منهجه الجديد، وقد نجح بإدخال عددٍ كبيرٍ من اليهود في الإسلام وفقاً لهذا المنهج، الذي يعتمد على الاستمرار باطنياً في ممارسة عاداتهم وشعائرهم الخاصة بهم من لباس، أعياد، مدارس، ومقابر، بينما ظاهرياً عليهم تأدية الطقوس الإسلامية المتمثلة بالصوم، الصلاة، الحج والزكاة، كما صار لكل واحدٍ منهم اسمان اسمٌ إسلاميٌّ عام وآخرٌ يهوديٌّ خاص(2).

ومن هنا جاءت تسمية الأتراك لهم باسم (الدونمه) بمعنى العودة والارتداد، فمن تبين صدق إسلامه عدّ مرتداً عن اليهودية، ومن دارت الشكوك حوله عدّ مرتداً منافقاً(3).

وهنا يمكننا القول أنّ ابتداع سبتاي زيفي لهذه الطريقة القائمة على الإسلام ظاهرياً واليهودية باطنياً، ساعدته بشكلٍ كبيرٍ على ضمان استمرار دعوته وانتشارها على نطاقٍ أوسع مما كانت عليه سابقاً، كما استطاع من خلالها خداع الدولة العثمانية لسنواتٍ عديدةٍ بحنكةٍ وذكاءٍ لا بدّ أن نشهد بهما.

(1) درويش، حقيقة يهود الدونمه.....، ص 23.

(2) إلهام محمود كاظم، دور يهود الدونمه في انهيار الدولة العثمانية، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 7، جامعة بابل، أيار / 2012م، ص 159.

(3) محمود علي التائب، الجمعية اليهودية السرية في مختلف صورها، دار اقرأ، بنغازي، 1990م، ص 24.

عمد سبتاي زيفي بعد ذلك إلى تنظيم عقائد أنصاره من خلال أوامر مكتوبة بشكلٍ سري، بلغ عددها ثمانية عشر أمراً سنذكر منها ما يلي:

"2- الثاني: هو الإيمان بأن مسيح الله هو المسيح الحق، ولا مخلص غيره وهو سيدنا وملكننا (سبتاي زيفي)، وأنه من نسل داود فليزدد شرفه.

3- الثالث: هو ألا نقسم بالله أو بمسيحه كذباً، لأن اسم الله مندرج فيه أيضاً، ويجب ألا نعمل على تحقيره.

4- الرابع: هو أنه كما يعظم اسم الله عند ذكره، لابد من تعظيم اسم كل شخصٍ ممتازٍ بين أقرانه بعلمه.

5- الخامس: يجب تناقل وشرح ودراسة سر المسيح من مجتمعٍ إلى مجتمع.

7- السابع: أن يجتمع كل الاتباع في بيتٍ من البيوت في اليوم السادس عشر من شهر (كيسلف) -الشهر التاسع من السنة الميلادية- ويتداولوا فيما بينهم ما سمعوه عن المسيح وعن سر الإيمان بالمسيح.

12- الثاني عشر: هو الاحتفال بسرورٍ بالغٍ بالعيد الواقع في السادس عشر من شهر (كيسلف) -الشهر التاسع من السنة الميلادية- وهو 16 ربيع الأول الذي أسلم فيه سبتاي زيفي في سراي أدرنه.

14- الرابع عشر: قراءة مزامير داود سراً كل يوم.

16- السادس عشر: يجب مراعاة عادات الأتراك ذراً للرماد في عيونهم، ويجب عدم إظهار الضيق بصوم رمضان أو عند تقديم الأضحية، ويجب المحافظة على جميع المظاهر.

17- السابع عشر: يمنع الزواج من المسلمين⁽¹⁾.

(1) خليل إبراهيم حسونه، الماسونية قديماً وحديثاً، مكتب الإعلام والبحوث والنشر، طرابلس- ليبيا، ط1، 1994م، ص 209، 210.

اكتشفت الحكومة العثمانية في النهاية عدم صدق سبتاي زيفي ونفاقه الكبير، وحكمت عليه بالنفي مع عددٍ من أتباعه المقربين إلى قرية (برات) في (ألبانيا)، وهناك توفي في يوم 30 أيلول 1675م، ولم يتجاوز عمره 49 سنةً، ودفن على ضفة أحد الأنهار فيها، ولا يزال أتباعه يقفون على ضفاف الأنهار ويرددون: "سبتاي زيفي إننا ننتظرك"(1).

د- انقسامات الدونمه بعد موت مؤسسها:

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ يهود الدونمه بعد وفاة سبتاي زيفي، فلم يكن موته سبباً في نهايتهم، بل على العكس استطاعت زوجته (يوهيفيد) بعد انتقالها إلى مسقط رأسها مع والدها (يوسف بيلوسوف) وشقيقها (يعقوب كوريدو)، أن تجمع من جديد أتباع زوجها الذين تجاوز عددهم (200) أسرة، مضافاً إليهم اليهود القادمون من أرجاء أوروبا المختلفة، ولكن حول شخص شقيقها، بعد تأكيدها على أن سبتاي أعطاه الخلافة من بعده(2)، ومن هنا بدأ انشطار مؤيدي سبتاي وأنصاره إلى فرقٍ عدةٍ أهمها:

1- فرقة اليعقوبيين:

سميت هذه الفرقة بهذا الاسم نسبةً إلى مؤسسها (يعقوب كوريدو) أو (يعقوب جليبي) - شقيق يوهيفيد- والذي ادعى أنه الممثل الشرعي والوحيد لسبتاي زيفي، وأن روحه انتقلت إليه، فأصبح لقبه (يعقوب زيفي)، وكي يحافظ على فرقته من أعين السلطات، نجده ينتقل بين أتباعه ويدعوهم إلى اتباع العادات الإسلامية الظاهرية، وينجح في جعل (300) عائلة يهودية تعلن إسلامها في أحد مساجد سالونيك، ويقوم بالذهاب إلى الحج لكنه يموت في طريق عودته عام 1690م(3).

عمل يعقوب على تقسيم فرقته إلى قسمين: القسم الأول يشمل أغنياء اليهود، والثاني(4)

(1) النائب، الجمعية اليهودية السرية.....، ص 30.

(2) أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006م، ص 46.

(3) جعفر هادي حسن، فرقة الدونمه بين اليهودية والإسلام، مؤسسة الفجر، بيروت، ط3، 1988م، ص 104، 105.

(4) درويش، حقيقة يهود الدونمه.....، ص 28.

يشمل الفقراء، ولكلٍ منهم ملابسه الخاصة⁽¹⁾، كان رجالهم حاسري الرأس، يحلقون شعرهم بالكامل ويطيّلون لحاهم، اشتهروا أيضاً بأنوفهم الدقيقة والطويلة، وأجسامهم النحيفة⁽²⁾، أما نساءهم فيضفرن شعرهن.

تأثر اليعاقبة بالأفكار الصوفية وخاصة الطريقة الملامتية⁽³⁾، وكانت المساعدات المعنوية والمادية تصلهم باستمرار من أصحاب الطريقتين المولوية⁽⁴⁾ والبكتاشية⁽⁵⁾.

قام اليعاقبة بتأسيس مجلةٍ عرفت باسم (نموجة الأدب) بمعنى (برعمة الأدب)، مقرها في سالونيك، كما جعلوا لأنفسهم مزاراً خاصاً ونظماً معيناً في عمليات البيع والشراء، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد امتلكوا مدارس خاصة أسسوها بأنفسهم⁽⁶⁾.

(1) درويش، حقيقة يهود الدونمه.....، ص 28.

(2) حسن، فرقة الدونمه.....، ص 104.

(3) الملامتية: فرقة متميزة من فرق زهاد المسلمين، لها طابعها الخاص وحياتها الروحية الخاصة، بالرغم من أنهم يُعتبرون عادةً من بين طوائف الصوفية، وقد تنبه إلى الفروق الواضحة بين الملامتي والصوفي بعض رجال التصوف ومؤرخيهم كالسلمي وابن عربي. للمزيد: أبو العلا عفيفي، الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، منشورات الجمل، بيروت، 2015م، ص 20.

(4) المولوية: الدراويش المولوية أو الدراويش الراقصون، ينسبون إلى الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي صاحب المثنوى والمتوفى سنة 604هـ بفونية تركيا، والتاريخ الحق لهذه الطريقة يبدأ بولده الأكبر المسمى سلطان ولد، فهو الذي أنشأ الفروع الأولى للطريقة. للمزيد: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية (أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية)، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1992م، ص 380.

(5) البكتاشية: تنسب إلى بكتاش ولي، يروي عنه أتباعه أساطير، وهذه الطريقة لها صلة بالانكشارية -جيش الدولة العثمانية-، وقد انتشرت في تركيا، وكردستان وآسيا الصغرى، وفي ألبانيا، يعتبرها أتباعها طريقة صوفية، إلا أن فيها عقائد نصرانية، ورافضية، فيغلون في آل البيت. للمزيد: عبد الله بن دجين السهلي، الطرق الصوفية (نشأتها وعقائدها وآثارها)، دار كنوز إشبيلية، الرياض، ط1، 2005م، ص 94.

(6) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 92، 93.

كمدرسة (فيزي بك)، ومعاهد (البوغاز) في استانبول، فضلاً عن اتباعهم مذهب القبالة في تعاليمهم الدينية، وتقلدهم مناصباً مهمة في الدولة كأمين الترسانة، وكتخدا المدينة والقصر السلطاني -قائد الشرطه- وغيرها(1).

أما بالنسبة لمعتقداتهم الأساسية فهي على النحو الآتي:

- يؤدون الطلاق على عكس عقيدة سبتاي زيفي.
- يتم تقسيم الميراث بين الرجل والمرأة بالتساوي (لها النصف).
- تمنع النساء منعاً باتاً من التبرج والتزين للغرباء.
- الالتزام بالأوامر الإسلامية ظاهرياً مع الذهاب إلى الحج.
- يجب على المرأة ارتداء الملابس البيضاء بدلاً من السوداء.
- إطاعة رئيسهم (يعقوب) إطاعة مطلقة.
- إجراء الختان وفق العادات الإسلامية، وفي اليوم الثامن من ولادة الطفل.
- لا يسمح بالتعرف على أسرار الجماعة إلا بعد الزواج.
- الإخلاص للطقوس والعبادات اليهودية، باستثناء إيقاد النار في يوم السبت (كي لا يكشف أمرهم).
- تتم قراءة الأدعية باللغة العبرية واللاتينية والإسبانية حصراً(2).

2- فرقة القره قاشيون:

ينسب القره قاشيون إلى (باروخيا روسو) الذي يعرف باللغة التركية باسم (مصطفى جلبي)(3)، وقد انفصل مع جماعته عن اليعقوبيين، بعد أن اختلفوا حول ممارسة بعض الأحكام الإسلامية(4).

(1) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 93.

(2) النعيمي، الدولة العثمانية.....، ص 49.

(3) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 7 أجزاء، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999م، ج5، ص 306.

(4) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 93.

ولإضافة المصادقية على هذه الجماعة، ادعى زعيمها مصطفى أن روح المسيح سبتاي انتقلت إلى جسد طفلٍ يسمى (عثمان)، ولد بعد تسعة أشهرٍ من موت سبتاي، وعندما بلغ الأربعين قاموا بإعلانه (مسيحاً)، ورفعوه إلى مرتبة الألوهية.

وقد عرفت فرقته بأنها من أكثر فرق الدونمه تطرفاً بسبب عدميتهم الدينية، بعد تحويل مصطفى البنود الستة والثلاثين المحظورة في التوراة إلى أوامر واجبة الطاعة، أي أنه قام بقلب القيم اليهودية المتوارثة من عهد سبتاي⁽¹⁾.

حملت هذه الفرقة أسماءً عديدةً مثل (ذوي الحواجب السود)، أو (Karakaşlar) بمعنى أصحاب الأنوف الفطس⁽²⁾، فيما أطلق عليهم أعداءهم اسم (Onyoloü) أي أصحاب الطرق العشر أو الحيل العشر، وذلك لاتهامهم بإضافة تعاليم من عقائد أخرى إلى عقيدتهم، فغدت كأنها مستمدة من عشر عقائد.

تميز رجال هذه الفرقة بأنهم لا يحلقون شعر رؤوسهم ويطلقون لحاهم، كما أن رجال دينهم يضعون إشارة خضراء على ملابسهم، لم يكن أفرادها ميسوري الحال بل كانوا من أكثر أتباع الدونمه فقراً - عمالاً، حاكّة، واسكافيين - أي حرفيين، ولم تتحسن أوضاعهم إلا بعد أن انفتحوا على المجتمع التركي فأصبحوا من كبار التجار وخاصة في الأقمشه⁽³⁾.

3- فرقة إبراهيم آغا (القبانجلر):

انفصلت هذه الفرقة عن القره قاشيين على يد (إبراهيم آغا)، الذي سميت الجماعة باسمه، وذلك بعد معارضتهم الشديدة لمسيحية (عثمان)، ومطالبتهم بفتح مقبرته ليتأكدوا أن جسده سليم ولم يفسد حتى يؤمنوا به⁽⁴⁾.

سميت هذه الفرقة بأسماءٍ عديدةٍ مثل (القبندجي)، و(كغار يوس) أي الفرسان⁽⁵⁾،

(1) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 93، 94.

(2) النعيمي، الدولة العثمانية.....، ص 50.

(3) حسن، فرقة الدونمه.....، ص 106، 107.

(4) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 94.

(5) حسن، فرقة الدونمه.....، ص 107.

و(أليابولارس) وتعني القدماء أو الأنصار الحقيقيين، كما لقبوا أنفسهم بـ (الأزميريين)، تأكيداً منهم على ارتباطهم بسبتاي، وكان أفرادها يطبقون مبادئه بحرفيتها، ويرفضون مسيحية كلٍ من يعقوب ومصطفى، ولا يعترفون إلا بسبتاي زيفي فقط، عاشوا في أحياءٍ خاصةٍ بهم، وكان أغلب أفرادهم من المثقفين فهم يمثلون أثرياء اليهود⁽¹⁾.

كان لديهم نشاطٌ ملحوظٌ في مختلف المجالات التجارية، الصناعية، التعليمية، وأعمال الصرافة، ومن المعروف عن هذه الفرقة أنها أثرت تأثيراً مباشراً في أنظمة الدولة، إضافةً إلى تأثيرها في عهد أتاتورك⁽²⁾.

وهكذا نجد أن هذه المجموعات الثلاث تفرّعت عن الدونمه بعد وفاة مؤسسها سبتاي، كل مجموعة عاشت بمعزلٍ عن الأخرى، وحاولت بكافة الوسائل ضرب مصداقية سابقتها، وذلك من خلال تغيير بعض العقائد المتبعة بينهم، ورغم ذلك نلاحظ أن هذه المجموعات بقيت مجتمعةً حول عنصرٍ مهمٍ وهو المحافظة على المبادئ العامة للطائفة التي وضعها مسيحهم سبتاي.

لا نستطيع تقديم أعدادٍ دقيقةٍ للدونمه، لكن المصادر تقدر عددهم بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً قبل عام 1914م أي قبل الحرب العالمية الأولى، ومن الصعب إحصاء عددهم بعد هذا التاريخ، بسبب تفرقهم وهجرتهم من سالونيك -كونهم مسلمين اسمياً- نتيجة اتفاقية تبادل السكان التي وقعتا الجمهورية التركية مع اليونان عام 1924م⁽³⁾، والتي سنشرح تفاصيلها في الفصل التالي.

هـ أعياد الدونمه:

تختلف أعياد الدونمه عن بقية أعياد اليهود، لأن أغلبها يتصل بأحداثٍ لها علاقةٌ وثيقةٌ بمؤسس طائفتهم سبتاي، ورغم قدسية هذه الأعياد بالنسبة لهم، نجدهم حريصين على الاحتفال بها ولكن دون التوقف عن العمل، تجنباً لإثارة الشبهات حولهم⁽⁴⁾.

(1) حسن، فرقة الدونمه.....، ص 107.

(2) درويش، حقيقة يهود الدونمه.....، ص 29.

(3) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية.....، ج5، ص 306.

(4) حسن، فرقة الدونمه.....، ص 95.

ومن هذه الأعياد:

- 14 سيوان (أيلول): يعرف باسم موعد (صمخ) وهو عيد (الثمار أو الزرع).
- 17 سيوان: وهو اليوم الذي أعلن فيه سبتاي أنه المسيح المنتظر عام 1665م.
- 21 سيوان: يعتقدون أن هذا اليوم قد اختير فيه سبتاي من قبل النبي (إلياهو) عام (1648م).
- 9 تموز: هو يوم نزول الوحي على سبتاي، وتبشيره بأنه المسيح.
- 17 تموز: هو يوم الإنارة وتجديد روح سبتاي، كان يوم صيام عند اليهود، لكن سبتاي حوَّله إلى عيد.
- 23 تموز: يُعرف بعيد الأنوار، أمر فيه سبتاي بإشعال 18 نوراً في كل بيت من بيوت أتباعه.
- 15 آب: أصبح سبتاي في هذا اليوم ملكاً، لذلك يعتبر عيداً.
- 16 كسلو (آذار): حسب تقاليد اليهود أعلن سبتاي اعتناقه الإسلام في هذا اليوم⁽¹⁾.

أما أهم أعيادهم على الإطلاق فيقام في 22 آذار ويعرف باسم (وليمة الخروف أو عيد إطفاء الشموع): تتم طقوس هذا العيد في الليل، ويكون لحم الخروف الوجبة الرئيسية فيه، فهو يؤكل للمرة الأولى في العام الجديد، وهناك مراسيم خاصة يجب اتباعها من أجل ذلك، كضرورة وجود رجلان وامرأتان على الأقل في الحفلة الواحدة، مع قابلية زيادة العدد شريطة تساوي الجنسين، ويجب على كل امرأه أن ترتدي أفخر الأنواع من الثياب والحلي، وتشارك في إعداد الطعام على الطاولة، بعد ذلك يبدأ المرح واللهو وتطفأ الأنوار في وقتٍ محددٍ، ويعم الظلام في المكان وتجري عملية تبادل الزوجات، وكل مولود يولد نتيجة هذه الليلة يمتلك قدسية خاصة -يعتقدون أن سبتاي يحضر هذا العيد- وتشير المصادر إلى أن هذا العيد لا يزال يحتفل به إلى يومنا هذا، وخاصةً عند فرقة القره قاشيين، وقد أكد ذلك أحد أفراد الدونمه عندما تحدث عن هذا العيد في مجلة (الدنيا المصورة)⁽²⁾:

(1) حسن، فرقة الدونمه.....، ص 95- 98.

(2) موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض، دار الكويت للصحافة (الأنباء)، الكويت، 1984م، ص 248.

"أعتقد أن الاحتفال بإطفاء الأنوار ما يزال من العادات المنبثقة لدى القره قاش، وأغلب ظني أن العائلة التي أنا منها كانت إلى عهد قريب تمارس هذه العادة، ولم أشارك في أي احتفال كهذا بسبب كوني عازباً، ولما أظهرت رغبةً في حضور الاحتفال منعوني وقالوا: (إن هذا الاحتفال للمتزوجين فقط)"(1).

من المحتمل أن يكون هذا العيد بمثابة الأمل الذي يعيش عليه يهود الدونمه، وربما اعتقدوا أن إكثار الذنوب وإباحة المحارم، سيكون سبباً في ظهور المسيح (سبتاي زيفي)، وعودته من جديد، مستنديين في ذلك إلى ما هو متعارفٌ عليه عبر التاريخ بأن ظهور الأنبياء مقترنٌ بكثرة الذنوب والخطايا بين البشر.

و- عادات لا تزال متبعةً عند الدونمه:

ذكرت المصادر مجموعة من العادات، استمرت طائفة الدونمه بمزاولتها حتى الوقت الحاضر وهي:

- في ذكرى فداء إسحاق أي في اليوم الأول من السنة الميلادية، يذبح الخروف ويؤكل لحمه.
- استمر الرجال اليعقوبيين بحلق شعرهم بالموس، مقابل تجديد النساء لشعرهن إلى ضفائرٍ رفيعةٍ.
- لكل فردٍ من الدونمه اسمان الأول إسلامي والثاني يهودي.
- الالتحاء.
- لا يجوز تناول لحم الخروف إلا في أول كل سنةٍ، وبعد ممارسة الطقوس الخاصة به، ومن يأكله في غير أوانه يعرض نفسه للموت.
- منع أفراد الدونمه منعاً باتاً من إقامة علاقةٍ جنسيةٍ مع امرأةٍ لا تنتمي إلى الدونمه، ومن يقوم بذلك يعتبر من أهل النار.
- لا يجوز أن يبادر الدونمه بأداء التحية لغيرهم.
- الذهاب باستمرارٍ إلى ضفة النهر، أو ساحل البحر والمناداة بما يلي:
(سبتاي زيفي نحن بانتظارك)(2).

(1) المرجة، صحوة الرجل.....، ص 249.

(2) طوران، يهود، ص 33، 34.

2- الصهيونية:—————

تميزت الصهيونية العالمية بأنها حركة استعمارية ديناميكية نشطة، هدفها الرئيس الحفاظ على التوافق والترابط الدائم بين أفكار الماضي والحاضر ومخططات المستقبل، ولقد اعتمدت في قيامها على الفلسفة المستمدة من الفكر اليهودي المتغير وفق الحاجات والظروف، وقد استهدفت هذه الحركة باعتبارها منظمةً تنظيمياً مركزياً عالمياً، استعمار أرض العرب من النيل إلى الفرات، وإخراج أهلها منها واستبدالهم بقوم من أجناس مختلفة تقدم الولاء لدولة إسرائيل، فتخضع لأوامرها جماهير اليهود المنتشرة في الدول المجاورة.⁽¹⁾

وإن كلمة (صهيون) في التراث الديني اليهودي، تشير إلى جبل (صهيون) والقدس بل إلى الأراضي المقدسة، ويعتبر اليهود أنفسهم (بنت صهيون)، والواضح أن المحور الأساسي في النسق الديني اليهودي هو فكرة العودة إلى (صهيون)، فأتباع هذه العقيدة لديهم إيمان كبير بأن المسيح المخلص سيعود ليوصل شعبه إلى (صهيون) -الأرض، العاصمة- في آخر الأيام، ويتولى حكم العالم فينشر الرخاء والعدل، كما أن الرب وحده هو الذي يحدد وقت وطريقة العودة إلى أرض الميعاد وليس البشر، وما يحدث اليوم لا يمت بأية صلة إلى الاستيطان الصهيوني المادي والفعلي الواجب حدوثه في فلسطين، ويمكننا القول أنه في أواخر القرن التاسع عشر وبسبب تفاقم المسألة اليهودية، بدأت النزعات الصهيونية بالظهور بين اليهود، وتجلت على شكل مساعداتٍ دفعها يهود الغرب الأثرياء إلى جمعياتٍ توطينيةٍ مختلفةٍ، تعمل على توطين يهود أوروبا الشرقية في أي بلدٍ (بما فيهم فلسطين)، خوفاً من هجرتهم إلى أوروبا الغربية، ومن أشهر هذه الجمعيات (حبات صهيون)⁽²⁾، التي حاولت الاستيطان في فلسطين عن طريق التسلل إليها خفية⁽³⁾.

(1) محمود دياب، الصهيونية العالمية والرد على الفكر الصهيوني المعاصر، مطبوعات الشعب، د.م، د.ت، ص 13.

(2) حبات صهيون: وهي تعني أحباء أو عشاق صهيون، أشهر روادها (سيمحا بينكر) هو باعث الصهيونية الحديثة، وقد استهدفت حركة حبات صهيون الحفاظ على القومية اليهودية، وتذكير اليهود بأنهم غرباء منفيون في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها. للمزيد: إبراهيم الحارتي، الصهيونية من بابل إلى بوش، دار البشير، مصر، د.ت، ص 125، 126.

(3) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية.....، ج6، ص 14، 15.

وقد تبلور المفهوم الصهيوني في (المؤتمر الصهيوني الأول 1897م)، من خلال تصريح المفكر اليهودي (بير نباوم) بأن الشعب والعرق والقومية، تعتبر في نظر الصهيونية شيئاً واحداً، إضافةً إلى تغير معنى تعريف (الشعب اليهودي) من جماعة دينية إثنية، إلى جماعة عرقية الجانب الديني مستبعدٌ منها، فأصبحت الصهيونية بناءً على ذلك، دعوةً قوميةً يهوديةً استبدلت الدين اليهودي بسماتٍ عرقيةٍ يهوديةٍ كقيمةٍ نهائيةٍ مطلقةٍ لها، وجردت اليهودية من كل المعتقدات المتصلة بالمسيح وعجائبه، لأنها حاولت الوصول إلى غايتها -إقامة وطنٍ قوميٍّ لليهود في فلسطين- عن طريق العمل السياسي المنظم لا عن طريق الصدقات(1).

وقد تجسدت هذه الدعوة عن طريق الحركة السياسية التي أنشأها (تيودور هرتزل)(2)، الذي شكل حجر الأساس في انطلاق الحركة الصهيونية(3).

فالصهيونية واليهودية توأمان لا يمكن أن يفترقا، ومهما حاول اليهود الادعاء بأن اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر، فإن جميع الأحداث والوقائع التي أثبتتها التاريخ تؤكد مدى ارتباطهما واتصالهما الوثيق، بمعنى آخر هما وجهان لعملةٍ واحدةٍ.

أما بالنسبة لمصطلح الماسونية، فسنقوم بشرح معناه تجنباً للربط الحاصل حوله حيث أن: "الماسونية جمعيةٌ سريةٌ هدامةٌ، لها صلةٌ وثيقةٌ بالصهيونية العالمية التي تحركها وتدفعها لخدمة أغراضها، وتتستر تحت شعاراتٍ خداعةٍ، كالحرية والإخاء والمساواة وما إلى ذلك، مما أوقع في شباكه كثير من المسلمين وقادة البلاد وأهل الفكر"(4).

(1) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية.....، ج6، ص 15.

(2) تيودور هرتزل: مؤسس الحركة الصهيونية الجديدة، ولد بمدينة بودابست عام 1860م، وانتقل إلى فيينا واستقر بها واشتغل بالصحافة، ألف كتاباً باللغة الألمانية باسم (الدولة اليهودية) ضمّنه القواعد التي تقوم عليها الصهيونية في صورتها الجديدة التي تهدف إلى جمع اليهود في دولة خالصةٍ لهم. وهو الذي دعا إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول. للمزيد: عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، 7 أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994م، ج7، ص 107.

(3) الحارتي، الصهيونية من بابل.....، ص 129.

(4) الحارتي، الصهيونية من بابل.....، ص 137.

وبذلك تكون الماسونية مخلوقة من رحم الصهيونية العالمية، تتبع لها وتأتمر بأمرها حالها كحال العديد من الجمعيات والنوادي السرية التي تحمل شعاراتٍ مشابهة لها⁽¹⁾.

خامساً: أساليب تغلغل (يهود الدونمه) داخل الدولة العثمانية:

1- التغلغل الاقتصادي ليهود الدونمه:

رأى اليهود في الدولة العثمانية أكبر عقبةٍ حالت بينهم وبين تحقيق أطماعهم، لذا وجهوا سهامهم نحوها، وتسلبوا إلى عقر دارها، حاكوا لها في الظلام المؤامرات، وأثاروا الفتن للإطاحة بها، رغم الكم الهائل من التسامح والعطف وحرية التنقل، والعمل الصناعي والتجاري الذي وجدوه فيها.

عمّت النهضة الاقتصادية الضخمة كافة مدن الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، وازدادت فرص العمل وخاصةً بعد بناء العديد من المصانع ومدّ شبكاتٍ حديثةٍ من المواصلات وخطوط السكك الحديدية، وطرق الري والصرف، كما ساهمت في تقدم وتطور الصناعة والتجارة -الداخلية والخارجية- ورفع مستوى معيشة السكان.

ورغم ذلك لاحظنا أن رجال الأعمال المسلمين لم يجدوا فرصةً للمشاركة في هذه الحركة الاقتصادية، لأن البنية التي قام عليها الاقتصاد العثماني، هي بنيةٌ قديمةٌ جعلت من غير المسلمين -أصحاب رؤوس الأموال- المتحكمين بالتجارة الداخلية والخارجية، وأكثر المستفيدين من هذا التطور الاقتصادي، مما أدى إلى تصاعد الغضب والتوتر بين المسلمين، فضلاً عن حالة عدم الاستقرار الناتجة عن تدخل القوى الأوروبية في شؤون الدولة الاقتصادية والقومية والعرقية الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن العشرين⁽²⁾.

وهذا يعني أن تغلغل اليهود عامةً ويهود الدونمه خاصةً في جسم الدولة العثمانية، وسعيهم الحثيث للسيطرة المادية كان أحد أهم أهدافهم الرامية إلى تدمير هذه الدولة والتخلص منها، بما أنها تعد أكبر عقبةٍ أمام تحقيق مشروعاتهم الكبيرة (الدولة اليهودية في فلسطين).

(1) الحارثي، الصهيونية من بابل.....، ص 137.

(2) صموئيل أتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية (1850-1950)، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، مجلة عالم المعرفة، العدد 197، الكويت، أيار/ 1995م، ص 177.

حيث اتجهوا في البداية إلى السيطرة على القطاعات التجارية الدنيا، ثم تمكنوا شيئاً فشيئاً من التحكم بجميع المرافق الاقتصادية التابعة للدولة العثمانية⁽¹⁾.

وذلك من خلال النقود الاسبانية والنمساوية التي فضّلها الأتراك عن غيرها من العملات الأخرى المنتشرة داخل البلاد، كانت هذه النقود مصدر قوة لأصحابها من التجار اليهود، وخاصة أن غالبية السلع ذات الأسعار الباهظة كانت تُشترى بها.

ولكي يستمر تفوق يهود الدونمة المالي ودورهم البارز في الميزان الاقتصادي، كانوا يتلقون الدعم والمعونات المالية من قبل عددٍ من الشركات اليهودية الأوروبية عامةً والأمريكية بشكلٍ خاص، مما شكل داعماً أساسياً للحركة الاقتصادية العثمانية، وأحدث انتعاشاً كبيراً فيها⁽²⁾.

وهنا يمكننا التساؤل، هل كان هذا الانتعاش الاقتصادي لصالح الدولة العثمانية؟

وهل هي المستفيد الوحيد منه؟

إن الإجابة عن هذا السؤال سهلة وبسيطة، فظاهرياً يبدو هذا التحسن الاقتصادي لصالح الدولة العثمانية، ومن شأنه أن يدفعها إلى الأمام وينعش قطاعاتها الصناعية والتجارية المختلفة، أي أنها هي المستفيد الأكبر مما يحدث بما أن معظم الأرباح ستصب في خزائنها، أما باطنياً فنستطيع القول أنّ يهود الدونمة بما امتلكوه من مكرٍ وخداعٍ رافقهم منذ لحظة ظهورهم، هم المالكون الحقيقيون لهذا التحسن الاقتصادي، واستفادتهم الناتجة عنه تتفوق أضعاف المرات على الدولة العثمانية.

فهم لم يحققوا أرباحاً ماليةً وحسب، بل تمكنوا من كسب ثقة الدولة العثمانية، وتسربوا تدريجياً إلى داخلها حتى استطاعوا ارتقاء أعلى المناصب فيها، فغدا بعضهم وزراءً للمالية، بينما كُلف آخرون بالإشراف على البنوك وشركات الصرافة، فضلاً عن الامتيازات الكثيرة التي حصلوا عليها خلال تلك الفترة⁽³⁾.

(1) النعيمي، اليهود والدولة.....، ص 32.

(2) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 99.

(3) أحمد عثمان، تاريخ اليهود، 3 أجزاء، مكتبة الشروق، القاهرة، ط2، 2002م، ج3، ص 13.

كاحتكار الجمارك ودار صك النقود العثمانية، إضافةً إلى عملهم في إقراض الأموال وضرائب الفلاحين، وقد ازدادت ثرواتهم بشكلٍ هائلٍ بعد أن غزت استثماراتهم وتجارتهن جميع أنحاء أوروبا، وتوسعت سيطرتهم على النظام الاقتصادي والإدارة المالية العثمانية(1).

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد ذكرنا سابقاً أن الدونمه يمنعون منعاً باتاً الزواج بينهم وبين المسلمين، وفقاً لعقيدتهم السبائية، لكن الدراسات توصلت إلى حقيقةٍ مهمةٍ مفادها، قيام تجارٍ ينتمون إلى طائفة الدونمه، بالزواج من عائلاتٍ تركيةٍ مسلمةٍ لها دورها في مجال التجارة، ويعد زواج اليهودية (صباحة سرتل)، الدونموية الأصل من الكاتب التركي (زكريا سرتل)، أشهر هذه الحالات، التي تقدم لنا برهاناً واضحاً على اسمية عقيدتهم، واستعدادهم للتخلي عن أئمن ما يملكون للوصول إلى مساعيهم وتحقيق أطماعهم(2).

وأخيراً تمكن يهود الدونمه بعد زمنٍ من العمل الجاد في مجال الاقتصاد والمال من إحكام قبضتهم في جسم الدولة العثمانية، كما باتوا على أهبة الاستعداد لتقديم العون لجميع القوى الداخلية والخارجية المعادية لها، حيث بدأوا يشنون الهجوم تلو الآخر على أجهزتها المختلفة، ثم عملوا على إرباكها مادياً، لشل حركتها عن العمل، وإيقاعها تحت طائلة الديون، وخاصةً أنهم هم وإخوتهم من يهود العالم الأصحاب الأساسيين لهذه الديون.

كانت خطة يهود الدونمه محكمةً، خطواتها مدروسةً، وأهدافها واضحةً، تجلت بالضغط على الدولة العثمانية ومطالبتها بالديون المترتبة عليها، وبما أنها عاجزةٌ عن السداد، ستكون فرصتهم المناسبة للانقضاض عليها، حيث فرضوا المستشارين الغربيين على الدولة بذريعة حماية ديونهم، بينما كان هدفهم الرئيس التحكم في سياسة الدولة، وتوجيه دفة الحكم تبعاً لرغباتهم داخلياً وخارجياً، وقد ظهر ذلك جلياً في أواخر أيام السلطان عبد الحميد الثاني، الذي عجز عن تحديد ميزانية قصره دون العودة إلى هؤلاء المستشارين(3).

(1) ستانفورد ج. شو، يهود الدولة العثمانية والجمهورية التركية، ترجمة الصفصافي أحمد القطوري، دار البشير، مصر، ط1، 2015م، ص 167.

(2) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 100.

(3) داود عبد العفو سُنقرط، أبناء يهوذا في الخفاء (القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية)، دار الفرقان، عمان، ط2، 1987م، ص 131، 132.

وهنا لابدّ أن نشير إلى أن القوة المالية التي تمتع بها اليهود بشكلٍ عامٍ، تخطّت حدود الدولة العثمانية مع أوروبا، حيث وصلوا في وقتنا الحاضر إلى السيطرة على العالم المالي من أقصاه إلى أقصاه.

كما بلغ نفوذهم درجةً لا يمكن معها تخيل قيام عمليةٍ ماليةٍ ذات شأنٍ مهمٍ دون أن يشاركوا فيها، ودون أن يجنوا منها النصيب الأكبر من الأرباح، ولا نستطيع الإنكار بأن جميع الاستثمارات والمؤسسات الأكثر مردوداً -سواءً في أوروبا أو خارجها- ليست سوى احتكارات يهودية ولأشخاص يهود.

2- التغلغل السياسي لليهود الدونمه:

إن النفوذ الذي حققه يهود الدونمه مالياً، سهل لهم الطريق لبلوغ غايتهم الأكبر في فرض سيطرتهم السياسية داخل الدولة العثمانية، والوصول إلى دولتهم المزعومة في أرض فلسطين، فرغم محاولاتهم المتتالية للنيل من الدولة العثمانية، فإن لعبتهم السياسية لم تنجح وتظهر للعلن إلا في فترة التدهور والضعف الذي تسرب إلى قطاعاتها المختلفة، وهي الفترة ذاتها التي ظهرت فيها الحركة الصهيونية، كأول منظمةٍ سياسيةٍ تنادي بإقامة وطنٍ قوميٍّ لليهود في فلسطين، وتلاقي الدعم الكبير من القوى الأوروبية الرامية إلى تحقيق أهدافها الاستعمارية عن طريق استغلال هذه المنظمة والاستفادة منها.

ومن هنا نستطيع القول إنّ يهود الدونمه وجدوا ضالتهم في هذه المنظمة السياسية، فقد تقاطعت خيوط المؤامرة التي نسجوها داخل الدولة العثمانية مع شبكة الصهيونية العالمية، والقوى العالمية الامبريالية التي توجهها.

وقد أثبتت الدراسات، أنّ الفتن الداخلية التي أصابت نظام الحكم في تلك الفترة، كانت من صنع يهود الدونمه، فضلاً عن إحداثهم خضاتٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ، من شأنها أن تشل حركة الدولة وتضعفها، إضافةً إلى إثارة القوميات وتحريك النعرات الطائفية، من خلال تحالفهم مع القوى الخارجية⁽¹⁾.

(1) هيله بنت سعد بن محمد السليمي، دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2001م، 455 صفحة، ص 34.

أما السلاح الأهم على الإطلاق في خطتهم السياسية، فقد كانت الدوريات (الصحف والمجلات) حيث كرسوا طاقتهم وجهودهم للانقضاض عليها، وتحويلها إلى قبضة فولاذية خاضعة لهم، ومستعدة للقضاء على كل العقبات التي تعترض سبيل سيطرتهم في كلا المجالين السياسي والمالي⁽¹⁾.

وقد استفادوا من هذا النفوذ الإعلامي في توجيه ضربات قوية ضد أركان الدولة العثمانية، فأطلقوا الأكاذيب والإشاعات التي مست سمعت السلاطين، فشوهت تاريخهم وحطّت من قدرهم، كما أن دعوات تغريب وتحديث المجتمع العثماني وفق النمط الأوروبي التي نودي بها كانت كلها من صنيعهم، ومن جهة أخرى، مثلت عناصر الدونمة التي استطاعت الحصول على مناصب عالية في الدولة، طابوراً خامساً يقف في صف القوى الاستعمارية، ويساندها ضد الدولة العثمانية، وأفضل مثال عن ذلك الصدر الأعظم (مدحت باشا)، الذي كرس حياته لخدمة الدول الاستعمارية⁽²⁾.

كما أن العديد من الأحزاب والجمعيات السريّة السياسيّة، التي تشكلت ضد الدولة العثمانية كانت لعبة من ألعايب الدونمة، فهم من أسسها ووجهها وعمل على حمايتها، وأهم ما يمكننا تقديمه عن ذلك، (جمعية الاتحاد والترقي) -قادت الانقلاب الدستوري 1908م، وقضت على حكم السلطان عبد الحميد الثاني وأطاحت بعرشه 1909م- وقد تبين أن معظم المشتركين فيها من الدونمة، وينتمون إلى فرعي الدونمة (الأزميريين واليعقوبيين)⁽³⁾.

وقد أكد هذه الحقيقة (جيرالد لاوثر) السفير البريطاني في استانبول، في رسالة مطولة رفعها إلى وزارة خارجية بلاده في 29 أيار 1910م، جاء فيها⁽⁴⁾:

(1) عثمان بك كبريزلي زاده وغريس هالسل، المال والإعلام في الفكر اليهودي والممارسة الصهيونية، تقديم أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999م، ص 71.

(2) السليمي، دور اليهود في إسقاط، ص 35.

(3) أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة (دراسة في الأصول والعقائد والمواقف)، دار البشير، مصر، 1995م، ص 66.

(4) السليمي، دور اليهود في إسقاط، ص 36.

".... ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة في سلانيك كانوا بالدرجة الأولى من اليهود.... لقد أصبح كل يهودي كما عبّر عن ذلك أحد الأتراك جاسوساً للجمعية الخفية، وبدأ الناس يقولون: إن الحركة إنما هي حركةٌ يهوديةٌ أكثر مما هي ثورة تركية"(1). كما نشرت صحيفة (محراب) التركية معلوماتٍ عن الدونمة، مقدمة من كاتبان فرنسيان، في عددها الخامس عام 1924م، جاء فيها:

" الدونمة القابانجية هم أكثر مجموعات أهل سلانيك ذكاءً، فقد اندسوا في خلايا حزب الاتحاد والترقي بشكلٍ كبيرٍ وملحوظٍ، ونستطيع القول بأنهم قد أداروا الجزء الأعظم من انقلاب تركيا الفتاة الذي أسقط السلطان عبد الحميد الثاني، وهذا الانقلاب قام به يهود الدونمة، وهم مسلمون شكلاً وفي الحقيقة معادون للإسلام، وكل صلتهم بالإسلام انحصرت في الأفعال الظاهرة فقط"(2).

نستنتج مما تقدم أن يهود الدونمة نجحوا في الوصول إلى مآربهم، وأن أقدامهم التي رستخها التفوق الاقتصادي، أدت دورها على أكمل وجهٍ، فاندمجت وسيطرت، وتأمّرت، وحققت أهدافها السياسية المرجوة منها.

ومن الأهمية بمكان القول، أن النفوذ اليهودي ازداد بشكلٍ ملحوظٍ في الدولة العثمانية بعد انقلاب 1909م، حيث تسلموا أربع حقائب وزارية، هي وزارة النافعة (الأشغال العامة)، أصبحت بيد (بساريا أفندي) -كان من إقليم الفلاخ والبغدان في رومانيا- عمل في جريدة (جون ترك) الصهيونية دماً وعرقاً كرئيس تحرير لها، وزارة التجارة والزراعة ناظرها (نسيم مازلياح) مفوض الجمعية الصهيونية، وزارة البوستة والتلغراف كانت من نصيب (أوسقان أفندي) الذي تهود وأصبح شديد الغلو في الصهيونية، أما وزارة المالية فقد تسلمها الشخصية الأشهر والأكثر براعةً في علم المال (جاويد بك) الدونموي الأصل. وهكذا بات اليهود بالرغم من أنهم قلةٌ قليلةٌ في الدولة العثمانية، وهم آخر من يذكر عندما تُعدّ الأقليات في الدولة، يتحكمون بأربع حقائب من أصل (13) حقيبة وزارية، وهو عدد لا يستهان به إذا ما قورن بعدد العرب الذين يشكلون نصف سكان الدولة، وليس لهم أي مقعد وزاري(3).

(1) السليمي، دور اليهود في إسقاط، ص 36

(2) السليمي، دور اليهود في إسقاط، ص 37.

(3) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مجموعة الأجزاء الأربعة، دار الاستقلال، بيروت، ط4، 1996م، ص 95، 96.

لقد سيطر اليهود على أهم أربع وزارات في الدولة العثمانية، أي أن مصدر قوة الدولة أصبح طوع أمرهم، وقد استغلوا ذلك أحسن استغلال، فسَيروا الدولة حسب مصالحهم وأهدافهم، لغاية وصولهم إلى طريق الهاوية والانهيال بإدخالها في برائن الحرب العالمية الأولى، التي كادت أن تمنح أثرها من الوجود إلى الأبد. (سنوضح أحداث الحرب العالمية في الفصل التالي).

ولا يخف عن أحد أن يهود الدونمه كانوا أعضاء كباراً في الماسونية، التي أصبحت آلة طيعةً وظيفتها الأساسية توحيد أهداف جميع المحافل، وتنسيقها وتوجيهها لخدمة (اليهودية)، أي أصبحت الماسونية بمثابة واجهةٍ ظاهريةٍ لأحد أكبر الجمعيات السرية الكامنة خلفها.

وقد جاء في تصريح (بنيامين إسرائيل) -السياسي الإنكليزي- سنة 1844م ما يؤكد ذلك: "إن الذين يديرون دفة السياسة في العالم ليسوا الذين هم في دست الحكم ظاهرياً، إنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس"⁽¹⁾.

ويعتبر هذا التصريح في غاية الأهمية، فهو حقيقة واقعة لا يمكننا تجاهلها أو الاستخفاف بها، وجميع الأحداث العالمية التي حدثت وما تزال تحدث حتى وقتنا الحاضر تؤكد صحة هذه المقولة، والدولة العثمانية بحكم منعها لليهود الدونمه من الدخول إلى فلسطين، نالت النصيب الأكبر من هذه المؤامرات الماسونية الخفية.

3- التغلغل الفكري ليهود الدونمه (أكذوبة العلمنة):

لقد تمكن يهود الدونمه من بسط سيطرتهم، وهيمنتهم على الحياة الاقتصادية والسياسية داخل الدولة العثمانية، وهذا ما ساعدهم في توجيه ضربتهم النهائية نحو المجتمع التركي المسلم، فخطتهم هذه المرة تقوم على مهاجمة عقول الشباب والتلاعب بأفكارهم، لتتمكن من زعزعة بنيان المجتمع وتفكيكه، حيث نرى يهود الدونمه يعملون جاهدين لدفع الرأي العام التركي- المسلم على وجه الخصوص، إلى مناصرة الأفكار الغربية وتشجيع تحديث تركيا فقط -بمعزلٍ عن باقي دول الدولة العثمانية- من خلال إبعادها عن المظاهر الإسلامية، وتمجيد حضارة الغرب، ونشر المبادئ الغربية بين الشباب⁽²⁾.

(1) جواد رفعت آتلتخان، أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القبلي، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1990م، ص 77، 78.

(2) درويش، حقيقة يهود الدونمه.....، ص 54.

إضافة إلى أنهم دعوا إلى سفور المرأة المحافظة في المجتمع العثماني عام 1914م، وشنوا حرباً ضد الحجاب، وطالبوها بخلعه، متذرعين بحجة "إن الحجاب ليس من الإسلام، وإنما انتقل من الروم إلى المسلمين"⁽¹⁾.

كان هدفهم ضرب وتشتيت المجتمع العثماني من الجذور، وبما أن المرأة تمثل قاعدة البنيان الهرمي للمجتمع، فقد كانت المستهدفة الرئيسة بحملاتٍ شرسةٍ شُنت على حشمتها وعفتها ودينها، ففساد المرأة يعني فساد جيلٍ كاملٍ سينشأ على يديها، فهي جوهر المجتمع، وإذا استطاع اليهود ضرب هذا الجوهر، أصبح الباب مفتوحاً أمامهم بمصراعيه، وغدا هدم الخلافة الإسلامية والقضاء عليها بغاية السهولة.

ومن أجل تحقيق ذلك، نراهم يدعون في حفلاتهم التي نظموها على المسارح التركية إلى تمزيق الحجاب، وإلغاء ارتدائه، فبعد انهيار الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية، ارتفعت أصوات يهود الدونمة، مناديه باشتراك المرأة التركية في مسابقات ملكات جمال العالم عن طريق الجرائد التي يمتلكونها، وأهمها (ميلليت) و (كون إيدن)، وبالفعل فازت فتاة تركية تدعى (كريمان خالص) بهذا اللقب، الذي وصفه رئيس اللجنة بكلمة قال فيها:

"أيها السادة أعضاء اللجنة! إنَّ كل أوروبا تحتفل اليوم بانتصار النصرانية، لقد انتهى الإسلام الذي ظل يسيطر على العالم منذ 1400 سنة، إن (كريمان خالص) ملكة جمال تركيا تمثل أماننا المرأة المسلمة التي لم تخرج إلى الشارع، ولا ترى الناس إلا من وراء المشربيات، ها هي تخرج الآن أماننا (بالمايوه)، ولا بدّ من الاعتراف أن هذه الفتاة هي تاج انتصارنا.

ها هي حفيدة السلطان العثماني المسلم تقف بيننا وتطلب منا أن نعجب بها ونحن نعلن لها بالتالي أننا أعجبنا بها مع كل تمنياتنا بأن يكون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حسب ما نريد، فلترفع الأقداح تكريماً لانتصار أوروبا"⁽²⁾.

كم تحمل هذه الكلمة بين سطورها من معاني الذل والخيبة، والشماتة بالإسلام والمسلمين، نعم انتصرت أوروبا على الإسلام، وانتصر معها يهود الدونمة، فالدولة العثمانية انهارت بفعل اليهود ومخططاتهم، وجميع مظاهر الدين الإسلامي انهارت واندثرت معها.

(1) حرب، العثمانيون في التاريخ.....، ص 81، 82.

(2) درويش، حقيقة يهود الدونمة.....، ص 54، 55.

لم يوقف يهود الدونمه رغم ذلك حملتهم الشعواء ضد المرأة، حيث نجدهم يثقلون مقالاتهم، كتبهم، ورسائلهم بالأفكار المعادية للحجاب، عدا عن الكتاب القوميين الذين تخطوا المتوقع في كتاباتهم المطولة عن الحجاب ومساوئه، وبعده عن الإسلام وأصوله الرومانية، فكانت لهم خير فرصة للهجوم على الإسلام وشعائره والإنقاص من شأنه.

وكي يحافظوا على أفكارهم ويرسخوها بين أبنائهم، نجد مدرستين خاصتين من إنشائهم في استانبول، لا يرتادها إلا أبناء الدونمه، (ثانوية الفيضية) و(ثانوية الترقى)، فلا يضطروا أبداً لإرسال أبنائهم إلى المدارس التركية⁽¹⁾.

كانت خطة يهود الدونمه أكبر بكثير مما يمكن تخيله، والفوضى الاجتماعية التي سعوا لإحداثها في المجتمع لا تنتهي عند خلع حجاب المرأة المسلمة، بل تتخطاه إلى حرمان الدولة من الشباب الواعي المثقف، من خلال دعوات إعلامهم المستمرة للاختلاط بين الشباب والفتيات في جامعة استانبول، ونجاحهم في إقناع الرأي العام بضرورة اتباع المظاهر الأوروبية الغربية، كنوع من أنواع التحرر والتطور⁽²⁾.

ولابد من إعادة ذكر أهم شخصية نسائية دونموية، أثرت في الأدب التركي بشكل بارز وهي (خالدة أديب)، التي تقلدت عدة رتب عسكرية في حرب الاستقلال التركية، وكتبت العديد من الروايات أهمها (قميص من نور) و(خفق القلب)، وكان لهما أصداء وتأثير كبير داخل المجتمع التركي، كان عداؤها للإسلام والمسلمين واضحاً، فقد فرضت تمثيل أوبرا ألفتها بعنوان (رعاة كنعان) في مدرسة البنات في بيروت، قامت فيها بمدح اليهود وتمجيدهم، إضافة إلى تمنياتها الصريحة لهم بإقامة دولتهم في فلسطين، أما روايتها (اضربوا الغانية) فقد وجهتها مباشرة ضد علماء الإسلام والمسلمين، الذين عارضوا الدعوة الكمالية ووقفوا ضدها⁽³⁾.

هذه هي الطريقة التي تسربت فيها الأفكار الغربية إلى الدولة العثمانية، وهكذا كانت العثمانية أكبر أذنوبة صنعها الغرب، واستغلها يهود الدونمه، فحوروا معانيها، وضربوا من خلالها ركائز الدين الإسلامي، الذي بقي لسنوات طويلة كالشوكة الصلبة أمام مشروعاتهم الاستيطاني في فلسطين.

(1) درويش، العلاقات التركية اليهودية.....، ج1، ص 126، 127.

(2) حرب، العثمانيون في التاريخ.....، ص 82.

(3) النعيمي، يهود الدونمه (دراسة في.....)، ص 70، 71.

سادساً: استنتاج الفصل الثاني:

- 1- الاضطهاد والظلم الذي تعرض له اليهود في أوروبا، كان بمثابة اللبنة الأولى في طريق مخططاتهم الهادفة إلى إقامة دولة خاصة بهم، تخلصهم من معاناتهم وتفرقهم.
- 2- نجاح دعوة سبتاي زيفي لم يتعلق أبداً بشخص سبتاي أو معجزاته التي قدمها، أو ما نسب إليه إن صح القول، بل بحالة اليهود المتردية وما لحق بهم من مجازر وطرده، وإبادة عانوا منها على مر السنين، فكان ظهور سبتاي ودعوته أكبر أملٍ لاح لهم بالخلاص والولادة من جديد.
- 3- إن سبتاي زيفي هو أول من دعا اليهود للعودة إلى فلسطين، بذريعة أنهم الشعب المختار، وفلسطين أرض الميعاد، وأتباعه صدقوه ونشروا دعوته بكل السبل والوسائل.
- 4- رغم الانقسام الذي أصاب يهود الدونمه بعد وفاة مؤسس طائفتهم سبتاي زيفي، إلا أنهم بقوا مجتمعين على إيمانهم بمسيحية سبتاي زيفي وتعاليمه.
- 5- تمكن يهود الدونمه من فرض سيطرتهم الاقتصادية على أجهزة الدولة العثمانية، بفضل أعمال الربا والصرافة التي امتهناها، والأموال التي استقدموها معهم أثناء هجرتهم إلى الدولة العثمانية مستغلين ضعف السلاطين وفسادهم.
- 6- شل يهود الدونمه الحركة الاقتصادية في الدولة العثمانية، حيث عمدوا إلى إغراقها بالديون، ثم طالبوها بالإيفاء باعتبارهم أصحاب هذه الديون، مما دمر الاقتصاد وكبده الكثير من الخسائر.
- 7- كان يهود الدونمه الابن البار للصهيونية العالمية، استغلوا المناصب السياسية التي تقلدوها داخل الدولة العثمانية في خدمة المشروع الصهيوني، الذي يهدف إلى إقامة وطنٍ قومي لليهود في فلسطين.
- 8- عمل يهود الدونمه على تشويه الفكر التركي وتضليله، مستخدمين سلاحاً يدعو إلى التحديث على النموذج الغربي، ومنادين بالتنازل للإسلام ومعتقداته التي أخرجت المجتمع، وكانت سبباً في تخلفه على مدى عدة قرون، فلم يعد قادراً بسبب قوقعة الدين من اللحاق بالدول المتقدمة حسب ادعائهم.

9- كانت المرأة التركية هي الوتر الحساس الذي ضرب عليه يهود الدونمه، ونجاحهم في إبعادها عن دينها وعاداتها الإسلامية، كان أكبر انتصارٍ لهم سجلوه وسطروه بحروفٍ من ذهب في كتبهم.

10- العَلَمنة هي الرداء الخفي الذي تستر خلفه كل من يهود الدونمه والصهيونية والماسونية، وبفضل أكذوبة العَلَمنة وجهودهم الحثيثة لتطبيقها في الدولة العثمانية، هدموا السلطنة العثمانية ودخلوا فلسطين واحتلوها.

الفصل الثالث

مصطفى كمال أتاتورك وعلمنة الدولة العثمانية

أولاً: التعريف بنشأة مصطفى كمال وتعليمه العسكري:

1- مولده ونسبه:

يوجد آراءً مختلفة ومتضاربة بين المؤرخين حول السنة التي ولد فيها مصطفى، والشكوك تدور حول سنتين هما 1880م و1881م، والوصول إلى حقيقة الأمر يتطلب منا الخوض في بعض التفاصيل.

بالعودة إلى سجل السكان الرسمي في استانبول، تم ادخال ولادة مصطفى في عام (1296) حسب التقويم الرومي⁽¹⁾، وقد امتدت هذه السنة من 13 آذار 1880م إلى 12 آذار 1881م، أي أن ولادة مصطفى كانت في هذه الفترة.

وبما أن والدته مصطفى أشارت إلى أن ولادته كانت خلال الأربعين يوماً الباردة من فصل الشتاء، ومعظم المقربين منها أكدوا صحة ذلك، فهذا يرجح ولادته في الشهر الأول من عام 1881م، وهو التاريخ الأقرب للصحة حسب غالبية المصادر والمراجع.

هناك أيضاً اختلاف حول نسب مصطفى، فبعض المؤرخين يؤكد نسبه إلى علي رضا وبعضهم ينفي ذلك بعدّه زوج والدته، كان رضا يعمل في بداية شبابه كاتباً في دائرة الأوقاف، ثم تطوع في كتيبة العساكر الملكية باعتباره يجيد القراءة والكتابة، وبعد وقت قصير، غيّر وظيفته وانتقل إلى مصلحة الجمارك، وتزوج في الوقت نفسه من سيدة تدعى زبيدة⁽²⁾، كما مارس تجارة الأخشاب لفترة من الزمن، بنى خلالها منزله في سالونيك⁽³⁾، في حي (أحمد سوباشي) -مكان ولادة مصطفى- لكن تجارته ما لبثت أن فشلت، فسألت أوضاعه وأخذ ينهار تدريجياً بسبب ماتعرض له⁽⁴⁾.

(1) التقويم الرومي أو اليولياني: هو تقويم فرضه يوليوس قيصر في سنة 46 ق.م، ودخل حيز التنفيذ سنة 45 ق.م، يحاول التقويم اليولياني محاكاة السنة الشمسية، ويتكون من 365,25 يوماً مقسمة على 12 شهر. للمزيد: <https://ar.m.wikipedia.org>

(2) Andrew Mango, ATATURK, John Murray, London, 1999, P. 53- 55.

(3) سالونيك: تقع المدينة على رأس خليج سالونيك، مدخل على بحر إيجه وعند عنق شبه جزيرة خلكيا، ثاني كبرى مدن اليونان وأكبر ثغورها، سيطر عليها العثمانيون بعد حصار دام لمدة ثلاثة أيام في عهد السلطان مراد الثاني. للمزيد: العلماء، الموسوعة العربية.....، مج 3، ص 1779.

(4) ضابط تركي سابق، الرجل الصنم مصطفى كمال أتاتورك (حياة رجل ودولة)، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، الأهلية للنشر، الأردن، ط1، 2013م، ص 31.

أما والدته زبيدة، فقد كانت تتميز بجمالها المتمثل بزرقة عينيها، وطولها اللافت، وشعرها الكستنائي، وبأنها امرأة محافظة متديّنة، ودليل ذلك أنها كانت ترتدي الحجاب منذ طفولتها، وفيما يخص مستواها التعليمي، فيذكر أنها أمية لا تجيد القراءة ولا الكتابة، منعزلة عن كل الأمور التي تحدث خارج منزلها(1).

وبذلك يكون طفلها (مصطفى) ومنزلها هو أكبر اهتماماتها، وكل ما تبقى ليس من أولوياتها، ما عدا اعتبارها الخليفة العثماني ولي من الأولياء، وظل الله على الأرض(2).

ومع ذلك فإن طبعها الناري وحبها للسيطرة، جعلها المتحكمة بشؤون أسرتها، وهذا لا يغير من أصلها الريفي البسيط، فوالدها كان فلاحاً متواضعاً من جنوب (ألبانيا)(3)، وأمها من أصل (مقدوني)(4)(5).

وكدليل على صحة سيطرتها على الأمور الخلاف الذي وقع بينها وبين زوجها حول تسمية المولود الجديد، لأن علي رضا كان مصرّاً على تسميته اسماً تركياً صرفاً، ليذكره بأجداد أجداده العثمانيين، وليرضي نزعتة التعصبية لتركيتها.

بينما استطاعت زبيدة بعد إصرارها الكبير على تحقيق رغبتها في تسميته باسم من أسماء النبي محمد (ص)، فسمي الطفل بناءً على ذلك باسم (مصطفى)(6).

2- طفولته وصفاته:

(1) هـ.س أرمسترونج، الذئب الأغبر مصطفى كمال، دار الهلال، القاهرة، 1952م، ص 12، 13.

(2) محمد توفيق، كمال أتاتورك، دار الهلال، القاهرة، 1936م، ص 19.

(3) ألبانيا: تقع جمهورية ألبانيا في القارة الأوروبية، وهي إحدى دول البلقان يحيط بها كل من اليونان، ويوغسلافيا، والبحر الأدرياتيكي. للمزيد: موريس أسعد شربل وكمال حنا، موسوعة بلدان العالم بالأرقام، دار الفكر العربي، لبنان، ط1، 1999م، ص 48.

(4) مقدونيا: تقع في جنوب شرق أوروبا، وهي بلد داخلي تقع في قلب شبه جزيرة البلقان، يحدها من الشرق بلغاريا، ومن الجنوب اليونان، ومن الغرب ألبانيا، ومن الشمال صربيا. للمزيد: محمد عتريس، معجم بلدان العالم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2001م، ص 384.

(5) أرمسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 13.

(6) علي شعيب، كمال أتاتورك، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م، ص 16.

ملاً قدوم مصطفى منزل زبيدة بالسعادة والبهجة، التي لم تدم طويلاً، فبكاؤه المستمر وصراخه الذي ملاً أرجاء المكان قلب حياتهما رأساً على عقب، ودفعهما بعد محاولات يائسة لإسكاته إلى وضعه في غرفةٍ مستقلةٍ عنهما، وهنا كانت الأعجوبة حيث توقف الطفل عن البكاء، كأنما ولد وفي عروقه يجري حب الاستقلال والتفرد في الرأي وممارسة الحياة بأسلوبٍ خاص، بدأ الطفل يكبر وبدأ يكبر معه حب واهتمام والدته، التي فقدت طفلاً ذكراً قبله، فلم يبق لها في الحياة سواه وأخته مقبولة التي ولدت بعده.

كان مصطفى طفلاً عنيداً، حاد الطباع، غليظ التعامل مع غيره، كثير العراك والجدال مع أبناء حيه، كل من يشتمه أو يتحداه يكون الرفس والضرب أقل ما يرد به عليه، وبمعنى أشمل أن هذا الطفل أحب الانعزال والابتعاد عن حوله، ليغوص ويتعمق بأفكاره التي يعدّها أعلى وأصعب من أن يفهمها الأبناء ممن هم في عمره.

ولم يمض وقتٌ قصيرٌ بعد ذلك حتى استقال علي رضا من وظيفته الحكومية، ليتفرغ لتجارة الخشب كما ذكرنا سابقاً⁽¹⁾.

وهنا عاد الخلاف بينه وبين زوجته زبيدة من جديد، فكلٌ منهما يخطط لمستقبل ابنه حسب رغبته، وبينما كان علي رضا يصبو إلى أن يحمل ابنه لقب (أفندي) ويصبح موظفاً كبيراً في الدولة، كانت زبيدة تريد من ابنها أن يصبح إماماً (خوجة) يئم المصلين في صلاة الجمعة⁽²⁾.

وكل مرة فقد كان لزبيدة ما أرادت، حيث ألحق مصطفى بمدرسةٍ تابعةٍ لأحد المساجد القريبة منهم كي يتلقى فيها مبادئ الدين، ويحفظ القرآن الكريم، وكان اسم تلك المدرسة (فاطمة مولى)، وتعد من أشهر مدارس الدين آنذاك⁽³⁾.

إلا أن مصطفى لم يبدِ أي اهتمام لكل ما قدم له فيها، فهو لا يميل لأن يصبح واعظاً دينياً كما كانت ترغب والدته، بسبب كرهه الشديد لهذا النوع من التعليم، ولا لأن يصبح تاجراً لسلعةٍ من السلع المتداولة فهذه الحرفة برأيه تعد حكراً على اليهود والأرمن واليونان⁽⁴⁾.

(1) مصطفى الزين، أتاتورك وخلفاؤه، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط1، 1982م، ص 10.

(2) شعيب، كمال، ص 16.

(3) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1299-1923م)، مكتبة وهبه، القاهرة، ط1، 1989م، ص 216.

(4) رضا هلال، السيف والهلال، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999م، ص 48.

أما الاتراك ذوي التفوق العرقي والقومي أمثاله، فالجنديّة هي الحرفة التي تليق بهم، ولا شيء غيرها(1).

احتفظ مصطفى بهذه الأفكار لنفسه، وبقي يتربص الفرصة المناسبة لتحقيق حلمه، حيث رفض العودة لهذه المدرسة مرةً أخرى، ونظراً لعناده الكبير رضخت والدته لرغبته، وقام والده بنقله إلى مدرسة ابتدائية، كانت تحمل اسم صاحبها المتقدم في السن (شمسي أفندي) تدرّس العلوم الزمنية وتتبع في ذلك المناهج الغربيّة، التي كان والده من أنصارها، وبالفعل بدا التحسن والتقدم ملحوظاً على مصطفى الذي استهواه هذا النوع المختلف من العلم(2).

لكن ذلك لم يدم طويلاً حيث توفي والده فجأةً بعد إفلاسه وفشل تجارته، فاضطرت زبيدة نتيجة سوء أوضاعها إلى إخراج مصطفى من المدرسة والانتقال به وبأخته (مقبولة) إلى مزرعة يديرها أخوها (حسين آغا) في (رابلا) شرق سالونيك.

وهنا أعطي للطفلين مهمة مطاردة الغربان في حقول الفول الواسعة، ورعي الأغنام والاهتمام بها، وهكذا أصبحت حياتهما عبارةً عن لعبٍ ولهوٍ طوال الوقت، لكن ذلك لم يعجب زبيدة التي سارعت إلى إقناع خالة مصطفى بأن تكفله في تعليمه، وبالفعل نجحت في ذلك، وتم إرساله إلى مدرسة إعدادية مدنيّة في سالونيك هي (الملكيّة الرشديّة)، لكنه لم يبد حماساً للمدرسة ولم يحتمل نظامها بعد أن اعتاد حياة الحرية واللهو، وازدادت مشاجراته مع زملائه حتى أنه في يومٍ من الأيام تعرض للضرب من قبل أحد المدرسين، بسبب مشاجرة مع صبي آخر، فقرر الفرار من المدرسة وعدم العودة إليها ثانية(3).

3- تعليمه العسكري:

أ- المدرسة الحربية:

ازدادت متاعب مصطفى واحترات والدته في أمره، ماذا ستفعل من أجله؟ وما هو مصيره ومستقبله؟ وخاصةً أنّ كل محاولاتها بإعادته إلى المدرسة باءت بالفشل، فافترح خاله إرساله إلى المدرسة العسكرية في سالونيك -مدرسة لا تتقاضى رسوماً من تلاميذها(4).

(1) هلال، السيف و.....، ص 48.

(2) الشاذلي، المسألة الشرقية (دراسة وثائقية.....)، ص 216.

(3) Mango, OP. cit, P. 60.

(4) أرسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 14.

لأنها تحت رعاية السلطان-(1).

وهي قادرة على إعادته إلى طريق الطاعة والنظام من جديد، عارضت والدته هذا الاقتراح بشدة، لكن مصطفى وجد الفرصة ملائمة لتحقيق حلمه القديم، وقَبِل الاقتراح برحابة صدرٍ وفرحٍ شديدٍ، وقد تحدث في مذكراته عن ذلك حيث قال:

"كنت قد تعرفت بجاري الضابط قدري، وكان لهذا الجار ابن يتلقى علومه في الكلية الحربية، وكنت شديد الإعجاب بثياب هؤلاء الطلبة الأنيقة، بل كنت أحسد أحمد -كلما التقيت به- على زيه الجميل، وكذلك كلما التقيت في الطريق بضابطٍ يسير مرتدياً ثيابه الزاهية الخلافة أقف مبهوراً، وألاحقه بنظري، وما أن غادرت المدرسة التي كنت فيها حتى صممت على أن أدخل الكلية العسكرية لأصبح ضابطاً أزين جسمي بالملابس العسكرية البديعة"(2).

فيكون طبع مصطفى القيادي وقوته اللافتة وطموحاته المستقبلية، قد جعلته يفكر بحسدٍ وغيره تجاه كل جندي يعرفه أو يلمحه، مع ازدياد رغبته في البروز وتسليط الاهتمام عليه، كل ذلك دفعه للعزم على دخول المدرسة وتحقيق رغباته بمعزلٍ عن قيود أمه ومخاوفها.

وبالفعل لم يطق مصطفى صبراً، وأسرع إلى صديق والده -ضابط متقاعد- وأقنعه أن يتوسط له لدى إدارة المدرسة ليلتحق بها، ثم خضع لاختبار الالتحاق ونجح فيه، ووضع أمه أمام الأمر الواقع بأنه أصبح طالباً في تلك المدرسة(3).

التحق مصطفى بصفوف المدرسة في عام 1893م(4)، وكانت تحمل اسم (المدرسة الرشدية العسكرية) وهي ابتدائية(5).

وما أن ارتدى زيها العسكري، حتى تملكته روحٌ تهوى الحروب والصدام، وتدفعه(6)

(1) أرمسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 14.

(2) محمد صبيح، أتاتورك، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1945م، ص 55.

(3) صبيح، أتاتورك، ص 55.

(4) عبد الله العزام، المنارة المفقودة، مركز الشهيد عزام الإعلامي، باكستان، ط1، 1989م، ص 15.

(5) المرجة، صحوة الرجل.....، ص 268.

(6) توفيق، كمال.....، ص 19.

دائماً للاجتهاد والتفوق بذكائه الذي ميزه عن أقرانه، مما جعله محط اهتمام أساتذته الذين شكروه وشجعوه باستمرار⁽¹⁾.

ونجد أحد أساتذة الرياضيات معجباً به أشد الإعجاب، لما كان يبيده من مهارة فائقة في تلك المادة⁽²⁾، وهو الذي منحه لقب (كمال) كي لا يحدث التباس بينهما عند المناداة بسبب تشابه اسميهما، فغدا منذ ذلك الوقت يعرف باسم (مصطفى كمال)، ولما نجح في امتحاناتها النهائية وحصل على شهادتها، سافر إلى (مناستر)⁽³⁾ والتحق بمدرستها الإعدادية العسكرية العليا⁽⁴⁾.

ب- الكلية العسكرية العليا:

توجه مصطفى كمال مباشرةً نحو الكلية الحربية التي عُهد إليه الالتحاق بها، وعندما وطأ قدماء المدينة وجدها قلقاً مضطربةً يسودها الفوضى والغليان، ويملاها الذعر والخوف، فالدولة العثمانية أعلنت الحرب على اليونان التي احتلت جزيرة كريت⁽⁵⁾، وجيوشها تملأ المدينة تحاول جاهدةً إنقاذ الإمبراطورية الهرمة من الهلاك⁽⁶⁾.

بعد أن وجد مصطفى كمال الأمور على ما هي عليه، هل نستطيع أن نخمن ردة فعل هذا الجندي المفعم بحيوية الشباب المندفع بأفكاره القومية والوطنية؟ لقد رفض الوقوف جانباً والاكتفاء بالمشاهدة، وانطلق مسرعاً إلى رئيس المدرسة العسكرية العليا⁽⁷⁾،

(1) توفيق، كمال، ص 19.

(2) سليمان المدني، تركيا اليهودية، دار الأنوار، دمشق، 1997م، ص 150.

(3) مناستر: تقع في أقصى جنوب يوغسلافيا، على بعد حوالي خمسين كيلو متراً شرق ألبانيا، ومئة وعشرين كيلو متراً جنوب سكوبي، دخلها الإسلام مع العثمانيين في القرن 15م. للمزيد: عبد الحكيم العفيفي، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، أوراق شرقية للنشر، بيروت، 2000م، ص 483.

(4) أمين محمد سعيد وكريم خليل ثابت، سيرة مصطفى كمال باشا وتاريخ الحركة التركية الوطنية في الأناضول، مجلة اللطائف المصورة، القاهرة، ط1، 1922م، ص 5، 6.

(5) جزيرة كريت: تقع في البحر المتوسط، وهي أكبر جزر اليونان وعاصمتها خانيا، وتعتبر مدينة إراكليون ميناء الجزيرة، للمزيد: حسام الدين إبراهيم عثمان ومصطفى أحمد أحمد، الموسوعة الجغرافية، 3 أجزاء، دار العلوم، القاهرة، ط1، 2004م، ج3، ص 30.

(6) صبيح، أتاتورك، ص 56.

(7) الزين، أتاتورك و.....، ص 16.

طالباً منه بإلحاحٍ شديدٍ السماح له بالالتحاق العاجل بجبهات القتال، إلا أن طلبه قوبل بالرفض، فلم يكن هناك أوامر باشتراك طلاب المدرسة بالقتال بعد، رضى مصطفى كمال للأمر، وتابع دروسه آملاً صدور الأوامر بذلك، إلا أن المشكلة مع اليونان ما لبثت أن حلت، بعد تدخل القوى الكبرى بين الطرفين، وتوقيع معاهدة صلح بينهما.

أصاب مصطفى كمال الخيبة والحزن بعد سماعه لهذه الأخبار التي نستطيع أن نقول بأنها كانت بمثابة البذرة الأولى لمشاعر السخط والكراهية التي تفجرت داخل مصطفى تجاه كل من كان له دور في توقيع هذه المعاهدة، وبدأت الأفكار الثورية الراضية لهذا الواقع ترافقه منذ تلك اللحظة.

ظن مصطفى في البداية أنه الوحيد الذي يحمل في أعماقه هذا الشعور لكنه فوجئ بعدد زملائه الذين لا يفكرون مثله فقط، بل تخطوه لأكثر من ذلك، وأن أغلبهم أعضاء في جمعيات سرية تهدف للتخلص من حكم السلطان عبد الحميد، وهذا لم يكن مفاجئاً ففهم الإمبراطورية الأوروبية كان مليئاً بالأفكار الجديدة (الثورية) التي نادى بالحرية والمدنية، وكانت مناسبة بحكم وجود الضباط الشبان في مدرستها العسكرية أنسب مكان لالتقاء هذه الأفكار وتغذيتها⁽¹⁾.

ورغم ذلك تابع مصطفى كمال دراسته، وكان يذهب باستمرار إلى سالونيك في العطلة، ولكنه نادراً ما يرى والدته، لأنها تزوجت من موظف في شركة احتكار (للتبغ العثماني) دون سابق إشعار أو تنبيه، فغضب منها وغادر المنزل قاصداً منزل أحد أقاربه، وبقي بعيداً عنها فترة طويلة من الزمن⁽²⁾.

إذاً أين كان يقضي مصطفى وقته في سالونيك؟

كان مصطفى قد تعرف ببعض الرهبان المقدونيين، الذين علّموه اللغة الفرنسية، التي غدت عاملاً مهماً في صداقته مع ضابط مقدوني اسمه فتحي، كان يجيد اللغة الفرنسية، أخذ يساعده على إتقان تعلمها، ثم انكب الصديقان معاً على قراءة كل ما يقع بين أيديهم من كتب⁽³⁾.

(1) الزين، أتاتورك و.....، ص 16، 17.

(2) Şükrü Hanioğlu, Ataturk (An Intellectual Biography), Princeton University Press, Oxford, 2011, P. 23.

(3) أرمسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 18.

فولتير⁽¹⁾ وروسو⁽²⁾، وغيرهم من الكتّاب الأحرار، وبما أن هذه الكتب ممنوعة زادت حماسة الشابين واستمتاعهما بها⁽³⁾.

وبالتأكيد لم يغيب ذلك مصطفى عن صدارة الأحداث في المدرسة، فقد بدأ نجمه يسطع، وأخذ يدافع عن أفكاره بصلابته المعروفة، خطب مراتٍ عديدةً بزملائه، حدثهم فيها عن الوطن وضرورة تحريره من أيدي المحتلين الأجانب أولاً ومن فساد حكامه ثانياً، لم يكتفِ بذلك فقد ترجم مقالاتٍ عديدةً تبين معاني الوطن والحرية⁽⁴⁾.

كل ذلك لم يشغل مصطفى عن دراسته، وبقي كعادته متفوقاً ناجحاً يمدحه أساتذته، حصل على المرتبة الثانية على دفعته بكل جدارةٍ واستحقاق، وتخرج في عام 1899م، وهو يحمل رتبة ملازمٍ ثانٍ، ثم انتقل بعد ذلك إلى استانبول، والتحق بواحدةٍ من أكثر المدارس المرموقة في الإمبراطورية (الأكاديمية العسكرية الملكية)، تولى إدارة الأكاديمية مجموعةً من الأساتذة المتعلمين في أوروبا، بالإضافة إلى العديد من المدرسين الفرنسيين والبروسيين الذين درّسوا الموضوعات التقنية فيها، وهي تعتبر بمثابة قمة للتعليم العسكري في السلطنة⁽⁵⁾.

دراسة مصطفى في هذه المدرسة كان لها أثر كبير في طريقة تفكيره وتوجهاته السياسية، وخاصةً عندما كثرت الشعارات والهتافات التي يرددوها المثقفون سعيّاً منهم للظهور واحتلال مواقعٍ مهمةٍ على مسرح الأحداث السياسية القائمة⁽⁶⁾.

(1) فولتير: برع في كتابة الشعر والمسرحيات الأدبية التي تنتقد الأوضاع القائمة في فرنسا، سجن مرتين بسبب آرائه. للمزيد: يحيى محمد نبهان، معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا، عمان، ط1، 2008م، ص 217.

(2) روسو: فيلسوف فرنسي، ساعدت فلسفته في قيام الثورة الفرنسية، حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة والقانون. للمزيد: عبد الله صالح الجمعة، عظماء بلا مدارس، العبيكان للنشر، الرياض، ط6، 2001م، ص 313.

(3) أرمسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 18.

(4) يوسف إبراهيم الجهماني، ملفات تركية (أتاتورية القرن العشرين)، دار حوران، دمشق، ط1، 2000م، ص 7.

(5) Hanioglu, OP. cit, P. 31, 32.

(6) تركي سابق، الرجل الصنم.....، ص 41.

ومثال ذلك: "البلد يسير في طريق الخراب...والدكتاتورية تكتم الأنفاس...الحرية! الثورة!"(1).

هذا التغيير الجذري في الأفكار لم يشمل مصطفى فقط، بل تسرب إلى الغالبية العظمى من الطلاب في الأكاديمية، ومن الطبيعي أن تنتشر مثل هذه الأفكار بسهولة، لأن الأكاديمية جاءت نتاج الإصلاحات البيروقراطية والعسكرية العثمانية في أوائل القرن التاسع عشر، أي أنها تعتبر أفضل بيئة حاضنة لمثل هذه التحركات والنشاطات، فتأثير الغرب فيها واضح بصورة جلية، ليس فقط في المنهاج المتبع، بل في مدرسيها وطريقة تدريسهم له أيضاً(2).

لم يمنع ذلك مصطفى كمال من التفوق في دراسته، فقد كان يعمل بلا هوادة أو تقصير للحصول على المراتب الأولى، التي تخوله الالتحاق (بأكاديمية أركان الحرب العليا) - كلية الموظفين- لقد تحققت رغبة مصطفى كمال، وتفوق في الامتحانات، مما جعل الاختيار يقع عليه ليكمل دراسته في كلية الموظفين التي تخرج منها سنة 1905م برتبة نقيب (يوزباشي).

ومن الجدير بالذكر أن مصطفى كمال أثناء دراسته في هذه الأكاديمية، لم يبتعد عن السياسة بل على العكس تماماً انخرط فيها بشكل أكبر، وشكل مع مجموعة من أصدقائه الضباط جمعية سرية عرفت باسم (وطن)، كان الانتقاد والرفض أهم عناوينها، كانت تشجع على الثورة ضد ظلم السلطان (عبد الحميد الثاني) المانع لأشكال التحديث والتحرر، كما كان لرجال الدين حصة فيها، فقد هاجمهم بشدة وانتقدوا فيهم وقوفهم ضد الإصلاح والتقدم بأفكارهم الجاهلية المتعصبين لها منذ سالف الأزمان، وحسب آرائهم كانت "تركيا مخنوقة بيد السلطان وجواسيسه، وما لم يسمح لدم الأفكار الجديدة بالمرور في عروقها فمصيرها حتماً إلى الموت"(3).

يمكننا أن نلاحظ بأن هؤلاء الشبان بما فيهم مصطفى كمال المتشبعين بالأفكار الغربية، حملوا السلطان عبد الحميد الثاني ورجال الدين المسؤولية في تخلف الأمة ومنعها من التطور والانفتاح على الأفكار الجديدة، متجاهلين بذلك المخاطر الخارجية التي تحيط بهم، وغير فاهمين أو مدركين لخطورة الأطماع الأوروبية وأفكارها المحرصة ضد سلطانهم، والتي تهدف لتدمير أمتهم والتخلص من نفوذهم إلى الأبد.

(1) تركي سابق، الرجل الصنم.....، ص 41.

(2) تركي سابق، الرجل الصنم.....، ص 41.

(3) هلال، السيف و.....، ص 48.

يمر بضعة أسابيع والجمعية غارقة في أعمالها السرية، وأمورها تسير بشكلٍ طبيعي، ولكن هل يمكن لها أن تنج من أعين الجواسيس لفترةٍ طويلة؟

بالتأكيد من غير الممكن ذلك، فقد كشفوا أمرها وأخبارها وصلت إلى السلطان الذي استشاط غضباً وهو يقول "حتى الضباط الذين غمرتهم بفضلي وإحساني"، ثم يصدر أوامره بالقضاء على تلك الجمعية ومنع اجتماعاتها، ولكن دون جدوى، حيث استمروا بعقد اجتماعاتهم ولكن ليس داخل الكلية بل خارجها، باذلين كل ما في وسعهم للتستر على أمرهم، أما إدارة هذه الاجتماعات فأصبحت من نصيب مصطفى كمال، فمن يستطيع مجاراته ومنافسته في هذه المسائل.

ظن مصطفى كمال ورفاقه الأغرار أنهم بمعزلٍ عن عيون السلطان وجواسيسه، ولم يعرفوا أنهم خاضعين لمراقبةٍ دقيقةٍ بعد صدور الأوامر بالإيقاع بهم متلبسين بجرمهم⁽¹⁾.

وفي اللحظة المناسبة وأثناء انعقاد الاجتماع، تم إلقاء القبض عليهم جميعاً وفي مقدمتهم مصطفى كمال، وزجوا جميعاً في (السجن الأحمر) عام 1905م أي أن الموت أصبح مصيرهم المحتوم، لكن مشيئة الأقدار غيرت ذلك بسبب تساهل السلطان معهم⁽²⁾.

وبدون سابق إنذار، أخرج مصطفى كمال من السجن واقتيد إلى مكتب إسماعيل حقي - القائد العام للإدارة العسكرية- الذي توجه إليه بقوله:

"لقد أظهرت مقدرةً فائقةً وأمامك -إذا شئت- مستقبلٌ باهرٌ في خدمة صاحب الجلالة، لكنك بدلاً من ذلك جلبت العار على نفسك وعلى سترتك العسكرية، فعشت مع رفاقٍ من أسوأ الشبان سمعةً، تقامر وتشرب الخمر، وأنكى من ذلك أنك صرت خائناً، فانغمست في السياسة والمؤامرات الانقلابية التي يقوم بها خونةٌ يضمرون الشر لمولاك السلطان، وشجعت رفاقك على أن يحذو حذوك"⁽³⁾.

وواصل كلامه دون أن يتيح لمصطفى أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، وأخبره أن السلطان عفا عنه، وسيرسله إلى دمشق ليلتحق بإحدى فرق الفرسان المرابطة هناك، وحذره في النهاية بأن هذه فرصته الأخيرة ولن يعطى مثلها مرةً أخرى إذا لم يكف عن حماقاته⁽⁴⁾.

هذه الكلمات التي وجّهت إلى مصطفى كمال، تحمل في معانيها الكثير من جمل التهديد

(1) توفيق، كمال، ص 20، 21.

(2) شعيب، كمال، ص 20.

(3) أرسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 23.

(4) أرسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 24.

والوعيد، وشاب في مثل عمره لابد له أن يرتدع ويخاف لما سمعه، ولكن على العكس لم يتراجع ولم تثنه هذه الكلمات، ففوة شخصيته وعقله الثائر جعله ينتظر الفرصة المناسبة ليكمل المشوار الذي بدأ به، فما أسماه إسماعيل حقي حماقات كانت بالنسبة إليه قضية وطن، من الواجب إصلاحه والتضحية بالغالي والثمين فداءً له.

هكذا كان وداع مصطفى كمال الذي وضع في اليوم نفسه على متن سفينة متجهة نحو سوريا⁽¹⁾.

4- دمشق:

بعد رحلة طويلة يصل مصطفى كمال إلى لواء الفرسان عام 1905م، ليجد نفسه مكلفاً بالهجوم على الثوار الدروز في منطقة حوران، وبسبب صعوبة المعركة وكي لا يقف الأتراك مكتوفي الأيدي، أغاروا على قرى وحقول الدروز وارتكبوا فيها كل أنواع السلب والنهب، ثم عادوا إلى دمشق بعد أن تقاسموا الغنائم⁽²⁾.

بعد فترة قصيرة، عمل مصطفى على إنشاء فرع لجمعية (وطن) في سوريا، متناسياً كل التهديدات التي وجهت إليه في حال قيامه بأي أعمال مشبوهة، لكن حماسه المتأججة بنار الحق والثورة ضد السلطان دفعته إلى السفر خلصةً إلى سالونيك دون إذن من السلطات بذلك، سعيًا منه لتأسيس فرع للجمعية هناك ليصبح اسمها (الوطن والحرية)، معتمداً على السخط والتذمر الذي كان يملأ المدينة وينذر بالثورة⁽³⁾.

لكن أمره ينكشف قبل أن يحقق غايته، ويستطيع أن ينقذ نفسه بمساعدة عدد من أصدقائه الذين أظهروه كأنه في (يافا) ولم يغادر سوريا منذ وصوله إليها، وبذلك نجا من خطر كبير كان ينتظره لو تم القبض عليه⁽⁴⁾.

بقي مصطفى كمال بعدها مدة عام كامل في دمشق دون أن يقوم بأي تصرف مشبوه⁽⁵⁾.

(1) أرمسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 24.

(2) تركي سابق، الرجل الصنم.....، ص 46.

(3) ياسر أحمد حسن، تركيا (البحث عن مستقبل)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م، ص 34.

(4) تركي سابق، الرجل الصنم.....، ص 47.

(5) توفيق، كمال.....، ص 21.

لم يكن خوفه من العقاب هو دافعه الوحيد بل سعيه لتحسين صورته أمام السلطات أولاً وتحقيق نيته بالانتقال إلى سالونيك مركز الثورة ثانياً، هو السبب الرئيس لذلك.

وبالفعل أصبحت التقارير الصادرة من رؤسائه وأيضاً من الجواسيس تتحسن عنه، واقتنع السلطان بها، ونقله إلى سالونيك برتبة (صاغ قول أغاسي) بعد مساعيه الكبيرة مع أصدقائه لتحقيق ذلك⁽¹⁾.

ثانياً: نشاطات مصطفى كمال السياسية والعسكرية:

1- النشاط السياسي لمصطفى كمال:

أ- جمعية الاتحاد والترقي:

وصل مصطفى كمال إلى مقر عمله الجديد (الجيش العثماني الثالث) في سالونيك عام 1907م، مما أتاح له الفرصة ليجتمع بأصدقائه الضباط ويعيد تشكيل جمعية (وطن)، لكن محاولاته جميعها باءت بالفشل، حيث فوجئ بوجود مجموعة ثورية ناضجة تشكلت وتطورت في غيابه، وأنه مستبعد من قيادتها الداخلية، تسمى (الاتحاد والترقي)⁽²⁾.

بقي مصطفى كمال خارج جمعية (الاتحاد والترقي) مدةً طويلةً من الوقت، لأنهم اعتقدوا في البداية أنه جاسوسٌ مبعوثٌ إليهم للإيقاع بهم، فتم إخضاعه للمراقبة الدقيقة السرية لمعرفة نواياه، وبعد أن تأكدوا منها ضموه إلى تشكيلتهم السياسية، ومباشرةً بدأوا تلقينه مبادئ الجمعية وأهدافها، ثم نسبوه إلى منظمة (النيهيليست)⁽³⁾ التي كانت شعبةً من شعبها⁽⁴⁾.

(1) توفيق، كمال، ص 21.

* جمعية الاتحاد والترقي تحدثنا عنها بالتفصيل في الفصل الأول.

(2) Edward J Erickson, Mustafa Kemal Ataturk (Leadership- Strategy- Conflict), Osprey, Oxford, 2013, P. 9.

(3) النيهيليست: تعني العدمية أو اللاشيئية، وهي وجهة نظر تقول أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه وتتنكر أن يكون للمبادئ الأخلاقية أي أساس موضوعي. للمزيد: منير البعلبكي، قاموس المورد (عربي- إنكليزي)، دار العلم للملايين، بيروت، 1972م، ص 613.

(4) أرمسترونج، الذئب الأغبر.....، ص 29، 30.

لم يبدِ مصطفى كمال اهتماماً بأعمال المنظمة ولا بحواراتها، حتى محاولات اليهود المتكررة لضمها إلى صفوفهم لم تكن ترضيه أو تعنيه، إضافةً إلى أنه كان يحب السيطرة والتزعم وتدبير الخطط بنفسه، وهذا ما لم يتوفر له فيها.

وعلى عكس ما كان يطمح إليه فقد ظن أن اجتماعات المنظمة ستطرح المشاكل التي تحيط بالدولة العثمانية من كل جانب، لكن ذلك لم يحدث ووجد نفسه في النهاية عضواً في محفلٍ ماسونيٍّ، فأصبح كثير الانتقاد والتجريح والمعارضة لزعمائها في كل أعمالهم، وعلاقته مع زملائه الضباط لم تكن جيدةً أيضاً، لكثرة سخريته وتسليط لسانه نحوهم⁽¹⁾.

مما قلص ثقتهم به، وجعله خارج دائرة اجتماعاتهم السرية، وبات مجرد عضوٍ ثانويٍ فيها، وقد أدرك مصطفى كمال ذلك فبدأ يعمل لحسابه الشخصي دون أن يقطع علاقته بهم⁽²⁾.

ويمكننا القول، أنّ مصطفى كمال حافظ على هذا الخيط الرفيع بينه وبين الجمعية، لأنه بحكم خبرته أدرك مدى سذاجة هؤلاء الأعضاء، وقلة خبرتهم السياسية، وأخذ يترقب الوقت المناسب لتحقيق طموحاته المستقبلية على حساب أخطائهم، لذلك أدى واجباته العسكرية على أتم وجه ودون أي تقصير.

ب- الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني:

ذكرنا سابقاً أنه في تاريخ 27 نيسان 1909م، انقلبت مجريات الأحداث السياسية والعسكرية داخل الإمبراطورية العثمانية رأساً على عقب، فلم يكن متوقفاً أن تنجح جهود جمعية (الاتحاد والترقي) وتظهر نتائجها جليةً واضحةً.

في هذا اليوم وبدون سابق إنذار، استولى الاتحاديون على الحكم بجعل كل مقاليد الدولة في قبضتهم، وبعد أن ثبتوا سلطتهم وأحسوا بقوتهم وكثرة مؤيديهم، قاموا بإصدار فتوى شرعية من شيخ الإسلام لخلع السلطان (عبد الحميد الثاني) ونفيه إلى سالونيك⁽³⁾.

في غمار هذه الأحداث وتطوراتها لماذا غيَّب مصطفى كمال؟ وأين كان؟

(1) صبيح، أتاتورك، ص 70.

(2) صبيح، أتاتورك، ص 74.

(3) جبر الهلول، الاتحاديون والجمعيات السرية العربية 1916-1918م، د. م، د. ت، ص 7.

لم يكن لمصطفى كمال أي دورٍ جوهري في مجريات الأحداث، حيث فضل عدم الدخول في هذه المغامرة مجهولة النتائج، لذلك تم إرساله إلى طرابلس الغرب التي تعاني من اضطرابات ليقضي على المتمردين فيها، كانت هذه حجة الاتحاديين لإبعاده عن مجريات الأحداث لكونهم لا يرتاحون له، لكنه أنهى المهمة وعاد خلال شهرين ورغم ذلك بقي في الظل بعيداً عن أعمال الاتحاديين.

وبعد الثورة تم إرساله في عام 1910م إلى فرنسا، لحضور التدريبات العسكرية التي كانت تجري في (بيكاردي) سنوياً، وبعد عودته إلى سالونيك تمت ترقيته إلى رتبة (كول أغاسي)، وعين نائباً لقائد اللواء الثامن والثلاثين، وطوال تلك الفترة لم تتوقف معارضته للاتحاديين ولطريقة حكمهم⁽¹⁾.

2- النشاط العسكري لمصطفى كمال:

أ- ليبيا:

كان الإيطاليون يخططون لاحتلال ليبيا منذ فترةٍ طويلةٍ لكنهم انتظروا الفرصة الملائمة لذلك، وفي عام 1911م حانت تلك الفرصة، فالدولة العثمانية تملأها الاضطرابات الداخلية، وليبيا في أسوأ حالاتها نتيجة ولايتها غير الأكفاء الذين توالوا على حكمها، وكل محاولات الدولة العثمانية لتقوية ليبيا وتحصين طرابلس لم يعطِ أي نتيجة، فقد بدأت إيطاليا تحتج وتعرض على معاملة رجال السلطة العثمانية لرعاياها في طرابلس، وأخذت تدّعي بأنهم يعطلون الأعمال العلمية والتجارية للإيطاليين، لذلك هي مضطرة لاحتلال طرابلس وبنغازي لتحمي مصالحها ونفوذها.

وقد منحتهم مهلة 24 ساعةً للتخلي عن ليبيا، وعندما انتهت المهلة ولم يأت الرد سارعت إلى توجيه قواتها نحو طرابلس، وبدأت مدافعها تضرب المدينة في 2 تشرين الأول 1911م⁽²⁾.

حاولت الدولة العثمانية إنقاذ الأمر، من خلال عدد من الضباط الأتراك الذين تطوعوا⁽³⁾

(1) تركي سابق، الرجل الصنم.....، ص 50، 51.

(2) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الزهراء، الرياض، ط2، 2002م، ص 205-208. أيضاً: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1991م، ص 520.

(3) مصطفى الزين، ذئب الأناضول، دار رياض الريس للنشر، لندن، ط1، 1991م، ص 49.

لمواجهة الإيطاليين في ليبيا، وكان عليهم اتباع طرقهم الخاصة للوصول عن طريق البر إليها، بعد أن أغلق الإيطاليون الطريق البحري (مضيق الدردنيل)⁽¹⁾ في وجههم، كان أنور وفتحي أول الواصلين إلى ليبيا⁽²⁾.

أما مصطفى كمال فقد تحمس لهذه المهمة وسلك طريقاً برياً إلى مصر، حيث تنكر وعبر الحدود وصولاً إلى بنغازي⁽³⁾، وهناك تم تقسيم الجبهة إلى ثلاث مناطق:

الأولى: بقيادة ناظم بك⁽⁴⁾ في طبرق، والثانية: بقيادة عبد العزيز علي المصري⁽⁵⁾ في بنغازي، والثالثة: بقيادة مصطفى كمال في درنة، بالإضافة إلى المتطوعين الذين قادوا المقاومة الحقيقية تحت إمرة أنور باشا، بعد هذا التقسيم بدأ كل قائد مهمته التي كلف بها⁽⁶⁾.

وجد مصطفى كمال في قطاع درنة بعض قطع المدفعية الخفيفة، وبضع مئات من الجنود العثمانيين (القوات النظامية)، بالإضافة إلى رجال القبائل الذين تطوعوا للدفاع عن أراضيهم وبلغ عددهم حوالي 800 متطوع (القوات غير النظامية)، وكما هو معروف عنه فقد استغل كل الإمكانيات المتوفرة لديه أحسن استغلال⁽⁷⁾.

(1) مضيق الدردنيل: يربط بين بحر إيجه وبحر مرمرة، وهو جزء من المجرى المائي القادم من البحر الأسود المحاط باليابسة إلى أن يصل إلى البحر المتوسط، ويبلغ معدل عرضه ما بين خمسة إلى ستة كيلو مترات، وطوله ستين كيلو متراً. للمزيد: عثمان وأحمد، الموسوعة.....، ج 2، ص 103.

(2) الزين، ذئب.....، ص 49.

(3) سعيد وثابت، سيرة مصطفى كمال باشا.....، ص 7.

(4) ناظم بك: تخرج من الحربية العثمانية عام 1882م، خدم في كل من مقدونيا واليمن والحجاز، حتى عام 1901، نفي إلى فزان بعد تقرير من المخابرات عنه. للمزيد: حرب، مذكرات السلطان.....، ص 287.

(5) عبد العزيز علي المصري: ضابط وسياسي عثماني، تخرج من الكلية الحربية العثمانية عام 1904م، عمل في الجيش في مقدونيا، انضم أثناء عمله إلى جمعية الاتحاد والترقي، شارك في جيش الحركة عند إسقاط حكم السلطان عبد الحميد عام 1909. للمزيد: حرب، مذكرات السلطان.....، ص 278.

(6) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (التاريخ المعاصر بلاد المغرب)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1996م، ص 18.

(7) Erickson, OP. cit, P. 10.

معتبراً إياها من أهم الفرص في حياته ليثبت أمام القيادة العليا مدى مهاراته العسكرية وقدراته العالية، بدأ ينظم رجال القبائل، ويقودهم في غارات متعددة لا يمكن الاستهانة بها، مما جعله خبيراً في عمليات التنقل السريعة، كما خاض العديد من الاشتباكات بأسلوب حرب العصابات، فضلاً عن الهجمات المشتركة التي تكاثفت فيها القوات النظامية وغير النظامية، كان النصر من نصيب قواته مرات عديدة، وبلغ عدد الأسرى الإيطاليين لديهم 15 ألف جندياً.

كان مصطفى ناجحاً جداً، ويعود ذلك إلى قدرته الكبيرة على فرض النظام والانضباط بين قواته، قاتل ودافع في هذه الحرب حتى النهاية بكل قوة⁽¹⁾.

وناظم بك وعبد العزيز علي المصري لم يقلوا عنه، وحققوا انتصارات كبيرة على جبهاتهم أيضاً، استمر الوضع على هذه الحالة قرابة السنة، اضطرت في النهاية الدولة العثمانية بعد أن تعرضت لتهديد البوارج الإيطالية باحتلال استانبول إلى الانسحاب من ليبيا، وقبول ترك المجاهدين فيها بمفردهم في الميدان⁽²⁾.

كما جاء إعلان البلقان الحرب ضد العثمانيين لصالح إيطاليا، فقد أصبحت مهددة على أكثر من جبهة ولم يعد أمامها سوى توقيع معاهدة صلح مع الإيطاليين عرفت باسم (أوشي) في 17 تشرين الأول 1912م، وقد نصت على:

- إيقاف القتال بين إيطاليا والدولة العثمانية.
 - سحب الدولة العثمانية قواتها من ليبيا.
 - تتعهد إيطاليا بإصدار عفو عام عن المجاهدين.
 - تمنح ليبيا استقلالاً داخلياً من الدولة العثمانية.
- وهكذا عاد الضباط الأتراك إلى وطنهم، لمواجهة الخطر الجديد الذي يقرع أبوابهم⁽³⁾.

ب- غاليبولي:

(1) Erickson, OP. cit, P. 10, 11.

(2) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1994م، ص 280.

(3) الجمل وإبراهيم، تاريخ إفريقيا.....، ص 209.

استغلت دول البلقان حالة التفكك والضعف التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية -الوضع السياسي في أسوأ حالاته نتيجة الصراع على الحكم، والوضع العسكري تدهور ولم يعد كسابق عهده، فضلاً عن انشغال الجيش العثماني بالحرب ضد إيطاليا في ليبيا- وبدأت تُعقد التحالفات والمعاهدات لتتنقض على الدولة العثمانية، وتبعدها عن شبه جزيرة البلقان.

ونتيجة لما تقدم أعلنت حكومة الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية في 8 تشرين الأول 1912م، فما كان من بقية دول البلقان إلا أن أعلنت الحرب ودخلت فيها رسمياً في 18 تشرين الأول، لتصبح دول البلقان (الجبل الأسود، بلغاريا، اليونان، والصرب) قوةً واحدةً متحالفةً في الحرب ضد الدولة العثمانية⁽¹⁾.

كانت دول البلقان قد استعدت لهذه الحرب أفضل استعدادٍ فهي تنتظرها منذ وقتٍ طويلٍ، وبلغ عدد قواتها المتحالفة في أرض المعركة 715 ألف جنديٍّ مقابل 320 ألف جنديٍّ تركيٍّ.

اشتعلت الحرب بين الطرفين ولم ينقض شهرٌ على بدايتها حتى غدت استانبول تبعد أمتاراً قليلةً عن قبضة القوات البلغارية، فضلاً عن سقوط ميناء سالونيك بيد القوات اليونانية، وتقدم القوات الصربية بقوة في جميع الجهات، وخاصةً بعد استخدامها للطائرات⁽²⁾ في قصف أدرنة⁽³⁾.

وبذلك تكون هذه الجيوش قد اقتحمت تركيا الأوروبية بأكملها، ولم يعد بالإمكان إيقاف خطرهما الممتد إلى العاصمة⁽⁴⁾.

(1) عايض بن خزام الروقي، حروب البلقان والحركة الصهيونية في المشرق العربي العثماني 1330-1332هـ/ 1912-1913م، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1996م، ص 152، 153.

(2) الطائرات: تم استعمال الطائرات الأولى والطيارين الأوائل في مهام استطلاع، وأول الدول التي قامت باستعمال الطائرات كانت بلغاريا في حرب البلقان الأولى ضد مواقع العثمانيين، وسارعت الدول الكبرى لامتلاك سلاح الجو وأخصت الطائرات بمهام الاستطلاع، الاعتراض، القصف.

للمزيد: <https://ar.m.wikipedia.org>

(3) تيسير جبارة، تاريخ الدولة العثمانية 1280-1924م، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2015م، ص 241.

(4) شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد.....)، ص 215.

في هذا الوقت العصيب وأمام هذه الهزائم عاد مصطفى كمال من ليبيا إلى استانبول، وعلى الفور اتجه إلى وزارة الحربية طالباً الاشتراك في الحرب، ومباشرةً عين قائداً للفيلق المتواجد في شبه جزيرة غاليبولي، المدافع عن مضيق الدردنيل ضد هجمات البلغاريين⁽¹⁾.

كان الوضع العسكري في غاليبولي سيئاً جداً، يوجد نقصٌ في العدة والعتاد والجنود معنوياتهم منهارة، إلا أن مصطفى كمال بعزمه وإصراره قلب الموقف، وراح يشجع الجنود ويقوئهم بكلماته الحماسية الملهية بحب الوطن، وبناءً على توجيهاته تم حفر خطٍ دفاعيٍّ جديدٍ، كما تم تنظيمهم وتوزيع المهام فيما بينهم، وما أن أحس البلغاريون بذلك حتى باثروا هجومهم بقيادة الجنرال (سافا سافوت)، إلا أن مصطفى وجنوده استماتوا بالقتال وهزمهم شر هزيمةٍ، لكن البلغاريين لم يتراجعوا وأعادوا الهجوم ثماني مراتٍ ولكن دون جدوى⁽²⁾.

وبينما كانت الحرب مستمرةً على أشدها تم توقيع اتفاقية هدنة على جميع الجبهات في 3 كانون الأول 1912م، وبدأت مفاوضات الصلح في لندن بناءً على طلب الدول الكبرى، كانت شروط الصلح⁽³⁾ المقدمة من دول البلقان قاسيةً جداً، وعمت الفوضى والاضطرابات البلاد بسبب قرار مجلس الوزراء الموافقة على عقد الصلح مع دول البلقان، مما أعطى أعضاء (الاتحاد والترقي) بقيادة أنور الفرصة الذهبية للتخلص من هذه الحكومة، متذرعين بأنها ستفترط بأراضٍ هامةٍ من الدولة، وشكلوا حكومةً جديدةً تحت إمرتهم ثم أرسلوا رفضهم لشروط الهدنة⁽⁴⁾، أدى ذلك لقطع المفاوضات وعودة القتال من جديد حول أدرنة وفي شبه جزيرة غاليبولي⁽⁵⁾.

(1) هلال، السيف و.....، ص 51.

(2) الزين، ذئب.....، ص 54، 55.

(3) شروط الصلح: 1- يجب على كل من جيشي الفريقين أن يعتمد إلى الجلاء عن الأراضي التي دخلت في ملاك الفريق الآخر، 2- تعود العلاقات السياسية ومواصلات البريد والتلغراف والسكك الحديدية بين البلدين، 3- يتعهد المتعاقدان بأن يعودا إلى تنفيذ الاتفاق التجاري البحري الذي عقد في 6 فبراير سنة 1911م. للمزيد: يوسف البستاني، تاريخ حرب البلقان الأولى بين الدولة العلية والاتحاد البلقاني، دار هنداوي للنشر، القاهرة، 2012م، ص 225.

(4) الروقي، حروب البلقان والحركة الصهيونية.....، ص 156-159.

(5) البستاني، تاريخ حرب البلقان الأولى.....، ص 176.

وجتالجه، وحاول أنور أن ينفذ الموقف ووضع خطة لاسترداد أدرنة لكنها فشلت فشلاً كبيراً، وخسر العثمانيون على أكثر من جبهة ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى سقطت أدرنة كلها بيد البلغاريين، فاضطرت حكومة أنور مجبراً على توقيع الهدنة بالشروط السابقة ذاتها(1).

تم توقيع الصلح في لندن في أواخر أيار عام 1913م، لكنه لم يستمر طويلاً فكما هو معروفٌ عن الحروب يمكن لها أن توحد بلداً أو أكثر في المصالح، لكنها في الوقت نفسه يمكن أن تشعل حرباً عالميةً من أجل خلافٍ بسيطٍ في اقتسام الغنائم.

وهذا ما حصل مع اتحاد دول البلقان، حيث عادت الحرب من جديد ولكن مع فارقٍ وحيد فلم تكن موجهةً ضد الدولة العثمانية بل موجهةً ضد بلغايا، وهنا وجد الاتحاديون أن فرصتهم قد حانت لقلب الموقف، فقام أنور بحشد الجيوش والتقدم نحو جبهة البلغاريين، حتى استطاع دحر جيوشهم ودخول أدرنة وتحريرها بالكامل من أيديهم(2).

وهكذا استرجع العثمانيون أجزاءً من إقليم تراقيا بما فيها أدرنة، خطاينوس، ميديا، قرق كليسيا وبقية ضواحي استانبول، بعد توقيع معاهدة (القسطنطينية) بينهم وبين بلغاريا في 29 أيلول 1913م(3).

لم تمر هذه الحرب دون أن تترك صفةً قويةً للدولة العثمانية عامةً ولرجال الجيش والاتحاديين خاصةً، فقد فجرت هذه الحرب الحقد الدفين في قلوب شعوبٍ مسيحيةٍ حكمت قروناً طويلةً من قبل الجنس التركي المتعطرس عليهم، وكرههم وبغضهم لها كان يزداد كلما رفضت الاعتراف بحقوقهم وامتيازاتهم الدينية، وهذا ما ترجم بوضوحٍ في أرض المعركة، فالمجازر التي ارتكبوها بحق المسلمين خير دليلٍ على ذلك(4).

وغدا كل جنديٍ تركيٍ شارك في هذه الحرب، وكل سياسيٍ ومتقفٍ ومواطنٍ حرٍ(5)،

(1) البستاني، تاريخ حرب البلقان الأولى.....، ص 176، 177.

(2) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، مكتبة العبيكان، د. م، 1995م، ص 218.

(3) الروقي، حروب البلقان والحركة الصهيونية.....، ص 186.

(4) برو، العرب والترك.....، ص 408.

(5) ياغي، الدولة العثمانية في.....، ص 219.

يفكر بجدية في قوميته التركية بعيداً عن العثمنة وفكرة الشعب والأرض العثمانية، وخاصةً بعد أن وجد نفسه وحيداً في أرض المعركة، مما أدى إلى فتح الباب أمام هذه الأفكار الجديدة لتتغذى وتظهر للعيان⁽¹⁾.

ج- مساهماته في الحرب العالمية الأولى:

كانت الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في كلٍ من البلقان وليبيا أكبر مساعدٍ للاتحاديين ليسيطروا على الحكم، بحجة ضعف دعائم دولتهم وعدم كفاية قادتها، وأنهم وحدهم القادرين على إنقاذها وإعادة أمجادها من جديد⁽²⁾.

نجحوا في نقل إدارة البلاد من مجلس الوزراء إلى أيديهم، وبذلك أصبح كلٌّ من (أنور، طلعت، وجمال) هم الثلاثي القائد للدولة منذ تلك الفترة، وزعوا المهام بينهم فشغل جمال منصب وزير البحرية، وطلعت أصبح وزيراً للخارجية ورئيساً فعلياً لحكومة الدولة، أما أنور باشا فكان نصيبه الجيش!

كيف يصبح الجيش بأكمله تحت إمرة ضابطٍ رتبته مقدم؟ وهنا يظهر أمامنا دليلٌ قويٌّ وواضحٌ عن مدى نفوذ وسلطة الاتحاديين في ذلك الوقت، حيث رَفَعَ أنور إلى رتبة لواءٍ مباشرةً دون مراعاة تسلسل الرتب العسكرية ليستلم وزارة الحربية⁽³⁾.

ولكي يمحُو أنور آثار هزيمة البلقان، اندفع إلى تطوير الجيش وتحديثه براً وبحراً من خلال الاعتماد على المساعدات والخبرات الألمانية⁽⁴⁾.

وبينما كانت الدولة العثمانية تمضي في معالجة مشكلات جيشها اندلعت نيران (الحرب العالمية الأولى)⁽⁵⁾.

(1) ياغي، الدولة العثمانية في.....، ص 219.

(2) مصطفى، في أصول.....، ص 285.

(3) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ط1، 1990م، ص 225.

(4) أوزتونا، تاريخ الدولة.....، ص 228.

(5) الحرب العالمية الأولى: اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى بسبب اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند على يد القوميين الصربيين في سراييفو بتاريخ 28 يونيو 1914م، فأرسلت النمسا إنذاراً إلى صربيا، ثم أعلنت الحرب عليها بالاشتراك مع المجر =

في 1 آب 1914م، أعلنت الدولة العثمانية حيادها في بادئ الأمر، مرافقةً ذلك باستعداداتٍ عسكرية وإعلانٍ للنفي العام، مما أثار مخاوف إنكلترا وقلقها وخاصةً بعد ازدياد النفوذ الألماني داخل جيوش الدولة العثمانية⁽¹⁾.

وفي أثناء هذه الأحداث وتطوراتها نبحت عن مصطفى كمال أين هو؟

وما موقفه من مجريات الأحداث؟

كان مصطفى يشغل منصب ملحقٍ عسكري في صوفيا منذ نهاية حرب البلقان⁽²⁾، وكان يعارض بشدة دخول بلاده الحرب، فالعجز المالي وحاجة الدولة إلى الإصلاح، إضافةً إلى تأثير الحروب المتتالية على الجيش الذي يحتاج إلى الراحة والتدريب، كانت كافيةً برأيه لإبقاء الدولة على الحياد⁽³⁾.

ولكن أنور كان له رأيٌ آخر، وبادر إلى عقد اتفاقٍ سريٍّ مع ألمانيا، لم يعلم به الوزراء إلا بعد توقيعها، فاضطروا كارهين إلى الموافقة عليه، وبقي أمره سرّاً حتى نقضت إنكلترا اتفاقية الطرادين⁽⁴⁾ مع الدولة العثمانية، فكان ذلك كافياً برأي أنور لتتوقف دولته عن الحياد وتعلن الحرب ضد الحلفاء⁽⁵⁾.

= وما لبثت أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وفرنسا وبدأت بغزو بلجيكا، مما جعل بريطانيا تعلن الحرب على ألمانيا. للمزيد: نيل م. هايمان، سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ (الحرب العالمية الأولى)، ترجمة حسن عويضة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 2012م، ص 11.

(1) برو، العرب والترك.....، ص 610.

(2) المدني، تركيا.....، ص 151.

(3) سعيد سنو، تركيا الكمالية، مكتبة الصحافة للنشر، بيروت، 1938م، ص 19.

(4) اتفاقية الطرادين: تمت هذه الاتفاقية عام 1914م وكانت تنص على شراء الدولة العثمانية مدرعتين من إنكلترا، لكن إنكلترا نقضت هذه الاتفاقية في 2 آب، حيث قامت بعد أن تسلمت من الدولة العثمانية آخر قسطٍ من ثمن مدرعة السلطان عثمان، بإصدار أوامرها بألا توضع الراية العثمانية عليها، ومصادرتها هي والمدرعة رشادية. للمزيد: جمال باشا، مذكرات جمال باشا، إعداد محمد السعيد، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م، ص 211.

(5) مصطفى، في أصول.....، ص 287، 288.

انتَهز أنور الفرصة وسمح للبارجتين (بريسلو وغوبن) في 29 تشرين الأول 1914م، بضرب الساحل الروسي وإغراق عددٍ من سفنه، وكان هذا كفيلاً بإعلان الحلفاء الحرب على الدولة العثمانية⁽¹⁾، وبعد عدة أسابيع من اشتعال الحرب الأوروبية قطعت الحكومة العثمانية بتاريخ 2 تشرين الثاني 1914م علاقاتها الدبلوماسية مع دول الحلفاء، وردت هذه الدول بشن هجومٍ على الأراضي العثمانية⁽²⁾.

كان مصطفى كمال في هذه الأثناء يحاول الانتقال من مركزه في صوفيا إلى إحدى جبهات القتال، لكن طلبه قبول بالرفض عدة مراتٍ من قبل أنور بسبب الخلاف الدائم بينهما، وعندما قرر العودة إلى استانبول صدر أمر تعيينه قائداً للفيلق التاسع عشر المرابط في (غاليبولي) والمدافع عنها ضد غزو الحلفاء البحري⁽³⁾.

من قبل صديقه حقي باشا الذي استلم الأمور نيابة عن أنور الذي غادر العاصمة لقيادة هجومٍ ضد الروس في القوقاز، وعلى عجلٍ انطلق مصطفى كمال في أوائل شباط إلى (تيكرداغ) على بحر مرمرة، وهناك وجد فوج المشاة (57) فقط في انتظاره، بينما تم إرسال فوجي المشاة الآخرين إلى مصر لتعزيز الجبهة هناك، لم يقف مصطفى مكتوف الأيدي وكان مدركاً لأهمية الوقت، حيث أمر قواته بالتحرك إلى بلدة (ميدوس) ليعيد تشكيلها من جديد.

ولم تمض أيامٌ قليلةً حتى استطاع إعادة تنظيمها وتوزيعها بعد أن انضمت إليه أفواج المشاة (72 و77)، إضافة إلى كتائب الفرسان وقوات الدعم والمدفعية والعاملين في الميدان الطبي، وعلى الرغم من قلة تدريب قواته، إلا أنها أصبحت قوةً كاملةً يمكن الاعتماد عليها⁽⁴⁾.

كما أن مهارة مصطفى كمال وخبراته العسكرية التي اكتسبها من حروبه السابقة، ستظهر جليةً في مجريات الأحداث التي سنراها لاحقاً.

(1) ديفيد فرومكين، نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، تقديم منذر الحايك، دار عدنان، بغداد، ط1، 2015م، ص 115.

(2) وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، دار الاهلية للنشر، عمّان، ط1، 2003م، ص 333.

(3) سليم الصويص، أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، مطبعة شتّر، عمّان، ط1، 1970م، ص 74.

(4) Erickson, OP. cit, P. 14.

تتالت الأحداث بعد ذلك بسرعة كبيرة، وتجهيزات مجلس الحرب البريطاني اكتملت لشن الحملة البحرية المرتقبة ضد العثمانيين في الدردنيل⁽¹⁾.

بدأ أول هجوم بحري للأسطول الأنجلو-فرنسي في 19 شباط 1915م، وكان هدفه تدمير الحصون حول (سدولباهير) من الجانب الأوروبي، و(كوم كيل) على الجانب الآسيوي، لكن الدفاعات العثمانية صدّت هجومهم وأجبرتهم على التراجع، ورغم فشل هذه الهجمات إلا أنها أشاعت الذعر والخوف داخل العاصمة (استانبول)، وأصبحت حكومتها مستعدة للتخلي عنها والانتقال إلى (اسكي شهر) لتتخذ خزيتها، وهذا دليل آخر على ضعف أصحاب القرار، وكونهم مجرد ألعوبة بيد الاتحاديين⁽²⁾.

أعاد الحلفاء الهجوم أكثر من مرة، وبعد شهر من العمليات البحرية لم يستطع أسطولهم أن يحقق تقدماً كبيراً ضد البطاريات⁽³⁾ والألغام العثمانية، ورغم ذلك لم ييأسوا وأطلقوا في 18 آذار أكبر حملة ضد الدردنيل، وبحسب وصف أحد الضباط الألمان هي "أعظم معركة وقعت بين العوامات الحديدية والبطاريات البرية"⁽⁴⁾.

بعد معاركٍ عنيفة بين الطرفين انهزم أسطول الحلفاء وتعرض لخسائر كبيرة -غرق ثلاث سفن وتعطيل سبع- وعمت الاحتفالات أنحاء البلاد بهذا النصر العظيم.

ويمكن القول، أنّ القوة الإجمالية لأسطول الحلفاء في هذا الهجوم قد انخفضت بنسبة الثلث خلال يوم واحد، وهذا لا يعني أن المواقع العثمانية لم تتعرض لأضرار كبيرة، ولكن مقارنةً بما أصاب الحلفاء فهي بسيطة، وبذلك كانت هزيمة 18 آذار نهاية الحملة البحرية وبداية الحملة البرية للحلفاء في الدردنيل⁽⁵⁾.

(1) Rogan Eugene, The Fall Of The Ottomans (The Great War In The Middle East), Basic Book, New York, 2015, P. 130.

(2) Eugene, OP. cit, P. 135.

(3) البطاريات: تعني بطارية من المدفعية أو بطارية صواريخ في التنظيمات العسكرية الحديثة، وهي تعني وحدة عسكرية أي ما يعادل الكتيبة في المدفعية أو الدفاع الجوي أو قوات الصواريخ الاستراتيجية. للمزيد: <https://ar.m.wikipedia.org>

(4) Eugene, OP. cit, P. 138.

(5) هنري مورغنتو، مذكرات سفير أميركا في الأستانه، تعريب فؤاد صرّوف، مطبعة المقطم، مصر، 1923م، ص 81.

بدأ الحلفاء بحشد قواتهم وتعزيزها، وبالمقابل قام أنور بتنظيم الانقسامات المختلفة في الدردنيل وجمعها في قوة واحدة (الجيش الخامس) ووضعه تحت قيادة القائد الألماني (أوتو ليمان فون ساندرز)⁽¹⁾، كان الجيش الجديد يضم ست فرق مشاة من بينها الفرقة (19) التي يقودها مصطفى كمال، قام فون ساندرز بتغييرات كبيرة على الخطط الدفاعية بمساعدة مصطفى كمال، وبشكل دوري قاموا بتمرين القوات وتدريبها، ومن المهم ذكره أن فرقة مصطفى كمال تم تعيينها كاحتياطية في الجيش الخامس، لتكون قادرة على التحرك في أي اتجاه وفي أي لحظة عند الضرورة⁽²⁾.

بدأ الهجوم الموعود في أواخر نيسان 1915م على ثلاث محاور الشمالي، الوسط، والجنوبي، وكان من المقرر أن تهبط القوات الاسترالية في منتصف الجزيرة في موقع (جاباتيب)، لكن قوة التيارات قبالة الساحل جعلتهم ينزلون في غير المكان المخطط له، حيث وصلوا إلى (آري بورنو)، واتجهوا نحو التلال المجاورة (شونك بير) مفتاح الدردنيل⁽³⁾.

كان مصطفى كمال قريباً جداً من مكان هبوط الاستراليين، وعندما علم بوصولهم لم ينتظر أوامر القائد العام الألماني بل أعطى مباشرة أوامره لجنوده ليستعدوا للمعركة ويتقدموا باتجاه التلة، وتوجه شخصياً ليراقب الوضع العسكري ويقيمه هناك، استطاع مصطفى كمال أن يحدد مواضع الضعف بشكل صحيح.

وعلى وجه السرعة نظم قواته للهجوم، وانتظر وصول قوات العدو وفي الحال شن هجوماً مضاداً عليهم، كما أمر قوات الفيلق (27) بالهجوم أيضاً، ليزيد الضغط عليهم ويرغمهم على التراجع، وكان له ما أراد فقد استطاع منعهم من التقدم ودحرهم إلى المراكز التي نزلوا فيها على البحر، لم يعرف الاستراليين اليأس وكانوا يأملوا التقدم إلى الداخل والسيطرة على المضائق، لذلك استمر بتعزيز قواته وأعاد الهجوم مراتٍ عدة لكنه فشل⁽⁴⁾.

(1) أوتو ليمان فون ساندرز: ولد في مقاطعة بوميرانيا في ألمانيا، بدأ حياته المهنية العسكرية في عام 1874م، وخدم في العديد من الوظائف قبل تعيينه رئيساً للبعثة العسكرية الألمانية إلى تركيا في عام 1913م. للمزيد: باشا، مذكرات جمال.....، ص 150.

(2) Erickson, OP. cit, P. 15.

(3) Eugene, OP. cit, P. 153.

(4) الصويص، أتاتورك منقذ تركيا.....، ص 75، 76.

ونتيجة ذلك، خطط الإنكليز للقيام بهجوم كبير في أوائل شهر آب 1915م، قاصدين مهاجمة قمة جبل (حاجي شيمين) ليتمكنوا من الالتفاف حول منطقة (شونك بير) والسيطرة على شبه الجزيرة بعد تطويق كامل القوات التركية⁽¹⁾.

نفذ الإنكليز هذا الهجوم على جبهة (حاجي شيمين) في فجر 8 آب، "موجهين جناحهم الرئيسي نحو القمة، وجناحهم الأيمن نحو حاجي شيمين، وجناحهم الأيسر نحو شونك بير التي يدافع عنها مصطفى كمال"⁽²⁾.

واشتد القتال على الجبهات الثلاث، وأصبح الوضع شديد الخطورة، وخاصةً عندما استطاع النيوزيلنديون السيطرة على قمة (شونك بير)، وعدم قدرة مصطفى كمال على استعادتها.

ونتيجة سوء الأوضاع وتأخر وصول الإمدادات إلى الجبهة العثمانية، قرر القائد العام فون ساندروز أن يجمع الجيش في مجموعة واحدة مكونة من ستة أقسام تحت إمرة مصطفى كمال، الذي كان لا يزال عقيداً.

وهذا يقدم لنا صورةً عن مدى براعة مصطفى كمال العسكرية وذكائه، وثقة القائد العام بقدرته على إنقاذ الموقف، ودون تباطؤٍ استلم مصطفى مهمته الجديدة، وأخذ يعزز القوات ويعدّ الخطط⁽³⁾.

ثم أطلق هجوماً مضاداً قاده شخصياً في 9 آب 1915م، وبفضل عزيمته وروحه المعنوية العالية التي نشرها بين جنوده، استطاع إرغام النيوزيلنديين على ترك مواقعهم، والتراجع بعد إخلاء قمة (شونك بير).

وبذلك استطاع فك الحصار الذي سعى الإنكليز لفرضه على الأتراك، ورغم محاولاتهم الحثيثة لاستعادة تلك المواقع التي فقدوها، إلا أنهم فشلوا وخسروا أعداداً كبيرةً من جيشهم، ومصيرهم لم يكن يختلف كثيراً عن مصير باقي قوات الحلفاء التي نزلت على الساحل الآسيوي (هيليس)، ولم تستطع التقدم خطوةً واحدةً نحو هدفها، بفضل الدفاعات التركية الشديدة⁽⁴⁾.

(1) الزين، ذئب.....، ص 73.

(2) الزين، ذئب.....، ص 75.

(3) Erickson, OP. cit, P. 22.

(4) أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية.....، ص 334.

وما أن وردت أخبار هذا النصر إلى القائد العام الألماني، حتى صدر أمرٌ بمنح مصطفى كمال مرتبة الباشوية (جنرال) تقديراً له ولجهوده العسكرية، كما عين قائداً لكامل جبهة (أنافارطه)، فاندفع لحسم نتيجة هذه المعركة لصالحه، وردّ الحلفاء على أعقابهم بعد كل مرةٍ فكروا فيها باستعادة مواقعهم السابقة إلى أن يأسوا من تحقيق النصر، فانسحبوا في 31 كانون الأول 1915م من شبه جزيرة (غاليبولي) وهم يجرون أذبال الهزيمة خلفهم، وبذلك استطاع مصطفى كمال إنقاذ العاصمة استانبول من المصير المأساوي الذي كان ينتظرها⁽¹⁾.

منذ ذلك الوقت، ذاع صيت مصطفى كمال باشا في أرجاء البلاد، وأطلقت عليه الصحف ألقاباً عديدةً من بينها لقب (منقذ الدردنيل والعاصمة)، وحانت الفرصة ليستفيد هذا البطل من انتصاراته، ويجاهر بأرائه التي لم تلقَ أذاناً صاغيةً من قبل، من خلال المشاركة في قيادة البلاد، وإجبار ساسة (الاتحاد والترقي) على الإصغاء إليه والأخذ بأرائه، فمن وجهة نظره يجب استخدام الأجانب (الألمان) إذا لزم الأمر تحت إمرة الأتراك وغير ذلك مرفوضاً رفضاً تاماً، وشيئاً فشيئاً أخذ الرأي العام يناصره، ويلتف حوله ويؤيد آراءه، مما زاد غضب وحقد أنور باشا تجاهه فلم يجد سبيلاً للتخلص منه سوى بتسليمه قيادة جبهة القوقاز⁽²⁾.

ورغم معرفة مصطفى كمال لنوايا أنور باشا إلا أنه لبي الأمر دون اعتراض، واتجه مباشرةً إلى مركز قيادته الجديد في (الجيش السادس)، فوجده في حالة يرثى لها مادياً ومعنوياً، وكعادته بدأ بأداء مهمته فوراً⁽³⁾، حيث أخذ يستطلع ويرصد الوضع العام لقواته ولقوات الروس، وبناءً على ذلك توقع أن يكون الهجوم الروسي في أواخر ربيع 1917م⁽⁴⁾، ولتدارك الموقف سارع إلى تدريب القوات وتجهيزها ورفع معنوياتها، وشن حملة تطهيرٍ على الوساطات والرشاوي والمحسوبيات⁽⁵⁾.

(1) سعيد أحمد برجايوي، الإمبراطورية العثمانية (تاريخها السياسي والعسكري)، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1993م، ص 297.

(2) الجهماني، ملفات تركية.....، ص 11.

(3) هشام خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء على الخلافة العثمانية، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1، 2009م، ص 154.

(4) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 157.

(5) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 155.

فضلاً عن تحسين الملابس والأجور والخدمات الطبية، ولم يمضِ وقتٌ طويلاً حتى أصبحت فرقته من أقوى فرق القوقاز دون منافس⁽¹⁾.

وبينما كانت قواته في حالة تأهبٍ لصد الهجوم الروسي المحتمل، لعبت الأقدار لعبتها وكأنها تقف في صف مصطفى كمال، وتريد أن يظهر ويلمع نجمه ويحقق مبتغاه، فقد عمّت الفوضى والاضطرابات الأقاليم الروسية، نتيجة اندلاع الثورة فيها، في تشرين الأول 1917م، وكان ذلك سبباً لسحب جنودهم المرابطين في القوقاز لمواجهة التأثيرين داخل البلاد⁽²⁾.

انتهز مصطفى كمال هذه الفرصة الذهبية، وشن عدة هجماتٍ على القوات الروسية، فاسترد موش، بتليس، ووان، وبذلك أعاد ما خسره الأتراك على يد أنور⁽³⁾.

وفي طريقه نحو (باطوم) صدر أمر تعيينه قائداً (للجيش السابع) في سوريا، لكن الخلاف ما لبث أن شب بينه وبين القائد الألماني المسؤول عن العمليات الحربية هناك، بسبب نقده الشديد ومعارضته للخطة العسكرية المقرر تنفيذها، فلم يكن أمام أنور باشا سوى إعادته إلى العاصمة استانبول⁽⁴⁾.

كانت شخصية مصطفى كمال وجسارته العسكرية، وقدرته الواضحة على تقدير الأمور واستغلالها على أتم وجه ملفته، وغالبية المصادر والمراجع التي تتحدث عن سيرته الذاتية تؤكد ذلك بأدلة وبراهين واضحة.

بعد ذلك، تم إرساله إلى (برلين) مع ولي العهد في بعثة عسكرية، تعرّف فيها على الوضع الحربي في ألمانيا، وعلى استراتيجيتهم القتالية، ثم عاد وكله يقين بخسارة ألمانيا، وبقي منسياً حتى أصبحت الظروف العسكرية في أسوأ حالاتها، وتحتاج إلى من ينظم صفوفها ويقودها إلى النصر من جديد⁽⁵⁾، لذلك في آب 1918م تم تعيينه قائداً عاماً للجيش في⁽⁶⁾

(1) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 154، 155.

(2) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 158.

(3) سعيد وثابت، سيرة مصطفى كمال باشا.....، ص 8.

(4) سنو، تركيا.....، ص 29.

(5) الصويص، ألتاتورك منقذ تركيا.....، ص 79.

(6) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 181.

في سوريا، وما أن تفقد أحوال الجبهات مع صديقه القائد الألماني فون ساندرز حتى أدرك خطورة الموقف، وخصوصاً أن المعلومات لديه تؤكد استعداد الإنكليز للقيام بهجوم كبير ضدهم، ومع بزوغ فجر التاسع عشر من أيلول بدأ هذا الهجوم⁽¹⁾.

بمساعدة الأمير فيصل بن حسين الذي قاد القوات العربية⁽²⁾، ودخلوا إلى فلسطين وأجبروا القوات التركية وحلفائها الألمان على التراجع نحو دمشق ثم إلى حلب، بعد أن ألحقوا بهم خسائر كبيرة، وهناك قام مصطفى كمال الذي لا يعرف الكلل بالإشراف على إعداد الخطوط الدفاعية على طول الحدود الجنوبية لتركيا، وقبل أن يشن (النبى) -القائد البريطاني- الهجوم على الجيش التركي، وقّعت الدولة العثمانية هدنةً (موندروس)⁽³⁾ مع الحلفاء في 30 تشرين الأول 1918م مما أدى لإنهاء الحرب⁽⁴⁾.

كان التراجع الناجح الذي قاده مصطفى كمال في وقت كان فيه عدوه يتابع تقدمه بعدوانية لا يستهان بها، فهو يعدّ بحسب التكتيكات العسكرية من أصعب العمليات التي يمكن أن يتخيلها المرء، فضلاً عن سيطرته المذهلة على جيشه في ظروف شبه مستحيلة، كما أن العديد من المؤرخين عدّوا نجاح تنفيذ هذه العملية علامةً فارقةً ومميزةً في التاريخ العسكري.

ثالثاً: الوصول إلى الزعامّة:

(1) خضر، أتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 181- 183.

(2) كان الشريف حسين والد الأمير فيصل قد أعلن من مكة في 1916 ثورة العرب على الظلم والاستعباد، مفتتحاً الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال بإطلاق الرصاصة الأولى من بندقيته على قلعة جباد مقر الجيش العثماني، ثم دقت طبول الحرب وأوقدت النيران على شعوب الجبال، وشرع العرب بمهاجمة الأتراك في جميع ثكناتهم في الحجاز. للمزيد: قلعجي، الثورة العربية.....، ص 226.

(3) هدنة موندروس: 1- فتح البحر الأسود وجناق قلعة للمرور إلى البحر الأسود، 2- يجب الإرشاد إلى مواقع الألغام وأماكن الغواصات في المياه العثمانية، 3- تقديم معلومات عن أماكن الألغام الموجودة في البحر الأسود، 4- أن يجمع أسرى الحرب التابعين للحلفاء مع الأسرى والموقوفين من الأرمن في الأستانة، وتسليمهم بلا شرط ولا قيد لحكومات الحلفاء. للمزيد: مصطفى كمال أتاتورك، مذكرات الغازي مصطفى كمال باشا، تعريب عبد العزيز أمين الخانجي، مطبعة النهضة، مصر، 1926م، ص 95.

(4) أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية.....، ص 335.

1- مصطفى كمال في الأناضول:

عاد مصطفى كمال إلى استانبول فوجدها تتخبط في الذل والهوان بعد توقيع شروط الهدنة، أصابها الفقر وانهارت معنويات سكانها، عاصمتها محتلة وقادتها من جماعة (الاتحاد والترقي) تركوها وفروا إلى الخارج، وغدت مستعدة لقبول أي شرط يفرضه عليها الحلفاء.

ولم يكن حال المناطق الأخرى أفضل منها، فقد عمّها الاضطراب والفوضى، وزاد الأمر سوءاً عندما قام اليونانيون باحتلال أزمير في أيار 1919م، بتفويض من الحلفاء وتحت حمايتهم، فعدها الأتراك أكبر مذلة لهم، وتعالّت أصوات غضبهم في اجتماع احتجاجي عقدوه في استانبول، كان بمثابة البذرة الأولى لحركات المقاومة اللاحقة، وكانت الأناضول أول من احتجت وعارضت وقامت باشتباك مسلح مع اليونانيين، متبعةً حرب العصابات التي أصبحت طريقها الوحيد للنضال ريثما يأتي من ينقذها ويرتب صفوفها⁽¹⁾.

في هذه الأثناء، بينما كانت الاجتماعات تعقد في استانبول لتأديب هذه المناطق، كان مصطفى كمال يبحث عن وسيلة تساعد على السفر إلى الأناضول، التي وجد فيها أفضل قوة شعبية يمكن الاعتماد عليها⁽²⁾.

لم يستمر بحثه طويلاً، فقد صدر أمر تعيينه مفتشاً عاماً على (سمسون)، ومنح صلاحيات واسعة ليعيد الأمان والنظام إلى المنطقة⁽³⁾.

ومن لحظة وصوله راح ينظم الجيش ويرفض سحب سلاحه، كما بات يدعم حركات المقاومة ويزودها بحاجاتها من العتاد والجنود⁽⁴⁾، عدا عن إدراكه لأهمية دعم قادة الجيش التركي له، فبادر إلى الاجتماع مع الضباط حسين رؤوف، وفؤاد علي باشا⁽⁵⁾.

(1) برنارد لويس، ظهور تركيا الحديثة، ترجمة قاسم عبده قاسم وساميه محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016م، ص 297، 298.

(2) سعيد وثابت، سيرة مصطفى كمال باشا.....، ص 10.

(3) زين العابدين شمس الدين نجم، تاريخ الدولة العثمانية، دار المسيرة، عمان، ط1، 2010م، ص 417.

(4) الصويص، أتاتورك منقذ تركيا.....، ص 95.

(5) لويس، ظهور تركيا.....، ص 302.

ورفعت باشا في (أماسيا)، وحصل على تأييدهم في خطته، ثم قرروا الدعوة إلى عقد مؤتمر وطني في (سيواس)، للدفاع عن البلاد بعيداً عن أي تأثير داخلي أو خارجي، بعد حصوله على موافقة الجنرال كاظم قره بكير وغيره من القادة العسكريين على ما تقدم، لم تتأخر أخبار مصطفى كمال بالوصول إلى استانبول، التي أحست بخطرته وطالبت بالعودة إليها، ولما رفض الامتثال لأوامرها تم عزله من منصبه بفرمان من السلطان، ولتجنب مصطفى كمال تأجيج الوضع مع الحكومة العثمانية قدم استقالته⁽¹⁾.

هذه الخطوة التي قام بها مصطفى كمال كانت مفتاحاً ثميناً في طريق تحقيق مشروع التغيير الذي يؤمن به، فلم يكن لاستقالته أي تأثير يذكر، واختير من قبل مناصريه ليكون قائداً لهم، بعد ذلك اجتمع في (أرضروم) بتاريخ 23 حزيران 1919م مع القادة العسكريين ومندوبي المناطق المجاورة، تناقشوا وحلوا وقرروا المحافظة على حدود الأراضي التركية، وحمايتها من أي تدخل أجنبي أو احتلال، واختاروا مصطفى رئيساً للجنة التي ستمثلهم في (سيواس)⁽²⁾.

وبينما كان المؤتمر مستمراً في جلساته، جاءت أوامر السلطان إلى القائد كاظم قره بكير باعتقال مصطفى كمال وإرساله إلى العاصمة، لكنه قرر تجاهل الأمر وعدم الانصياع له، باعتبار أن السلطان وحكومته باتوا ألعوبة بيد الإنكليز⁽³⁾.

انطلاقاً من هذا النصر الوطني الذي حققه مصطفى كمال، انعقد مؤتمر سيواس في 4 أيلول 1919م، وتوافد إليه المندوبون من كافة المناطق، وأثناء مناقشاتهم وصلت تحذيرات إلى مصطفى كمال بأن الحكومة أرسلت قوات من سلاح الفرسان الكرد لاعتقاله وإفشال الاجتماع، وعلى الفور قاد قواته لمواجهةهم ونجح في ترهيبهم ورددهم على أعقابهم، وقد مكّنه ذلك من جمع كلمة المندوبين حول أفكار مؤتمر (أرضروم)⁽⁴⁾، وتأسيس لجنة تنفيذية تحولت إلى (حكومة مؤقتة) مستقلة عن حكومة استانبول ومجاوبة لها، وانتخب مصطفى كمال رئيساً لهذه الحكومة⁽⁵⁾.

(1) لويس، ظهور تركيا.....، ص 303.

(2) هلال، السيف و.....، ص 56، 57.

(3) خضر، أتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 200، 201.

(4) Erickson, OP. cit, P. 34.

(5) أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية.....، ص 339.

وسرعان ما أحكم قبضته على مقاليد الأمور في الأناضول كلها، وعندما لم تستجب حكومة العاصمة لمطالبه قطع كل اتصال بها، وأمام هذه المستجدات لم يكن بمقدور السلطان سوى الانصياع لرغبتهم، وتأليف حكومة جديدة برئاسة علي رضا باشا، إضافة إلى إجراء انتخاباتٍ لبرلمانٍ جديدٍ⁽¹⁾.

تمت الانتخابات في أواخر 1919م، ونجح القوميون المعارضون ومعهم مصطفى كمال بمقاعِد في المجلس النيابي الجديد، ثم عقدوا أول اجتماعاتهم في استانبول، وأكدوا على بيانات (أرضروم وسيواس).

لم يتوقف النواب في الأسابيع التالية عن أداء مهامهم بكل جسارة وقوة، مما جعلهم كالشوكة في حلق الحلفاء الذين زاد غضبهم⁽²⁾، فقرروا تثبيت احتلالهم لاستانبول من خلال تعزيز قواتهم السابقة بقواتٍ جديدةٍ، دخلت أحياء العاصمة في 16 آذار 1920م، ثم اقتحمت المجلس النيابي واعتقلت أنصار مصطفى كمال وفتتهم إلى مألطة.

لم يقف مصطفى كمال مكتوف الأيدي، فهو يعرف مسبقاً أن السلطان وحكومته سيتخاذلون ويرضخون للحلفاء، حيث دعا إلى إقامة انتخاباتٍ نيابيةٍ عاجلةٍ على أن تكون (أنقرة) مقراً للمجلس الجديد -انتقل مصطفى كمال إلى أنقرة وجعلها مركزاً له في 27 كانون الأول 1919م- جرت الانتخابات وتم تشكيل البرلمان الذي عقد أول اجتماعاته في 23 نيسان 1920م تحت مسمى (المجلس الوطني الكبير)⁽³⁾.

وبينما كان مصطفى كمال يكرس جهوده لإنقاذ البلاد من قبضة الأعداء، نجد السلطان يعيد تعيين صهره فريد باشا رئيساً للوزراء، ويشكل جيشاً لمحاربة الوطنيين والقضاء عليهم، فضلاً عن إصدار فتوى باعتبارهم أعداءً له، وقتالهم واجبٌ ديني، والحكم بالإعدام على مصطفى كمال ومناصريه، فما كان من الوطنيين سوى القيام بحركةٍ مضادةٍ أفتوا فيها ببطلان أي قرارٍ صدر تحت الضغط الأجنبي، كما أعلنوا خيانة حكومة فريد باشا⁽⁴⁾.

(1) أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية.....، ص 339.

(2) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، جزآن، دار الفكر للنشر، القاهرة، ط1، 1992م، ج2، ص 340.

(3) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ج1، ص 261.

(4) لويس، ظهور تركيا.....، ص 307.

ويمكن القول بأن هذه الفترة بالتحديد تعتبر من أخرج وأصعب الفترات في تاريخ النضال الوطني التركي من أجل الاستقلال، بدايةً من المواجهات التي دارت بين الأتراك والفرنسيين في جنوب غرب تركيا، واختراق الأرمن الحدود من جهة الشرق، إضافةً إلى توسيع اليونانيين لمناطق سيطرتهم في الغرب وإحراقهم للقرى التركية⁽¹⁾.

وبعيداً عن هذه الأوضاع المضطربة، لاحت بشائر تحسن الموقف وتحوله لصالح الكماليين، بتوقيع حكومة السلطان في 10 آب 1920م معاهدة (سيفر) في مؤتمر الصلح، وكان لإعلان نصوص المعاهدة الأثر الأكبر في قلب موازين القوى، حيث عمّت مشاعر السخط أرجاء البلاد، ضد المعاهدة والموقعين عليها، وبدأت الجماهير تتطلع إلى حكومة مصطفى كمال وتأييدها، وباتت تهمة خيانة الوطن أقل ما يوصف به من يعارض الحركة الكمالية⁽²⁾.

استغل مصطفى كمال الحراك الشعبي لصالحه عن طريق تأليف حكومة (سلام) وطنية، وتعيين عصمت باشا رئيساً لهيئة أركان الحرب العامة فيها⁽³⁾.

ثم اتجه إلى حلّ المشاكل التي تواجهه بحنكةٍ وذكاءٍ الواحدة تلو الأخرى، ونجده بخطوةٍ مفاجئةٍ يرسل سفيراً إلى موسكو لطلب الأسلحة والذخيرة منها، لمحاربة الإمبرياليين الغربيين -العدو المشترك للبلدين- وتنتج مبادرة التقارب التي سعى لها، وترسل له موسكو بعد ذلك ما يحتاجه باستمرار، ثم يقوم بتعيين القائد كاظم قره بكير في الجبهة الشرقية للتعامل مع الأرمن وإيقاف تقدمهم، ويستطيع كاظم تحقيق نصرٍ ساحقٍ عليهم واستعادة (قارص)، والعديد من المناطق الأخرى بموجب معاهدةٍ تم توقيعها بين الطرفين⁽⁴⁾، ثم تتابعت انتصارات مصطفى كمال عندما خاض حرباً شرسةً ضد القوات الإيطالية، التي أعلنت جلاءها عن النقاط العسكرية التي كانت تحتلها في الأناضول كافةً في 5 تموز 1921م⁽⁵⁾.

(1) أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية.....، ص 341.

(2) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية.....، ج1، ص 263، 264.

(3) برجايوي، الإمبراطورية العثمانية.....، ص 307.

(4) Erickson, OP. cit, P. 35, 36.

(5) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية.....، ج1، ص 273.

ثم هاجم القوات الفرنسية في جنوب الأناضول وخاصةً في (كيليكيا)، ولمّا أحس الفرنسيون بخسارتهم المؤكدة، اعترفوا بالحكومة الكمالية وسارعوا إلى عقد اتفاقٍ معها، كان من نتائجه جلاء الفرنسيين عن (كيليكيا)، واستعادة الأسرى.

وبهذه الانتصارات العسكرية التي حققها مصطفى كمال، أصبح اليونانيون وحيدون في ساحة المعركة دون أي دعمٍ خارجيٍّ، وبدأ العد التنازلي لدحرهم عن البلاد والقضاء على مطامعهم إلى الأبد⁽¹⁾.

ويمكننا تقسيم الحرب التي خاضها الأتراك ضد اليونانيين إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في 22 حزيران 1920م، هزمت فيها القوات العثمانية هزيمةً نكراءً. المرحلة الثانية: في أوائل كانون الثاني 1921م، كان الأتراك قد أفلقوا من هزيمتهم الأولى، واستجمعوا قواهم لمواجهة اليونانيين، بحيث استطاعوا بقيادة عصمت باشا تحقيق نصرٍ استراتيجيٍّ عليهم، وأرغموهم على التراجع بالقرب من (إينونو)⁽²⁾.

في هذه المرحلة أيضاً، بدأت مبادرات الصلح تطرح من قبل الأوروبيين في (لندن)، ولكنها باءت بالفشل بسبب رفض اليونانيين الانصياع لها من جهة ومطالب مصطفى كمال من جهة أخرى⁽³⁾، فما كان من اليونانيين سوى القيام بهجومٍ ثانٍ على جميع الجبهات التركية، انتهت بهزيمةٍ ثانيةٍ في (إينونو)⁽⁴⁾.

وفي 8 حزيران 1918م استعد اليونانيون استعداداً عظيماً للرد على خساراتهم السابقة، وكان هجومهم أعنفٌ وأقوى، واستطاعوا إحراز تقدمٍ كبيرٍ بوصولهم إلى (اسكي شهر)⁽⁵⁾، فتعالت أصوات المعارضة خوفاً من سقوط أنقرة الذي أضحى قريباً⁽⁶⁾.

(1) الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية.....، ج1، ص 273.

(2) لويس، ظهور تركيا.....، ص 308.

(3) الصويص، ألتاتورك منقذ تركيا.....، ص 139، 140.

(4) الصويص، ألتاتورك منقذ تركيا.....، ص 151.

(5) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 217.

(6) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 219.

واضطر المجلس الوطني نتيجة ذلك إلى قبول مطلب مصطفى كمال، ومنحه منصب القائد العام للجيش بأكمله مع صلاحياتٍ واسعة⁽¹⁾.

وهنا سَننتقل إلى الفترة الثانية من هذه المرحلة التي تجلت بقيام مصطفى كمال بتحريك سريع، واتخاذ العديد من الإجراءات اللازمة لإنقاذ الموقف، ولم يمر وقتٌ طويلاً حتى تابع اليونانيون هجومهم في 23 آب 1921م، وبعد اشتباكاتٍ داميةٍ بين الطرفين تمكن مصطفى كمال في النهاية من الانتصار عليهم، وإجبارهم على التراجع إلى أبعد نقطةٍ خرجوا منها، بعد أن شن على جناحهم الأيسر عند نهر (سقاريا) هجوماً مضاداً محاباً كل أثرٍ لهم⁽²⁾.

غيرَ نصر (سقاريا) مجريات الأحداث، وأخذت القوى الغربية تحاول عقد هدنةٍ بين الحكومتين، لكن جميع المحاولات باءت بالفشل⁽³⁾، في هذه الأثناء كان اليونانيون قد أعلنوا استقلال إمارة (إيونيا) من جهة، وحشدوا قواتهم في (تراقيا) من جهةٍ أخرى استعداداً لدخول استنبول، لم يكن الكماليون بمعزلٍ عن هذه الأحداث، فقد استعدوا أفضل استعدادٍ لحسم هذه المشكلة، وفي 26 آب 1922م كانت المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه الحرب⁽⁴⁾.

حيث وجّه الأتراك ضربتهم القاضية، بدك معاقل اليونانيين بالمدفعية، وأجبروهم على التراجع من أمامهم بكل قوةٍ، فانهزموا شر هزيمةٍ بعد خمسة أيامٍ من العمليات العسكرية المتواصلة⁽⁵⁾، وأخيراً تم تحرير أزمير في 9 أيلول 1922م بعد معاناة ثلاث سنواتٍ ونصفٍ من الاحتلال، كان هذا النصر الذي حققه مصطفى كمال نصراً تاريخياً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى⁽⁶⁾.

(1) خضر، ألتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 219.

(2) الصويص، ألتاتورك منقذ تركيا.....، ص 165، 166.

(3) سعيد وثابت، سيرة مصطفى كمال باشا.....، ص 49.

(4) سعيد وثابت، سيرة مصطفى كمال باشا.....، ص 53، 54.

(5) Erickson, OP. cit, P. 45, 46.

(6) الصويص، ألتاتورك منقذ تركيا.....، ص 193.

فغدا القائد المظفر الذي لا يقهر، ورجل المواقف الصعبة، وفاقته شعبيته التوقعات في الأوساط التركية وخارجها⁽¹⁾.

لكن هذا النصر لم يوقف خطر اليونانيين، ولم يجعلهم يستسلموا، حيث سارعوا إلى حشد قواتهم وإعادة تنظيمها في (تراقيا)، تحضيراً للهجوم على استانبول، وإدراك مصطفى كمال لمغبة هذه الكارثة في حال وقوعها، دفعه إلى تسيير قواته بقيادة عصمت باشا عبر الدردنيل المحتل من قبل الإنكليز، وما أن وصل عصمت باشا إلى (جناق قلعه) حتى اعترضوا طريقه لمنعهم من التقدم، وكادت الحرب تشتعل من جديد لولا مسارعة المندوب الفرنسي إلى طلب الهدنة مع مصطفى كمال، وتعهده بإعادة (تراقيا) إلى الأتراك، وإجلاء اليونانيين عنها بموافقة الحلفاء شريطة وقف القتال⁽²⁾.

وهكذا استطاع مصطفى كمال هذه المرة أن يملّي شروطه على الحلفاء في 11 تشرين الأول 1922م، بتوقيع هدنة جديدة معهم في (مودانيا) على بحر مرمرية، وبموجبها عادت (تراقيا) إلى تركيا، إضافة إلى استانبول والمضائق التي استمر وجود عدد من وحدات الحلفاء فيها، ريثما يتم عقد مؤتمر السلام⁽³⁾.

2- مؤتمر لوزان:

حاولت دول الحلفاء حتى آخر لحظة أن تسلب من الأتراك هذا النصر، مستغلة وجود حكومتين في الدولة العثمانية، وآملة أن يشب الخلاف بينهما وتضرب إحداها الأخرى، فتزداد مكاسبهم ويفرضوا شروطهم، وكمحاولّة أخيرة منهم أرسل الحلفاء دعوة إلى حكومتي أنقرة واستانبول معاً لحضور مؤتمر السلام المقرر في مدينة (لوزان)، ونجحوا في إثارة القلاقل في أرجاء البلاد، وكثر الأخذ والرد بين حكومة استانبول، التي أرادت حضور المؤتمر كطرفٍ مفاوضٍ، يريد سلب النصر من أصحابه الحقيقيين⁽⁴⁾.

(1) الصويص، ألتاتورك منقذ تركيا.....، ص 193.

(2) أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية.....، ص 346.

(3) مانتران، تاريخ الدولة.....، ج 2، ص 345.

(4) مصطفى كمال ألتاتورك، الخطاب العظيم (ألتاتورك مصطفى كمال باشا)، تقديم مصطفى طلاس، ترجمة أحمد سليمان الإبراهيم ومحمد يوفاء، دار طلاس للنشر، دمشق، ط 1، 2010م، ص 428، 429.

وبين حكومة أنقرة التي أصرت على أنها الممثل الشرعي والوحيد للبلاد.

وهنا أدرك مصطفى كمال أن الوقت قد حان لوضع حد لسلطة السلطان السياسية، من خلال (إلغاء السلطنة العثمانية)، وقدم هذا الاقتراح في 31 تشرين الأول 1922م لجمعية الدفاع عن الحقوق، ثم طرح المشروع على المجلس الوطني في اليوم التالي 1 تشرين الثاني، وبسبب معارضته أُحيل إلى ثلاث لجانٍ للمناقشة (العسكرية، الدستورية، والشؤون الدينية)⁽¹⁾.

وبينما زاد الاعتراض بين المجتمعين على هذا الاقتراح، تدخل مصطفى كمال ورد عليهم قائلاً: "أيها السادة: السيادة والسلطة لا تعطى لأحدٍ من قبل أحد.... إنها تؤخذ بالقوة والمقدرة والإكراه... السؤال المطروح هنا ليس حول ما إذا كنا سنعطي السيادة والسلطنة للأمة... لقد حصلت عليها فعلياً، السؤال هو كيف سنجد هذا الواقع، وهذا سيحدث لا محالة، وإذا نظر كلٌّ منا إلى الأمر بصورةٍ طبيعيةٍ فلا بدّ من أن يوافقني الرأي، حتى إذا لم يوافق فإن الحقيقة ستتجسد، ولكن بعض الرؤوس قد تطير خلال العملية....".

كان كلام مصطفى كمال بكل ما فيه من عبارات التهديد والوعيد، قادراً على انتزاع الموافقة على المشروع بالإجماع، والصوت الوحيد الذي عارض اختنق بين أصوات المؤيدين⁽²⁾.

وما أن تم إقرار القرار، حتى سارع السلطان (وحيد الدين)⁽³⁾ إلى مغادرة استانبول هارباً نحو (سان ريمو) في إيطاليا⁽⁴⁾.

(1) أتاتورك، الخطاب العظيم.....، ص 429، 430.

(2) مرغريت حلو، الإسلام والسياسة في تركيا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مركز الدراسات الأرمنية، بيروت، 1995م، ص 39.

(3) وحيد الدين: آخر سلاطين تركيا من سلاطين الدولة العثمانية، ويعرف باسم محمد السادس، وهو ابن السلطان عبد الحميد، ولد عام 1861م وخلف أخاه السلطان رشاد (محمد الخامس) عام 1918م، وهو في سن السابعة والخمسين على أثر هزيمة تركيا في الحرب العظمى. للمزيد: الكيالي، موسوعة.....، ج7، ص 283.

(4) أوزتونا، تاريخ الدولة.....، ص 261.

وتم تعيين (عبد المجيد الثاني)⁽¹⁾ بدلاً منه بلقب خليفة فقط⁽²⁾، وهكذا اشترك وفد أنقرة المؤلف من رئيس الوفد عصمت باشا، ووزير الصحة رضا نور، والخبير المالي حسن سقا في مؤتمر (لوزان)، الذي افتتح أعماله في 21 تشرين الثاني 1922م، وبعد مفاوضات ومناقشات وتأجيلات تم في النهاية توقيع معاهدة (لوزان) في 24 تموز 1923م، حققت هذه المعاهدة أمانى الأتراك من خلال اعترافها باستقلال (تركيا)، وإنهاء الاحتلال الأجنبي لأراضيها، إضافة إلى الاعتراف بامتيازات وحقوق الأتراك، وتبادل السكان بين اليونان وتركيا⁽³⁾.

وهكذا نجد أن مؤتمر (لوزان) كان نصراً سياسياً عظيماً، حققه مصطفى كمال بعقريته وحسن تدبيره للأمور أولاً، وقدرة عصمت باشا صاحب الحنكة السياسية والصلابة التي لا تكسر ثانياً.

رابعاً: الدولة التركية الجديدة:

1- تغيير نظام الحكم:

أ- إعلان الجمهورية:

أخذ مصطفى كمال يستعد للمرحلة القادمة من الصراع السياسي، ويخطو خطواته بكل قوة ودون تهاون، ليصل إلى هدفه الأكبر بتحويل تركيا إلى بلد عصري، يمتلك كل جوانب الحضارة والتقدم، ويخلو من مظاهر الماضي البالية التي أثقلت كاهله عبر الزمن⁽⁴⁾.

(1) عبد المجيد الثاني: هو ابن السلطان عبد العزيز الأول، كان الخليفة العثماني الأخير، تولى الخلافة من 19 تشرين الثاني 1922 حتى 3 آذار 1924، ولد في استانبول، وتولى حكم الدولة العثمانية بعد أن تم إلغاء نظام السلاطين وتجريد الخليفة من جميع امتيازاته. للمزيد: منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1992م، ص 283.

(2) أوزتونا، تاريخ الدولة.....، ص 261.

(3) أحمد نوري النعيمي، النظام السياسي في تركيا، دار زهران للنشر، عمان، ط1، 2011م، ص 66، 67.

(4) أتاتورك، الخطاب العظيم.....، ص 445.

وقد تمحورت خطة مصطفى كمال بجمع كلمة الشعب حوله، حيث راح يتجول في البلاد ويخاطب الناس بأحاديثٍ مطولة، انتهت بتشكيل حزبٍ سياسيٍ حقيقيٍّ أطلق عليه اسم (حزب الشعب)⁽¹⁾.

في هذه الأثناء كانت دائرة خصوم مصطفى كمال تتسع وتزداد شيئاً فشيئاً، وأصدقاء أمس أصبحوا أعداء اليوم، وعلى رأسهم حسين رؤوف⁽²⁾ الذي أخذ يجمع المناصرين حوله، ويندد بسياسة مصطفى كمال الرامية للسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد، ولكي يقف مصطفى كمال أمام مخططاتهم عمل على خلق أزمةٍ سياسيةٍ داخل المجلس الوطني، ليجبرهم على حلّ البرلمان وإجراء انتخاباتٍ نيابيةٍ جديدةٍ⁽³⁾.

تم فيها انتخاب مصطفى كمال رئيساً للمجلس الجديد بالإجماع في 13 آب 1923م، تتالت الأحداث بعد ذلك لتشمل انسحاب قوات الحلفاء من استانبول في 2 تشرين الأول 1923م، ودخول القوات التركية إليها في 6 تشرين الأول، وعقب ذلك أصدر المجلس الوطني في 13 تشرين الأول قانوناً بجعل (أنقرة) عاصمة تركيا الجديدة بدلاً من استانبول⁽⁴⁾، فالتغيير الذي هدف مصطفى كمال إلى تحقيقه، كان لا بد من أن يلبسه حلةً جديدةً بعيداً عن ذكريات الماضي وسلالاته الحاكمة، و(أنقرة) كانت أفضل مكانٍ لذلك، ثم جاء دور التغيير الجذري والأخير لمصطفى كمال، باعتباره بداية النهاية لخطته السياسية، وقد تمثل بإعلان الجمهورية التركية في 29 تشرين الأول 1923م، وفوزه برئاستها بإجماع من المنتخبين⁽⁵⁾.

(1) أتاتورك، الخطاب العظيم.....، ص 445.

(2) حسين رؤوف: ولد في استانبول، درس في ليبيا في مدرسة عسكرية حيث كان والده والياً، وتخرج من الأكاديمية البحرية في استانبول، انضم إلى البحرية التركية بعد تورطها في اليمن وسامسون وشارك في حرب تركيا ضد الإيطاليين في ليبيا، وفي الحرب البلقانية الثانية، انضم إلى مصطفى كمال في تنظيم المقاومة الوطنية في الاناضول، ثم أخذ موقف المعارضة ضد مصطفى كمال وعصمت باشا. للمزيد: باشا، مذكرات جمال.....، ص 179.

(3) خضر، أتاتورك ودوره في القضاء.....، ص 238، 239.

(4) عزيز خانكي، ترك وأتاتورك، المطبعة العصرية، مصر، د. ت، ص 17، 18.

(5) سليمان بن صالح الخراشي، كيف سقطت الدولة العثمانية، دار القاسم، الرياض، ط1، 2000م، ص 85.

لا يمكن أن يمر مثل هذا الحدث الضخم، دون أن يثير جدلاً كبيراً وردّات فعلٍ متناقضةٍ بين مؤيّد ومعارضٍ له، وعلى الرغم من الأصداء الإيجابية التي لاقاها هذا القرار بين غالبية أفراد الأمة، نجد في الوقت نفسه أقلام بعض الصحفيين والسياسيين في استانبول، تمتد إليه وتشكك في صحته، وتهاجم صانعيه، وتثير العديد من التساؤلات حول هذا النظام الجديد وانعكاساته على الخلافة واستمرارها(1).

وقد لاحظنا أنّ منتقدي الجمهورية، هم أنفسهم الذين استغلوا عواطف الناس الدينية وعقائدهم الصادقة باسم الخلافة، لكي يحققوا أهدافهم الشخصية، وأطراف المعارضة أمثال رؤوف وأنصاره، كانت مشكلتهم مع مصطفى كمال مشكلةً شخصيةً، متمثلةً بكرههم لتفوقه وتسلطه بحكمٍ فرديٍّ عليهم، ولو استطاعوا التحكم بزمام الأمور وإبعاده عن طريقهم، لأصبحت آراءهم مخالفةً لما كانت عليه.

ب- إلغاء الخلافة:

قبل الدخول في تفاصيل إلغاء الخلافة، تجدر بنا الإشارة إلى اختلاف المصادر والمراجع حول عمالة مصطفى كمال للإنكليز، وتنفيذ رغبتهم في إلغاء الخلافة، فالمؤيد يمدحه والمعارض يزمه، ولكن موضوعيين:

-فقد الخليفة مكانته الدينية منذ قبوله دخول الحرب العالمية الأولى، فلم تنجح دعوته في حشد المسلمين ضمن صفوف الجيش العثماني، وأكبر دليلٍ على ذلك دخول الجيوش العربية والهندية -المسلمة- إلى جانب الحلفاء ضد العثمانيين، ولا يستطيع أي مصدرٍ أو مرجعٍ مؤيداً كان أم معارضاً لسيرة مصطفى كمال أن ينكر ذلك، وهو ما عرف ببقطة العرب.

-ألم يصبح الخليفة ألوبةً بيد الإنكليز منذ قبوله هدنة مودروس!، وفرض الحلفاء الاحتلال على العاصمة استانبول، وبدلاً من إرساله الجيوش لمساعدة قوات مصطفى كمال التي تحارب من أجل استقلال البلاد وجّهها ضده، عدا عن ذكر المصادر لدعوة مصطفى كمال الخليفة للاشتراك معه في محاربة الحلفاء، وعدم الانصياع لهم ولكنه رفض، وكل المصادر الأخرى التي عارضت ذلك ادّعت استقاء معلوماتها من كتاب (الدّنب الأغر) لأرمسترونج، وجميعها غير صحيحةٍ ومخالفةٍ لما ذكر في الكتاب، وهذا غير ممكن، لأننا نشاهد الخليفة (عبدالمجيد) يعيد إحياء أمجاد أسلافه.

(1) أتاتورك، الخطاب العظيم.....، ص 476، 477.

أي يعود إلى الماضي بأفكار مملوءة بعاداتٍ وتقاليديّ أبلاها الزمن، ولا يتطلع إلى المستقبل ولا إلى اللحاق بالدول التي سبقت بلاده بآلاف الخطوات بتطورها وحدثتها وازدهارها، كما يقوم بالتمثّل بالسلطان (محمد الفاتح) في ارتداء الجبّة والعمامة، والذهاب إلى الصلاة في جامع (آيا صوفيا) على ظهر جوادٍ أبيضٍ محاطٍ بالفرسان والجماهير، أليس هذا كافياً لمعرفة طموحات وتوجهات الخليفة المستقبلية؟.

استقبل أيضاً الدبلوماسيين والسفراء الأجانب في قصره⁽¹⁾، وألّد خصوم مصطفى كمال من النواب ورجال الدولة، غادروا أنقرة والنفوا حوله في استانبول⁽²⁾.

كل ذلك أغضب مصطفى كمال الذي عدّ الخلافة سبباً في تخلف تركيا وإبعادها عن مسيرة الدول المتقدمة، وعلى الفور أرسل أوامره إلى استانبول بإلغاء هذه المظاهر، وتوجيه تهمة خيانة الجمهورية بحق كل من يتواجد مع الخليفة (عبدالمجيد)، ثم أصدر قانوناً ينص على تخفيض مخصصات الخليفة إلى النصف، ومنع أفراد عائلته من دخول الجيش التركي⁽³⁾.

مما أثار الرأي العام ضده، وجعل الفتنة الدينية تتفاقم، وخاصةً بعد اتهامه بالكفر والإلحاد من قبل الخطباء والوعاظ⁽⁴⁾، وهنا أدرك مصطفى كمال صعوبة الموقف، وقرر التخلص من الخلافة إلى الأبد عندما تحين الفرصة لذلك، وكان له ما أراد عندما طالب الزعيم الهنديان (آغا خان وأمير علي) باسم مسلمي الهند باحترام خليفة المسلمين ومكانة منصبه الدينية⁽⁵⁾، وبما أن آغا خان كان يعيش في إنكلترا، ويمضي أيامه ولياليه متنقلاً فيها، فهو إذًا عميلٌ لها وأرادت من خلاله أن تعبت بحياة الأتراك كلما هيأت لها الظروف ذلك⁽⁶⁾.

(1) هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية (نموذج الإمام سليمان حلمي)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1998م، ص 104.

(2) عبد القديم زلّوم، كيف هدمت الخلافة، د.د. د. م، ط3، 1990م، ص 97.

(3) درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية.....، ص 104.

(4) زلّوم، كيف هدمت.....، ص 97.

(5) جبارة، تاريخ الدولة العثمانية 1280.....، ص 257.

(6) عبد الحميد الكاتب، حكاية أتاتورك والإسلام، دار أخبار اليوم، مصر، د. ت، ص 123.

ومن هنا جاءت نقطة القوة التي ارتكز عليها مصطفى كمال، واستغلها أحسن استغلالٍ في إخماد الفتنة التي قامت في البلاد من جهة، وإثارة الناس ضد الخليفة وشركائه من جهةٍ أخرى، وليسكت معارضيهِ عَمَدَ إلى اغتيال أحد النواب، وهدد آخر بالشنق إذا استمر في تأييد الخليفة، كما أجبر رؤوف على أداء قسم الولاء له وللجمهورية⁽¹⁾.

ووسط هذه الأجواء، اقترح خمسون نائباً من أعضاء المجلس الوطني برئاسة الشيخ (صفوت أفندي) مشروع قانونٍ يتضمن نفي آل عثمانٍ خارج تركيا، وإلغاء الخلافة نهائياً⁽²⁾، وفي 3 آذار 1924م قَدَّم مصطفى كمال إلى المجلس الوطني مرسوماً (بإلغاء الخلافة)، حدّث فيه النواب عن ضرورة صون الجمهورية مهما كان الثمن غالياً، وأنّ موعد التخلص من الخليفة ومخلفات الأسرة العثمانية قد حان وقته، كما أشار إلى وجوب إنشاء محاكم وقوانينٍ عصريةٍ بدلاً من القديمة، وبعد انتهاء حديثه تمت الموافقة على هذا القانون⁽³⁾.

وأعلن مصطفى كمال في اليوم نفسه (إلغاء الخلافة العثمانية)، وإبعاد الخليفة (عبد المجيد) وأفراد عائلته من تركيا، وهكذا انتهت آخر العقبات أمام مصطفى كمال في صون الجمهورية، وتحويل تركيا إلى دولةٍ علمانيّةٍ غربيّة⁽⁴⁾.

2- الأسس الجديدة لتركيا الكماليّة:

بعد القضاء على الخلافة العثمانية، وما حملته من مورثاتٍ إسلاميّةٍ متأصلةٍ في الماضي الرافض لأي شكلٍ من أشكال التجديد والتطوير، انطلق مصطفى كمال نحو تحقيق دولته العلمانيّة التي لطالما حلم بها، وفكر بكل تفاصيلها منذ إعلان النظام الجديد للحكم (الجمهورية)⁽⁵⁾.

(1) زلّوم، كيف هدمت.....، ص 97.

(2) الكاتب، حكاية أتاتورك.....، ص 123.

(3) درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية.....، ص 106.

(4) عبد الباري محمد الطاهر، دولة الخلافة العثمانية (قراءة في نشأتها ومظاهر حضارتها وعوامل سقوطها)، دار زرقاء اليمامة للنشر، الفيوم، د. ت، ص 142.

(5) محمد عزة دروزة، تركيا الحديثة، دار الكشف، بيروت، 1946م، ص 69.

كانت علمنة⁽¹⁾ دولة لها ماضٍ طويلٍ كالدولة العثمانية، يحتاج إلى سلسلةٍ من الإجراءات والقرارات الحاسمة، التي من شأنها أن تخلق التغيير المطلوب لذلك.

- كانت أولى خطواته التخلص من سيطرة الدين ورجاله على مؤسسات الدولة، من خلال إصدار قرارٍ مرافقٍ لقرار إلغاء الخلافة في 3 آذار 1924م⁽²⁾، يتضمن ما يلي:

أ- إلغاء وزارتي الأوقاف والشرعية، واستبدالهما بمنصبٍ جديدٍ عرف باسم (رئاسة الأمور الدينية)، اقتصرت صلاحياته على المسائل المتعلقة بالعقائد والعبادات الدينية، أما تشريع وتنفيذ الأحكام الخاصة بقضايا الناس فأصبحت من اختصاص حكومة الجمهورية ومجلس الأمة فقط، كما تم ربط الأوقاف الدينية بمديرية عامةٍ تابعةٍ لرئاسة الوزراء، لتُدخل عليها لاحقاً تعديلات وقوانين تخدم مصالح الأمة⁽³⁾.

ب- إلغاء المدارس الدينية وإيقافها، وجعل كل المؤسسات العلمية والتدريسية بمختلف أنواعها تابعةً لوزارة المعارف، وبذلك يكون قد قضى على التدريس الديني ووجد الدراسات جميعها في وزارة واحدة⁽⁴⁾.

أما ضربته التالية فقد وجهها للهرم الديني في 8 نيسان 1924م، عندما أصدر قانوناً ينص على إقفال المحاكم الشرعية للأبد، واستبدالها بنوعين من المحاكم (صلح وأصلية (مركزية)) لكلٍ منها مهامٌ منفصلةٌ عن الأخرى، لتصبح المحاكم المدنية هي الشكل الجديد للقضاء الموحد الذي نجح مصطفى كمال بتشكيله في الجمهورية⁽⁵⁾

(1) علمنة: إن كلمة العلمانية تعني عزل الدين والكنيسة عن شؤون المجتمع، وسياسة مؤسساته لحساب بناء الدولة البرجوازية، وفي سبيل دعمها. وهي النظرية التي تقول: أن الأخلاق والتعليم يجب ألا يكونا مبنيين على أسس دينية. للمزيد: محمد عمارة، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، دار الرشاد، القاهرة، ط2، 1997م، ص 17. أيضاً: محمد شاكر الشريف، العلمانية وثمارها الخبيثة، تقديم عبد الله الجبرين، مكتبة الإيمان، اسكندرية، د. ت، ص 7.

(2) دروزة، تركيا....، ص 69.

(3) دروزة، تركيا....، ص 70.

(4) دروزة، تركيا....، ص 72.

(5) دروزة، تركيا....، ص 70.

ثم نقل اهتمامه إلى الدراويش الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير بين الناس، وللحد من خطرهم نجده يعمل على إصدار قرار بإغلاق كافة الزوايا، التكايا، والقبور التي تمثلهم، وقد سعى إلى تنفيذه بكل جدية فيما بعد⁽¹⁾.

كما أن تحديث المظهر التركي والتخلص من رموز الدولة العثمانية، كان الشغل الشاغل لمصطفى كمال الذي رأى ضرورة التخلص من الطربوش ولبس القبعة بدلاً منه، مع وجوب اقتصار الزي الديني والعمامة على رجال الدين فقط وداخل المساجد حصراً، وهناك قوانين صدرت بذلك في الأعوام اللاحقة لموضوع دراستنا⁽²⁾.

- كان الهدف الثاني لمصطفى كمال هو القانون، وبما أنه يمس حياة المجتمع والفرد التركي بشكل خاص، فقد كان تغييره من أخطر الخطوات الانقلابية التي ستمر على تركيا، حيث قام في عام 1924م بتشكيل لجنة لدراسة القوانين المدنية الغربية⁽³⁾، انتهت أعمالها إلى صياغة قانون مدني مقتبس عن القانون السويسري، وقانون تجاري على نمط القانونين الألماني والإيطالي، وقانون جنائي مستمد من قانون العقوبات الإيطالي⁽⁴⁾.

ومن هنا جاء قانون الأحوال الشخصية الذي سنذكر منه بعض البنود، كالغاء المهور المقدمة من قبل الرجال، ومنع الزواج الثاني (تعدد الزوجات)، إضافة إلى إعلان المساواة بين الذكر والأنثى في أمور الميراث، وضرورة موافقة الطرفين على الطلاق، وغيرها من القوانين الغربية التي حلت محل القوانين الإسلامية ونسفتها بالكامل⁽⁵⁾.

كانت المساواة بين الرجل والمرأة في القانون، هي بداية النهضة النسائية التي نالت النصيب الأكبر من اهتمام مصطفى كمال، ودعواته التي لم تهدأ من أجل إيصال المرأة إلى طريق المدنية الغربية، فقد استطاع بفضل جهوده الحثيثة إخراجها من عزلتها، وتحريرها من حجابها بارتداء الملابس العصرية المستمدة من أوروبا، ومشاركتها⁽⁶⁾.

(1) فيروز أحمد، صنع تركيا الحديثة، ترجمة سلمان داوود الواسطي وحمد حميد الدوري، بيت الحكمة، بغداد، 2000م، ص 182.

(2) الكاتب، حكاية أتاتورك.....، ص 115.

(3) دروزه، تركيا....، ص 87.

(4) أحمد، صنع تركيا.....، ص 183.

(5) عبد اللطيف الصباغ، تاريخ الدولة العثمانية، د.د. د. م، 2013م، ص 131.

(6) فؤاد شمالي، تركيا الحديثة، دار المكتبة الأهلية، بيروت، 1939م، ص 115.

للرجل في جميع نواحي الحياة الاجتماعية⁽¹⁾.

ونظراً لأهمية دورها في بناء المجتمع الحديث المتقدم، نجد مصطفى كمال يسعى إلى تعليمها وتنقيفها من خلال جعل التعليم الابتدائي إجبارياً للذكور والإناث، وتحويل المدارس الابتدائية والعالية من ذكور فقط إلى مختلطة⁽²⁾، وإدخاله الأسلوب الغربي إلى هذه المدارس، فضلاً عن اللغات الأجنبية كالفرنسية، الألمانية، والإنكليزية.

ولم يكتف بذلك، فقد خص النساء بمدارس لإعداد المعلمات، وأخرى فنية ومهنية، كما فتح أبواب الجامعة أمامها، وقام بإرسال الفتيات إلى أوروبا في بعثات علمية كانت تزداد العام تلو الآخر⁽³⁾.

أصبحت المرأة التركية في عهد مصطفى كمال معلمة، قاضية، محاسبة، كاتبة، موظفة، ومع مرور الوقت عضواً في مجالس البلديات والولايات، ثم حصلت على النيابة والوزارة، وبذلك تكون قد دخلت إلى جميع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية بممارستها أيضاً مهنة الطب، المحاماة والصحافة⁽⁴⁾.

وخير دليل على درجة الرقي العلمي والتقدم الاجتماعي الذي وصلت إليه المرأة التركية، يمكننا أن نذكر ما تناقلته الجرائد في تلك الفترة عن مشاركة شابة تدعى (نعمت هانم) مع والدها (جميل بك) مندوب تركيا إلى فرنسا في مؤتمر عصبة الأمم، وإلقائها خطبة باللغة الفرنسية، أثارت فيها استحسان وإعجاب جميع الحاضرين بفصاحتها وشخصيتها⁽⁵⁾.

ومما تقدم نرى المرأة التركية وقد أثبتت جدارتها وأهليتها في كل المجالات، بمشاركتها إلى جانب الرجل في بناء تركيا الحديثة، وتأسيس جيل مختلف عن الأجيال التي سبقته فكرياً واجتماعياً، كما كان يطمح مصطفى كمال طوال الفترات الماضية، فالمرأة نصف

(1) شمالي، تركيا، ص 115.

(2) شمالي، تركيا، ص 92، 93.

(3) مجهول المؤلف، النهضة النسائية في تركيا، مجلة المقتطف (علمية صناعية زراعية)، الجزء الأول من المجلد الثالث والستين، القاهرة، 1 تموز/ 1923م، ص 79.

(4) دروزة، تركيا....، ص 105.

(5) مجهول المؤلف، المرأة التركية في العصبة، جريدة التقدم (يومية سياسية أدبية)، العدد 1979، حلب، 12 آب/ 1924م، د. ص.

المجتمع وفي صلاحها صلاح للمجتمع.

- لم يهدأ مصطفى كمال طوال فترة حكمه، ولم تنطفئ شعلة إعجابه بأوروبا وحضارتها، حيث تتابعت ضرباته الموجهة إلى كل ما هو قديم وبالٍ، محاولاً بكل الوسائل إنقاذ الاقتصاد المريض الذي ورثته الجمهورية التركية، من خلال تخصيص الحصة الأكبر من الميزانية لدفع الديون العامة، وتشجيع الاستثمار الأجنبي المشترك مع التركي، أي أنه سعى إلى دعم الرأسمال الوطني الذي سيكون الركيزة الأساسية في التطور الاقتصادي، كما قام بتأسيس أول (مصرف تجاري تركي) في عام 1924م، وحظيت الصناعة الوطنية أيضاً باهتمامه وتشجيعه الدائم⁽¹⁾،

ونتيجة تعصبه المطلق لتفوق العنصر التركي والقومية التركية، قام بما يلي:

* استبعاد كل الكلمات الدخيلة على اللغة التركية -فارسية، كردية، عربية، يونانية- والدعوة إلى استبدالها باللغة التركية الصرفة.

* ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وأصبح أداء الصلوات والدعوات باللغة التركية بدلاً من العربية.

* حذف عبارة (دين الدولة الإسلام) من الدستور.

* أعطى لكل عائلة لقباً تركياً ليسهل التمييز بينهم، وكان لقبه أتاتورك (أبو الأتراك)⁽²⁾.

* اتخاذ التقويم الغربي (الميلادي) تقويمياً رسمياً بدلاً من الهجري.

* ألغى الحروف والأرقام العربية، واستبدالها باللاتينية.

* جعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة⁽³⁾.

هذه الإجراءات وغيرها الكثير أصدر بها مصطفى كمال قوانين بعد عام 1924م، وكان لابد أن نلقي الضوء عليها لنستطيع توضيح النجاح الكبير الذي حققه مصطفى كمال خلال مدة حكمه القصيرة، فقد كان فصل الدين عن الدولة وإعلان علمنتها، واتخاذ تدابير من شأنها إحداث صدمات كبيرة في المجتمع لغرابتها عنه، من الأهمية أن يسجل ويذكر بكل مصداقية.

(1) أحمد، صنع تركيا.....، ص 216- 218.

(2) خانكي، ترك.....، ص 30- 33.

(3) وليد رضوان، تركيا بين العلمانية والإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين 1950- 2000م، شركة المطبوعات للنشر، بيروت، ط1، 2006م، ص 46.

خامساً: استنتاج الفصل الثالث:

من خلال دراستنا لسيرة مصطفى كمال الشخصية وأعماله، توصلنا إلى النتائج التالية:

1- أدت الطفولة المتقلبة التي عاشها مصطفى كمال أتاتورك، والتي تفاوتت بين القسوة تارةً، والتهاون واللين تارةً أخرى، دوراً مهماً في تكوين اندفاعاته وتوجهاته المستقبلية التي رافقته طوال حياته.

2- ساهمت الأوضاع القلقة وغير المستقرة، التي مرّ بها أتاتورك خلال دراسته في الكلية الحربية العليا، في نضج ووعي القومية التركية لديه، فضلاً عن التعصب الكبير الذي ازداد لأبناء عرقه، والإيمان بفكرة تفوقهم على بقية الشعوب.

3- اندماج مصطفى كمال مع المنظمات السرية، وعلاقاته وصلاته التي لم تنقطع معها، كان له الأثر الأكبر في توسيع آفاقه السياسية، والغوص في تشعباتها وتعقيداتها التي اكتسبته خبراتٍ عديدةٍ لا يمكن الاستهانة بها.

4- كان دخول الحرب العالمية الأولى خطأً لا يغتفر ولا يمكن نسيان نتائجه، وما أصاب مصطفى كمال وقواته من هزائم أثناء انسحابهم من المشرق العربي، جعله يحقد على مؤسسة الخلافة، ويحملها كامل مسؤولية تخلف البلاد وتفككها.

5- استطاع مصطفى كمال بعبقريته وذكائه، أن يغتنم فرصة اليأس والخوف الذي سيطر على الشعب التركي نتيجة الحروب المتتالية، ليجعل من نفسه بطلاً قومياً ينادى ويهتف باسمه في طول البلاد وعرضها.

6- نظر مصطفى كمال إلى الدين على أنه عامل من عوامل الرجعية، ولا بد أن ينفصل بشكلٍ تامٍ عن سلطات الدولة، بل وأن تفرض الدولة سيطرتها عليه، لذلك عمل بكل صرامةٍ على نزع الروابط بين أي تصرف له علاقة بالأمور الدينية وبين مؤسسات الدولة وسياساتها.

7- إن تبني مصطفى كمال الأيديولوجية العلمانية كإطارٍ حدد به ملامح دولته القائمة على أنقاض الدولة العثمانية في شكلها الداخلي والخارجي، أدى إلى ترسيخ مبادئ جديدة تعمل على رسم السياسات الرئيسة التي يقوم عليها بناء الدولة، والتي نتج عنها تصدعات كبيرة لم يقتصر أثرها على الاصطدام بقيم وثوابت المجتمع العثماني، بل وصل تأثيرها إلى كل أنحاء العالم الإسلامي فيما بعد.

8- لم تكن علمانية أتاتورك تسير على نسق العلمانية الغربية، التي تفصل الدين عن الدولة وتطلق الحريات للأفراد، بل كانت علمانية ديكتاتورية تقوم على فكرة القومية، بحيث تكون العلاقة بين أبناء الشعب التركي علاقة (وطن) بعيداً عن الدين.

9- كان مصطفى كمال رجل حرب وسياسة لا يستهان به، ولذلك نجده يجعل من الجيش المؤسسة الحامية لنظامه العلماني، والقوة المحاربة لتسلل أي مظهر من مظاهر الإسلامية التي يمكن أن تعود إلى البلاد.

في النهاية نقول:

إن مصطفى كمال أتاتورك يستحق بكل جدارة لقب منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، وقدرته على نبذ أفكار وعادات سيطرت على المجتمع لقرون طويلة من الزمن، وحولته إلى ألعبوبة بيد الدول الكبرى، عمل لا يستهان به وتنحني القبعات له، ومن الطبيعي على مر التاريخ أن يتعرض صانعوا التغيير إلى المعارضة والمقاومة بسبب إدخالهم أفكار غريبة عما هو متعارف بين الناس، فكيف إذا تعلق التغيير بالدين المتأصل في النفوس؟ لذلك نجد العديد من الكتاب المتعصبين للدين حاولوا تشويه صورة مصطفى كمال، وطمس معالم النهضة التي أحدثها، بنعته بالعميل واليهودي والمجرم وغيرها من الصفات التي لم يقدم معها أدلة وبراهين على صحتها،

ومصطفى كمال سار ببلاده نحو التطوير والتحديث ووضعها بموقع القوة بعد أن كانت في طريقها إلى الهاوية المؤكدة، وباعتقادي أن تركيا لم تكن موجودة بوضعها الحالي لولا الذئب الأغبر مصطفى كمال.

خاتمة

عندما تتعذب اللغة لتتحت مصطلحاً لا وجود له من قبل في معجمها، فهذا دليلٌ على أنها إزاء ظاهرةٍ جديدةٍ من ظاهرات الواقع لم يسبق لها أن واجهت مثلها، لتسميها ولتصوغ المفردة التي تطابقها.

وهذا ما حدث بالضبط في الدولة العثمانية، عندما حاولت الأفكار والمفاهيم العلمانية أن تغزوها، فالانغلاق الفكري الذي أحاط السلطان عبد الحميد الثاني به دولته عن كل ما هو جديدٌ وقادمٌ من الحضارة الغربية، جعل الأصوات تتعالى تدريجياً مطالبةً باستقدام هذه الأفكار وتبنيها، وما لبثت أن تحولت إلى جمعيّاتٍ سياسيةٍ سريةٍ أخذت تجمع المناصرين وتحرضهم ضد سياسة حكومتهم المستبدة، وهنا بدأت الأيدي اليهودية وعلى وجه الخصوص الدونمة تمتد لتقدم الدعم المادي والمعنوي تارةً، وتزيد التحريض وتشعل النفوس المضطربة تارةً أخرى.

وبتغطيةٍ ماسونيةٍ تمكنت جمعية الاتحاد والترقي من السيطرة على الحكم والانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، محققةً بذلك أسمى أمنيات اليهود حيث خلصتهم من أكبر معادٍ لهم ولمشروعهم الاستيطاني.

وبما أن القومية سلاحٌ ذو حدين، قد تجمع الأمم أو تفرق شملهم بحسب الأهداف التي توجه لها، كان استخدامها من قبل الاتحاديين الذين تعصبوا لقوميتهم، ونادوا بالطورانية المنشأة بأيدي يهوديةٍ ومخططاتٍ استعماريةٍ لها أهدافها التدميرية المبطنة، أكبر محرضٍ ومستفزٍ للقوميات الأخرى التي كانت تشكل مكوناً هاماً من مكونات الدولة العثمانية وخاصةً العربية، التي ضاقت ذرعاً بعنجهية الأتراك وغرورهم القومي، فما كان منها إلا أن أنهت ارتباطها بهم معلنةً استقلالها عن الدولة العثمانية.

في هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية تتخبط في نيران الحرب العالمية الأولى، التي انتهت باحتلال أراضيها وإرغامها على التخلي عن كامل ممتلكاتها خارج آسيا الصغرى، ومع الأطماع اليونانية وهجماتهم الحاقدة برز مصطفى كمال على مسرح الأحداث كمنقذٍ استطاع تحرير بلاده وتخليصها من نهايةٍ كارثيةٍ كادت تحل بها.

وما أن صعد مصطفى كمال إلى الحكم حتى بدأت حركة العلمنة الحقيقة تغزو المجتمع العثماني، حيث عمل على تثوير أسس النظام القديم، وتركيز أسس العلمانية الحديثة، فكان إلغاء الخلافة العثمانية وإعلان قيام الجمهورية التركية، أول خطوة اتخذها مصطفى كمال في طريق علمانية الدولة وانفتاحها على الغرب، حيث حاول بعد ذلك تأويل الإسلام بروحٍ قوميةٍ، وبطريقةٍ تتوافق فيها الضرورات التي يتطلبها مجتمعٌ علمانيٌّ مع العقائد الدينية، فيغدو بسط هيمنة ما هو سياسي على ما هو ديني محور العلمانية التركية الجديدة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

أ- المصادر

- 1- شمالي، فؤاد: تركيا الحديثة، دار المكتبة الأهلية، بيروت، 1939م.
- 2- المؤلف، مجهول: ثورة العرب (مقدماتها، أسبابها، نتائجها)، دار المقطم، مصر، 1916م.

ب- المراجع

- 1- أرباعي، سيف الله: السلطان عبد الحميد الثاني (مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية)، دار النيل، القاهرة، ط1، 2011م.
- 2- أرمسترونج، هـ.س: الذئب الأغبر مصطفى كمال، دار الهلال، القاهرة، 1952م.
- 3- برجاي، سعيد أحمد: الإمبراطورية العثمانية (تاريخها السياسي والعسكري)، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1993م.
- 4- برو، توفيق علي: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914م، دار الهنا، القاهرة، 1960م.
- 5- البستاني، يوسف: تاريخ حرب البلقان الأولى بين الدولة العلية والاتحاد البلقاني، دار هنداي للنشر، القاهرة، 2012م.
- 6- النائب، محمود علي: الجمعية اليهودية السرية في مختلف صورها، دار اقرأ، بنغازي، 1990م.
- 7- توفيق، محمد: كمال أتاتورك، دار الهلال، القاهرة، 1936م.
- 8- جبارة، تيسير: تاريخ الدولة العثمانية 1280-1924م، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2015م.
- 9- الجمعة، عبد الله صالح: عظماء بلا مدارس، العبيكان للنشر، الرياض، ط6، 2001م.
- 10- الجمل وإبراهيم، شوقي عطا الله وعبد الله عبد الرازق: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الزهراء، الرياض، ط2، 2002م.
- 11- الجهماني، يوسف إبراهيم: ملفات تركية (أتاتورية القرن العشرين)، دار حوران، دمشق، ط1، 2000م.
- 12- الحارتي، إبراهيم: الصهيونية من بابل إلى بوش، دار البشير، مصر، د.ت.

- 13- حبيب، كمال السعيد: الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية (من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية 622-1908م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2002م.
- 14- حرب، محمد: مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، دمشق، ط3، 1991م.
- 15- حرب، محمد: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات المصرية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994م.
- 16- حسن، جعفر هادي: فرقة الدونمه بين اليهودية والإسلام، مؤسسة الفجر، بيروت، ط3، 1988م.
- 17- حسن، ياسر أحمد: تركيا (البحث عن مستقبل)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.
- 18- حسون، علي: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1994م.
- 19- حسونه، خليل إبراهيم: الماسونية قديماً وحديثاً، مكتب الإعلام والبحوث والنشر، طرابلس- ليبيا، ط1، 1994م.
- 20- حلو، مرغريت: الإسلام والسياسة في تركيا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مركز الدراسات الأرمنية، بيروت، 1995م.
- 21- حمدان، جمال جمال: اليهود انثروبولوجيا، تقديم عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، سوريا، د.ت.
- 22- حمدان، محمد: الجماعات اليهودية في تركيا وأثرها على المجتمع التركي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2009م.
- 23- الحميدي، سعد تامر: الصراع بين القوميتين العربية والتركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين، مطابع ريبودا الحديثة، الدوحة، ط1، 2011م.
- 24- الخالدي، روجي: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، دار الهنداوي، القاهرة، 2012م.
- 25- الخالدي، محمد فاروق: المؤامرة الكبرى على بلاد الشام، دار الراوي، الدمام، ط1، 2000م.
- 26- خانكي، عزيز: ترك وأتاتورك، المطبعة العصرية، مصر، د.ت.
- 27- الخراشي، سليمان بن صالح: كيف سقطت الدولة العثمانية، دار القاسم، الرياض، ط1، 2000م.
- 28- خضر، هشام: أتاتورك ودوره في القضاء على الخلافة العثمانية، مكتبة النافذة، الجيزة، ط1، 2009م.
- 29- خوري، جبران: الصهيونية والطورانية وتأثيرهما على مستقبل شعوب المنطقة، دار الصداقة، حلب، ط1، 1994م.
- 30- داغر، أسعد خليل: ثورة العرب، دار الهنداوي، مصر، 2012م.

- 31- دروزة، محمد عزة: تركيا الحديثة، دار الكشف، بيروت، 1946م.
- 32- دروزة، محمد عزة: حول الحركة العربية الحديثة، 6 أجزاء، المطبعة العصرية، صيدا، 1950م، ج1.
- 33- درويش، هدى: الإسلاميون وتركيا العلمانية (نموذج الإمام سليمان حلمي)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1998م.
- 34- درويش، هدى: حقيقة يهود الدونمه في تركيا (وثائق جديدة)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط1، 2003م.
- 35- درويش، هدى: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمه 1648م إلى نهاية القرن العشرين، جزآن، دار القلم، دمشق، ط1، 2002م، ج1، 2.
- 36- دياب، محمود: الصهيونية العالمية والرد على الفكر الصهيوني المعاصر، مطبوعات الشعب، دم، دب.
- 37- الدين، صالح زهر: اليهود في تركيا، دار الصداقة، حلب، ط1، 1996م.
- 38- رحال، أحمد سالم: فلسطين بين حقيقة اليهود وأكذوبة التلمود، دار البداية، عمان، ط1، 2008م.
- 39- رضوان، وليد: تركيا بين العلمانية والإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين 1950-2000م، شركة المطبوعات للنشر، بيروت، ط1، 2006م.
- 40- الروقي، عايض بن خزام: حروب البلقان والحركة الصهيونية في المشرق العربي العثماني 1330-1332هـ/ 1912-1913م، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1996م.
- 41- زبيب، نجيب: التاريخ الحقيقي لليهود منذ نشأتهم الأولى وحتى الآن، دار الهادي، بيروت، ط3، 2007م.
- 42- الزغيبي، أحمد بن عبد الله بن إبراهيم: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، 4 أجزاء، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998م، ج1.
- 43- زلوم، عبد القديم عبد القديم: كيف هدمت الخلافة، دد، د. م، ط3، 1990م.
- 44- أبو زيدون، وديع: تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، دار الاهلية للنشر، عمان، ط1، 2003م.
- 45- الزين، مصطفى: أتاتورك وخلفاؤه، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط1، 1982م.
- 46- الزين، مصطفى: ذنب الأناضول، دار رياض الريس للنشر، لندن، ط1، 1991م.
- 47- سفعان، كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، 1988م.

- 48- سُقُوط، داوود عبد العفو: أبناء يهوذا في الخفاء (القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية)، دار الفرقان، عمان، ط2، 1987م.
- 49- سنو، سعيد: تركيا الكمالية، مكتبة الصحافة للنشر، بيروت، 1938م.
- 50- السهلي، عبد الله بن دجين: الطرق الصوفيّة (نشأتها وعقائدها وآثارها)، دار كنوز إشبيلية، الرياض، ط1، 2005م.
- 51- سوسة، أحمد: العرب واليهود في التاريخ (حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية)، دار العربي، دمشق، ط2، د.ت.
- 52- سوسة، أحمد: أبحاث في اليهودية والصهيونية، دار الأمل، الأردن، 2003م.
- 53- السويلم، أسماء سليمان: الفرق اليهودية المعاصرة، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، د.ت.
- 54- الشاذلي، محمود ثابت: المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1299-1923م)، مكتبة وهبه، القاهرة، ط1، 1989م.
- 55- شاكِر، محمود: التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1991م.
- 56- شاكِر، محمود: التاريخ الإسلامي (التاريخ المعاصر بلاد المغرب)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1996م.
- 57- الشريف، محمد شاكِر: العلمانية وثمارها الخبيثة، تقديم عبد الله الجبرين، مكتبة الإيمان، اسكندرية، د.ت.
- 58- شعيب، علي: كمال أتاتورك، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م.
- 59- الشلق، أحمد زكريا: العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516-1916م، مصر العربية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م.
- 60- الشناوي، عبد العزيز: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ج1.
- 61- صالح، جهاد: الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، دار الصداقة، بيروت، ط1، 1987م.
- 62- الصباغ، عبد اللطيف: تاريخ الدولة العثمانية، د.د، د.م، 2013م.
- 63- صبيح، محمد: أتاتورك، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1945م.
- 64- الصلابي، علي محمد: السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية وأسباب زوال الخلافة العثمانية، المكتبة العصرية، بيروت، 2002م.
- 65- الصويص، سليم: أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، مطبعة سنلر، عمان، ط1، 1970م.

- 66- الطاهر، عبد الباري محمد: دولة الخلافة العثمانية (قراءة في نشأتها ومظاهر حضارتها وعوامل سقوطها)، دار زرقاء اليمامة للنشر، الفيوم، د. ت.
- 67- ظاظا، حسن: الفكر الديني الإسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات الفلسطينية، فلسطين، 1971م.
- 68- عامر، محمود علي: تاريخ الدولة العثمانية، مديرية الكتب والمطبوعات، دمشق، 2004م.
- 69- عامر، محمود علي: تاريخ الماسونية ويهود الدونمه، دار الصفدي، دمشق، ط2، 2007م.
- 70- عبد، نادية ياسين: الاتحاديون (دراسة تاريخية في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية أواخر القرن التاسع عشر - 1908م)، تقديم هاشم التكريتي، دار عدنان، بغداد، 2014م.
- 71- عثمان، أحمد: تاريخ اليهود، 3 أجزاء، مكتبة الشروق، القاهرة، ط2، 2002م، ج3.
- 72- أبو العز، محمد صفى الدين: العلاقات العربية التركية من منظور عربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1991م.
- 73- العزام، عبد الله: المنارة المفقودة، مركز الشهيد عزام الإعلامي، باكستان، ط1، 1989م.
- 74- العزاوي، قيس جواد: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 2003م.
- 75- عفيفي، أبو العلا: الملامتية والصوفيّة وأهل الفتوة، منشورات الجمل، بيروت، 2015م.
- 76- علي، أوركخان محمد: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، د.د، استانبول، ط4، 2008م.
- 77- عنان، محمد عبد الله: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، دار أم البنين، د.م، د.ت.
- 78- عوض، لويس: الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1992م.
- 79- فتّاح، عرفان عبد الحميد: اليهودية (عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية)، دار عمار، عمان، ط1، 1997م.
- 80- قطب، محمد: يهود الدونمه (أصلهم. نشأتهم. حقيقتهم)، المطبعة الفنية، القاهرة، د.ت.
- 81- قطب، محمد: يهود الدونمه في تركيا (الأصل. النشأة. الحقيقة. الخطر)، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2002م.
- 82- قلججي، قدری: الثورة العربية الكبرى 1916-1925م، شركة المطبوعات للنشر، بيروت، ط2، 1994م.
- 83- الكاتب، عبد الحميد: حكاية أتاتورك والإسلام، دار أخبار اليوم، مصر، د. ت.

- 84- محمد، فريد إبراهيم: إسرائيل اليهود الوجه الخفي (الماضي والحاضر)، جزآن، دار قباء، القاهرة، 2004م، ج1.
- 85- المدني، سليمان: تركيا اليهودية، دار الأنوار، دمشق، 1997م.
- 86- بني المرجة، موفق: صحوة الرجل المريض، دار الكويت للصحافة (الأنباء)، الكويت، 1984م.
- 87- المسيري، عبد الوهاب: اليد الخفية (دراسات في الحركات اليهودية الهدامة والسرية)، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م.
- 88- مصطفى، أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، ط2، 1986م.
- 89- مصطفى، نادية محمود: العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسالة الشرقية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996م.
- 90- منسي، محمود صالح: حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م.
- 91- النتشه، رفيق شاك: عبد الحميد الثاني وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1991م.
- 92- النجار، جميل موسى: الإدارة العثمانية في ولاية بغداد (من عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني 1869-1917م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1991م.
- 93- نجم، زين العابدين شمس الدين: تاريخ الدولة العثمانية، دار المسيرة، عمان، ط1، 2010م.
- 94- الندوي، أبو الحسن علي الحسني: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار القلم، الكويت، ط4، 1983م.
- 95- النفزاوي، محمد الناصر: التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918م، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط1، 2001م.
- 96- النعيمي، أحمد نوري: النظام السياسي في تركيا، دار زهران للنشر، عمان، ط1، 2011م.
- 97- النعيمي، أحمد نوري: اليهود والدولة العثمانية، دار البشير، عمان، ط1، 1997م.
- 98- النعيمي، أحمد نوري: الدور السياسي ليهود الدونمه في تركيا، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط1، 2001م.
- 99- النعيمي، أحمد نوري: الدولة العثمانية واليهود، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006م.
- 100- النعيمي، أحمد نوري: يهود الدونمه (دراسة في الأصول والعقائد والمواقف)، دار البشير، مصر، 1995م.

- 101- نويهض، عجاج: بروتوكولات حكماء صهيون، مجموعة الأجزاء الأربعة، دار الاستقلال، بيروت، ط4، 1996م.
- 102- هلال، رضا: السيف والهلال، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999م.
- 103- همو، عبد المجيد: الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات، تدقيق إسماعيل الكردي، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003م.
- 104- الهندي، هاني: الحركة القومية العربية في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2015م.
- 105- ياغي، إسماعيل أحمد: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، مكتبة العبيكان، د. م، 1995م.
- 106- اليافي، نعيم جمال باشا السفاح، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1993م.

ج- الموسوعات

- 1- أوزتونا، يلماز: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري 1231-1922م، ترجمة عدنان محمود سلمان، 4 أجزاء، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2010م، ج3.
- 2- حسن، سليم: موسوعة مصر القديمة (عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية)، 18 جزء، دار الهنداوي، القاهرة، 2012م، ج4.
- 3- الحفني، عبد المنعم: الموسوعة الصوفية (أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية)، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1992م.
- 4- شربل وحناء، مورييس أسعد وكمال: موسوعة بلدان العالم بالأرقام، دار الفكر العربي، لبنان، ط1، 1999م.
- 5- عثمان وأحمد، حسام الدين إبراهيم ومصطفى أحمد: الموسوعة الجغرافية، 3 أجزاء، دار العلوم، القاهرة، ط1، 2004م، ج3.
- 6- العفيفي، عبد الحكيم: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، أوراق شرقية للنشر، بيروت، 2000م.
- 7- العلماء، مجموعة من: الموسوعة العربية الميسرة، 7 مجلدات، المكتبة العصرية، بيروت، ط3، 2007م، مج 3.
- 8- الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، 7 أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994م، ج7.
- 9- المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 7 أجزاء، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999م، ج5، 6، 7.

د- المعاجم

- 1- البعلبكي، منير: قاموس المورد (عربي- إنكليزي)، دار العلم للملايين، بيروت، 1972م.
- 2- البعلبكي، منير: معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1992م.
- 3- عتريس، محمد: معجم بلدان العالم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2001م.
- 4- نبهان، يحيى محمد: معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا، عمان، ط1، 2008م.

هـ - الدوريات

- الصحف

- 1- المؤلف، مجهول: المرأة التركية في العصابة، جريدة التقدم (يومية سياسية أدبية)، العدد 1979، حلب، 12 آب/ 1924م.

- المجلات

- 1- أتينجر، صموئيل: اليهود في البلدان الإسلامية (1850- 1950)، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، مجلة عالم المعرفة، العدد 197، الكويت، أيار/ 1995م.
- 2- باشي، عطاء الله ترزي: من رجال الفكر في تركيا (ضياء كوك ألب)، مجلة الرسالة، العدد 864، القاهرة، كانون الثاني/ 1950م.
- 3- الدوري، إسماعيل نوري: محمود شوكت خديعة جماعة الاتحاد والترقي في خلع السلطان عبد الحميد الثاني، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 3، العراق، آذار/ 2009م.
- 4- الركابي، كريم طلال مسير: ثورة الاتحاديين في تركيا 1908م، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 49، العراق، 2006م.
- 5- سعيد وثابت، أمين محمد وكريم خليل: سيرة مصطفى كمال باشا وتاريخ الحركة التركية الوطنية في الأناضول، مجلة اللطائف المصورة، القاهرة، ط1، 1922م.
- 6- سلمان، محمد عصفور: العثمانيون الجدد أفكارهم الإصلاحية ودور نامق كمال في بلورتها، مجلة ديالى، العراق، د.ت.
- 7- كاظم، إلهام محمود: دور يهود الدونمه في انهيار الدولة العثمانية، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 7، جامعة بابل، أيار/ 2012م.
- 8- المؤلف، مجهول: النهضة النسائية في تركيا، مجلة المقتطف (علمية صناعية زراعية)، الجزء الأول من المجلد الثالث والستين، القاهرة، 1 تموز/ 1923م.

و- الأطروحات الجامعية

1- السليمي، هيله بنت سعد بن محمد: دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 2001م، 244 صفحة.

2- أبو ميزر، ابتسام: سنتان مفصلتان في حكم الإمبراطورية العثمانية 1908-1909م، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة بير زيت، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ العربي الإسلامي، 2017م، 152 صفحة.

3- الوديناني، خلف بن دبلان بن خضر: الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام 1909م، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 1990م، 536 صفحة.

ثانياً: المصادر والمراجع المترجمة:

1- أتاتورك، مصطفى كمال: مذكرات الغازي مصطفى كمال باشا، تعريب عبد العزيز أمين الخانجي، مطبعة النهضة، مصر، 1926م.

2- أتاتورك، مصطفى كمال: الخطاب العظيم (أتاتورك مصطفى كمال باشا)، تقديم مصطفى طلاس، ترجمة أحمد سليمان إبراهيم ومحمد يوفاء، دار طلاس للنشر، دمشق، ط1، 2010م.

3- آتخان، جواد رفعت: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القبلي، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1990م.

4- أحمد، فيروز: صنع تركيا الحديثة، ترجمة سلمان داوود الواسطي وحمد حميد الدوري، بيت الحكمة، بغداد، 2000م.

5- أنطونيوس، جورج: يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1987م.

6- أوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ط1، 1990م.

7- باش، سليمان جوقة: السلطان عبد الحميد الثاني شخصيته وسياسته، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2008م.

8- باشا، جمال: مذكرات جمال باشا، إعداد محمد السعيد، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م.

9- تركي سابق، ضابط: الرجل الصنم مصطفى كمال أتاتورك (حياة رجل ودولة)، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، الأهلية للنشر، الأردن، ط1، 2013م.

10- ج. شو، ستانفورد: يهود الدولة العثمانية والجمهورية التركية، ترجمة الصفصافي أحمد القطوري، دار البشير، مصر، ط1، 2015م.

- 11- رامزور، أرنست أ: تركية الفتاة وثورة 1908م، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة فرنكلين للنشر، بيروت، 1960م.
- 12- زاده وهالسل، عثمان بك كبريزلي وغريس: المال والإعلام في الفكر اليهودي والممارسة الصهيونية، تقديم أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999م.
- 13- طوران، مصطفى: يهود الدونمه، ترجمة كمال خوجه، دار السلام، الأزهر، ط1، 1977م.
- 14- طوران، مصطفى: أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خزجه، دار السلام، القاهرة، ط4، 1985م.
- 15- العزاوي، قيس جواد: الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلابات 1908-1913م، ترجمة عاصم عبد ربه، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2017م.
- 16- فرومكين، ديفيد: نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، تقديم منذر الحايك، دار عدنان، بغداد، ط1، 2015م.
- 17- كلشي، حسن: الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار قدسية، الأردن، ط1، 1990م.
- 18- لويس، برنارد: ظهور تركيا الحديثة، ترجمة قاسم عبده قاسم وساميه محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016م.
- 19- مارسدن، فكتور: بروتوكولات حكماء صهيون، دار الحرية، القاهرة، 2003م.
- 20- مانتران، روبير: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، جزآن، دار الفكر للنشر، القاهرة، ط1، 1992م، ج2.
- 21- مورغنتو، هنري: مذكرات سفير أميركا في الآستانه، تعريب فؤاد صرّوف، مطبعة المقطم، مصر، 1923م.
- 22- هايمان، نيل م: سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ (الحرب العالمية الأولى)، ترجمة حسن عويضة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 2012م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية

- 1- Andrew Mango, ATATURK, John Murray, London, 1999.
- 2- Edward J Erickson, Mustafa Kemal Ataturk (Leadership- Strategy- Conflict), Osprey, Oxford, 2013.
- 3- Rogan Eugene, The Fall Of The Ottomans (The Great War In The Middle East), Basic Book, New York, 2015.

4- Şükrü Hanıoğlu, Atatürk (An Intellectual Biography), Princeton University Press, Oxford, 2011.

رابعاً: مواقع الإنترنت:

<https://ar.m.wikipedia.org>.

